مشكلات الحضارة

مالك بن نبي

مجالس دمشق





دارالفكر

للطباعة والتوزيع والنشر

دمشق - سورية - ص.ب: ٩٦٢

هاتف: ٢٢١١١٦٦ - فاكس: ٢٢٣٩٧١٦

e-mail: fikr@fikr.com - http://www.fikr.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مشكلات الحضارة

مجالس دمشق

محاضرات ألقيت في عامي ١٩٧١ - ١٩٧٢

حول دور المسلم ورسالته

في الثلث الأخير من القرن العشرين

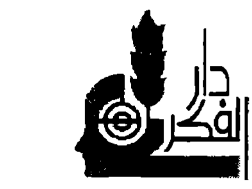
مجالس دمشق: محاضرات ألقيت في عامي ١٩٧١-
١٩٧٢م حول دور المسلم ورسالته.../ مالك بن نبي .-
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٥ .- ١٩٢ص؛ ٢٤سم.
(مشكلات الحضارة)
١-٢١٨,٨ ب ن ن م ٢- العنوان ٣-بن نبي
٤- السلسلة **مكتبة الأسد**

مالك بن نبي

مجالس دمشق

محاضرات ألقيت في عامي ١٩٧١ - ١٩٧٢

حول دور المسلم ورسالته
في الثلث الأخير من القرن العشرين



آفاق معرفة متجدّدة

الرقم الاصطلاحي: ١٨٥١,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-423-X
الرقم الموضوعي: ٣٠١
الموضوع: مشكلات الحضارة
العنوان: مجالس دمشق
التأليف: مالك بن نبي
التنفيذ الطباعي: دار الفكر - دمشق
الإخراج: خالد السروجي
عدد الصفحات: ١٩٢ صفحة
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
Http://www.fikr.com
e-mail: info@fikr.com

مالك بن نبي
مشروع حضاري فعال
٢٠٠٦

الإعادة الثانية
١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م
ط١ / ٢٠٠٥م

المحتوى

الموضوع **الصفحة**

مُقَدِّمَة

إن يكن للمصادفات شأن في حياة الكتب، فهذا الكتاب ابن المصادفة.

إنني حججت هاته السنة مع صغرى بناتي؛ رحمة، لم يتجاوز عمرها الثمانية، ومع والدتها. ثم بعد الحج، ورحلة دامت شهراً ونصف شهر بالسعودية وصلنا إلى بيروت في طريق عودتنا.

ولكن الفرصة المتاحة كانت تراودني أن أطلع (رحمة) على بعض معالم الحضارة الإسلامية بدمشق، فقررت السفر إليها لأقضي فيها يومين أو ثلاثة. وإذا بدمشق تمسكني بكرم أهلها وحسن لقائهم، ثلاثة أشهر كاملة قضيتها في حوار مستمر مع شبابها المتعطش إلى الأفكار.

فهذا الكتاب زبدة تلك المجالس، وهو من ثَمَّ منحة شباب دمشق المسلم إلى الفكر الإسلامي، لأن هؤلاء الشبان هم الذين سجلوها على مسجلاتهم، ثم نقلوها كتابة، ثم بيضوها وصيروها هذا الكتاب.

فالفضل كل الفضل أولاً لله الذي هيأ الفرصة، وكل أسباب تحقيقها، ثم الفضل لهؤلاء الأبناء الكرام، ولتلك البنات - بناتنا المتعففات - الذين هم يمثلون في اعتقادي نخبة الشباب المسلم، والذين حققوا بجهدهم السخي، ما لم يكن ليتحقق بالمصادفة وحدها.

وعليه، فكتاب (مجالس دمشق) هو في الحقيقة كتاب شبابها المؤمن المتنوِّر، ومن ثَمَّ ليست هذه المقدمة الوجيزة سوى إهدائه لأصحابه.

بيروت في ١٣/٨/١٩٧٢.

مالك بن نبي

(*) المقدمة كتبت بخط يد الأستاذ مالك نحتفظ بصورة (فوتو كوبي) عنها.

مقدمة

حول إصدار (مجالس دمشق) بمحتوياته الحاضرة

عمر مسقاوي

كتاب (مجالس دمشق) ورد في قائمة الكتب التي كتبها مالك بن نبي.

فقد أصدرت جميع كتبه بناء على وصيته، لكن مخطوط: (مجالس دمشق) لم يصل إلى يدي، إذ كان بن نبي قد جمعه وهو في دمشق، ونقحه ثم تعاقد مع دار الشروق لكي تنشره كتاباً.

وأنا أعتمد في هذا كله على بعض الوثائق، لأن كتاب (مجالس دمشق) لم يصل إلى يدي من الأستاذ مالك.

أولاً:

رسالة من الأستاذ مالك رحمه الله، وهي الرسالة الأخيرة التي وصلت إليَّ منه قبل وفاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزائر ٤ جمادى الأولى ١٣٩٣

٥ يونيو ١٩٧٣

الابن عمر مسقاوي

يزورني الآن الأخ الأستاذ محمد المعلم مدير دار الشروق. وذكر لي أنك زرته ببيروت، وجعلتني زيارته أراجع ما حصل من توصياتي بمحضرك إلى الأخ زهير.

إنه لم يحصل شيء حتى بالنسبة إلى (الظاهرة القرآنية)، وقد كان يظهر اهتماماته بإعادة طبعها، فإنه بدعوى أن بعض نسخ موجودة بمكتبات سورية يشعر بذلك أن دار الفكر ما زالت جادةً في نشر الكتاب.

وفي آخر يوم إقامتي ببيروت، رجوت الأخ زهير أن يزور معك الأستاذ محمد المعلم؛ أولاً لعيادة أخ مريض، ثم لتسليم نسخة (بين الرشاد والتيه) إليه، طبقاً لتعاقدي معه بهذا الصدد، كتعاقدي معه بصدد (مجالس دمشق)، مع رجائي أن يدخل في العقد التعديل الذي أشرت به، فهذا أمر لا بد من إنجازه. أما بالنسبة إلى الكتب الأخرى فالأمر كما ترى، مع رجائي أن يقدم الأستاذ محمد المعلم على غيره.

ومهما يكن الناشر الذي تختاره فيما سوى (بين الرشاد والتيه) و (مجالس دمشق) المتعاقد فيهما مع دار الشروق، فلا بد في البقية أن يعاد طبع (مذكرات شاهد القرن) (جزء ١ - ٢) طبقاً للنسختين المصححتين المسلمتين لك يوم افترقنا ببيروت ببيت الأخ زهير.

وفيما يخص:

١-(ميلاد مجتمع) أن يطبع طبقاً للنسخة التي صححها الأخ جودت سعيد، وهي بيدك أو بيد الأخ زهير.

٢- (تاملات في المجتمع العربي) ألا يبقى في العنوان إلا كلمة (تاملات) وأن تدخل أيضاً التصحيحات التي اشار بها الأخ جودت سعيد في نسخته.

٣- وبعد هذا وقبل هذا أردد كلمة عمر (العجلَ العجلَ)، ورجائي أن تُبلِّغ تحياتي وتحيات رحمة وأمها إلى ابنتنا مني ولابنتيك الحبيبات ووالدك ووالدتك وعبد الله ومحمد وكافة أسرة المسقاوي والسلام

مالك بن نبي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزائر ٤ جمادى الاولى ١٣٩٢
٥ يونيو ١٩٧٢

الابن عمر مسقاوي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

يزورني الآن الأخ الاستاذ محمد المعلم، مدير دار الشروق، وذكرلي أنك زرته ببيروت، وجعلتني زيارته أراجع مع حصل من توصياتي بحضرك الى الأخ زهير: لأنه لم يحصل بشئ، حتى بالنسبة للظاهرة القرآنية، وقد كان يظهر اهتمامه بإعادة طبعها. فإنه تتصل بدعوى أن بعض نسخ موجودة بمكتبات سوريا. يشعرني [illegible] بذلك أن دار الفكر لا زالت شارعة في نشر الكتاب.

وفي آخر يوم من اقامتي الاخيرة ببيروت، رجوت الأخ زهير أن يزور معك الاستاذ محمد المعلم، اولا لعيادة أخ مريض، ثم لتسليم نسخة "بين الرشاد والتيه" إليه [illegible] طبقا لتعاقدي معه بهذا الصدد. لتعاقدي معه بصدد كتاب "مجالس دمشق" مع رجائي أن يدخل في العقد التعديل الذي أشرت به، فهذا أمر لا بد من انجازه

أما بالنسبة للكتب الاخرى، فالامر كما ترى، مع رجائي أن يقدم الأخ الاستاذ محمد المعلم على غيره

ومهما يكن الناشر الذي تختاره فيما سوى "بين الرشاد والتيه" و"مجالس دمشق" المتعاقد عليهما مع دار الشروق، فلا بد في البغية، أن يعاد طبع: مذكرات شاهد القرن (ج ١ و ٢) طبقا للنسختين المصححتين المسلمتين لك يوم افترقنا ببيروت ببيت الأخ زهير

وفيها يخص:

١) ميلاد مجتمع أن يطبع طبقا للنسخة التي ~~[illegible]~~ صححها الأخ سعيد جودت، وهي بيدك او بيد الأخ زهير

٢) تأملات في المجتمع العربي أن لا يبقى في العنوان الا كلمة "تأملات" وأن تدخل أيضا التصحيحات التي أشار بها الأخ سعيد جودت في نسخته

وبعد هذا، وقبل هذا، أردد كلمة عمر "العمل، العمل" ورجائي أن تبلغ تحياتي وتحيات رحمه وأمها الى ابنتنا صوره ولا تنسى الحبيبات، ووالدك ووالدتك، وعبد الله، ومحمد وكافة الاسرة المسقاوية والسلام

مالك بن نبي

ثانياً:

ثم إن الأستاذ جودت سعيد، بعد وفاة الأستاذ مالك رحمه الله، وتنفيذاً لوصية الأستاذ مالك أرسل إليَّ الرسالة التالية في ٢٨/ ٢/ ١٩٧٤، وفيها أطلعني على ظروف جمع محاضرات الأستاذ مالك وقد جاء في الرسالة ما يلي:

الأخ المكرم عمر كامل مسقاوي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

أشكركم على النسخة المصورة من وصية الأستاذ مالك بخط يده. ما أرى إلا أنك لست في حاجة إلى أن أحثكم على طبع كل آثار المؤلف، وإلا تخلو الأسواق العربية من كل ما كتب.

والذي يجعلني في اطمئنان إلى ذلك، ما كنت لاحظته يوم رأيتك عند الأستاذ مالك في مصر القاهرة، لعل اللقاء كان في حلوان، وهناك كنت شعرت بمقدار حرصك على الأستاذ وأفكاره، وكان ذلك في وقت مبكر لعله كان عام ١٩٥٦. في تلك الزيارة قادني صديق لك في تلك الأيام في رواق الشوام، وهو الأخ عقيل إدريس الخطاط، وكانت الجلسة قصيرة نحو ساعة، وكان الموعد السادسة والنصف مساءً، ولم يكن في المنزل على ما أذكر إلا أنت والأستاذ مالك وأنا والأخ عقيل. ومن ذلك الوقت فإني على صلة بكل أثر يصدر للأستاذ مالك، وليس إلا أن أدعو الله أن يوفقك على تحمل الأمانة. وأذكر هنا المهمة التي قام بها السيد رشيد رضا في حق محمد عبده.

أيها الأخ الكريم: لما كان الأستاذ مالك في دمشق سجلنا معظم ما تحدث به، ونسخناه وسلمناه يداً بيد، رجاء أن ينشرها بعد أن يجري التصحيح اللازم على الحديث العادي حين يتحول إلى كتاب.

وكان بلغني أنه سيطبع كتاباً بعنوان (مجالس دمشق) ما أدري ماذا حدث لذلك الكتاب، هذه واحدة. وعلى كل يمكن توفيرها مرة أخرى إذا اضطر الأمر إلى ذلك، وإن كنت في أسف من التفريط الذي تعودته من الناس، فأرجو إن كان عندك علم بمصير تلك النسخة التي سلمناها للأستاذ مالك أن تعلمني لأطمئن، فعسى أن ينشر في أقرب وقت.

كما أن كتاب (دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين) كان محاضرة ألقاها في نادي الحقوقيين في دمشق قد طبع، ثم بعد ذلك ألقى في دمشق محاضرة أخرى متصلة بهذا الموضوع بالذات.

وكنت قد أعطيته للمؤلف مبيَّضة منسوخة، ثم أرسلنا نسخة أخرى إلى الأخ الطيب الذي نشر القسم الأول، فما أدري ماذا صار له أيضاً؟ وكنت قد سمعت أن أحاديثه الأسبوعية حول دور المسلم قد قاربت العشرين جلسة.

جودت سعيد

❊ ❊ ❊

لذا لم يصدر الكتاب كما شاء بن نبي أن يصدر بكامله كما تشير المقدمة التي كتبها بخط يده ونحتفظ بصورة عنها. إذ يبدو أن المحاضرات التي أشار إليها كتاب الأستاذ جودت سعيد قد ضاعت سوى المحاضرات الآتية بالإضافة إلى محاضرتَيْ دور المسلم ورسالته:

١. **لقاء مفتوح في مسجد صلاح الدين الأيوبي مع جمع من الفتيات في ١٦ نيسان ١٩٧٢م.**

٢. **الثقافة والأزمة الثقافية.**

٣. **الحقوق والواجبات مع مناقشة وحوار.**

٤. **المرأة والرجل أمام واجبات واحدة مع مناقشة وحوار.**

وسندنا فيها ما فرّغ من الأشرطة بواسطة دار الفكر.

نظرة في مجالس دمشق

وعنوان كتاب (مجالس دمشق) يستعيد ما كان لمجالس الفكر والأدب من دور في نمو التراث التاريخي للحضارة الإسلامية. فالمجالس تواصلٌ تنمو فيه شبكة العلاقات الاجتماعية، وتتفاعل فيه الأفكار، وسبل توظيفها حينما تربط بين الأفكار وحدة المشكلات.

والمجالس التي حثَّتْ عليها السيرة النبوية هي مجالس التفكر الدائم في آيات الله، وسبل توظيفها في السلوك واقتحام العقبة كما تشير الآية الكريمة ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [البلد: ٩٠/١٠-١١]. هذه الآية هي المحور الأساسي في تأسيس بن نبي لمعايير إدراك المشكلات من ناحية، ومواجهتها بقوة الواجب الذي يمثل الرصيد الاجتماعي للنمو في مسيرة التاريخ.

فالحديث عن الثقافة والحضارة يأتي توصيفاً لحركة المجتمع، حينما يقص التاريخ نبأ القوم في زمن من تداول الأيام. إنهما رؤية خارجية لحركة داخلية، وتبقى حركة التواصل الاجتماعي هي المدى الذي تنمو فيه الأفكار الجامعة في وحدة الرؤية، حين تمنحها قوة الضمير روح الإطار. والبيئة التي تنمو فيها مسالك التربية والتأثير في بناء الشخصية الجديدة.

لذا تبدو دائماً فكرة المجالس والتذكر مؤشر النمو في مسيرة الحضارة، لأنها تَواصُلٌ قلق دائماً؛ يطرح السؤال لينتج في إطار وحدة الأهداف والمعايير مطالع الآفاق الجديدة.

كان ذلك كله في مسيرة الحضارة الإسلامية في عقود اندفاعها منذ العهد الأول إلى العهود التي تلت. يقابل هذا كله فكرة الصالون (Salon) التي نشأت على الصعيد الأدبي في فرنسة وأوروبة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقد أسس ذلك لنموذج ثقافة أوروبة وتطورها مع عصر الأنوار.

من هنا نستطيع أن نرى في مجالس دمشق؛ نموذجاً من مجالس بن نبي في القاهرة ثم دمشق، حين اتصل فكره عام ١٩٥٦ بالطلاب.

كانت القاهرة في ظل الخمسينيات والمدّ الناصري ملتقى القادمين من بلاد الشام والمغرب ليتابعوا دروسهم الجامعية في القاهرة.

فالدراسات التي قدمها بن نبي في هذه المرحلة هي الجواب على تساؤل حول مفردات نظريته حين غدا مصطلح (القابلية للاستعمار) بمثابة قنبلة فجّرت في مداركنا رتابة الحاضر وأوهام المستقبل. من هنا اعتبر بن نبي كتاب (مجالس دمشق) حصاد جهد مشترك من الأفكار بين السائل والمناقش والمجيب، فالمناقشة التي طرحت في نهاية كل حديث فتحت آفاق مشروع بن نبي لمحطات.

كانت دمشق تتلقى أفكار بن نبي، وقد بدأت تأخذ طريقها إلى مكتباتها، بإدراكٍ أكثرَ خبرةً ووعياً؛ هو طبيعة المرحلة التي تكونت فيها طلائع النهضة في نهاية العصر العثماني.

فرجال دمشق ومثقفوها منحوا فكر بن نبي اهتماماً وضيافةً تشير إلى تقاليد بلاد الشام في الاحتفاء بالقادمين إليها من المغرب منذ الأمير عبد القادر الجزائري في القرن التاسع عشر، إلى المحدِّث الشهير الشيخ الكتاني الذي غادر المغرب عام ١٩١٢ بصورة نهائية، لأنه رفض الحماية والانتداب الفرنسي. ولا ننسى محيي الدين بن عربي الأندلسي الذي وجد إطاره المتصوف والفلسفي في قطاع الشرق في أجواء دمشق، في زمن غروب شمس الأندلس.

من هنا نستطيع أن نضع تحت عنوان (مجالس دمشق) سائر ما قدمه مالك بن نبي في دمشق من محاضرات ومجالس ومعارف شخصية، وثقت الصلات والأفكار معاً.

ولئن فاتنا كتاب (مجالس دمشق) كما تصوره بن نبي في مقدمة هذا الكتاب في رحلته الأخيرة ١٩٧٢ مع زوجته وابنته رحمة، فإن لنا فسحة من تفويض بن نبي لتلميذه كي يختار ما هو أوفى بالهدف في النهاية.

ذلك أني مع زيارتي الأخيرة إلى الجزائر شعرت بأن وصية مالك بن نبي ما تزال تلقي على كاهلي مسؤولية تتصل بمجالس دمشق ومدى تأثير دمشق وبلاد الشام في تطوير ونشر أفكار بن نبي وانتشارها. ثم نشوء دراسات وأبحاث في دمشق وسورية؛ تستمد من منهج بن نبي طلائع مسيرة جديدة في تناول مشكلات الحضارة، ومطالع رؤى فكرية في مسيرة التغيير الاجتماعي؛ أبرزها دراسات تلميذ مالك بن نبي الأستاذ جودت سعيد، والذي قدم له بن نبي لأول كتاب أصدره في زيارته لدمشق عام ١٩٧٢، وهو كتاب (حتى يغيِّروا ما بأنفسهم) وقد كتب مقدمته في طرابلس لبنان حين حمل معه أصول الكتاب من دمشق.

فالمحاضرات التي بقيت من مجالس دمشق في زيارة مالك بن نبي عامي ٧١ - ٧٢؛ هي النموذج الذي اشتملت عليه مقاربات بن نبي في شرح مشروعه بمختلف الصيغ التي اقتضاها المقام. ذلك أنها جميعاً تحاول تقديم المسالك العملية لأسس النهضة كما شرحها في كتابه (شروط النهضة).

فشروط النهضة هي الشروط التأسيسية، والظاهرة القرآنية هي الضابط العقلاني لفهم الغيبية كحركة لبواعث في فعالية الأداء، ووجهة العالم الإسلامي هي بوصلة لاتجاه في مسيرة العصر الحديث. بعد أن نزيل من طريقها عقبات جمود عصر ما بعد الموحدين، أي مرحلة الخروج من الحضارة الإسلامية. ثم الفكرة الإفريقية الآسيوية هي العالمية في منازلها الجديدة. والتي لا بد أن نقدم فيها قيمة من بلاغ ما كلفنا به من حضور وشهادة.

هذه الآفاق الثلاثة لا بد أن تلج البيئة العلمية المعاشة. لا أن تكون خارجها رهن نمطية السلوك ومشاعر التبعية التي أرستها مشكلات القابلية للاستعمار؛ سواء في الإطار النفسي، أو في تعاطينا الفكري والاقتصادي. أي في أوهام ضبابية لا تملك خيار الطريق.

لذا فالمطلوب كما يقول بن نبي في كتابه (ميلاد مجتمع): «أن نفكر ملياً في هذه المصطلحات التي أرساها في عناصر الحضارة والثقافة؛ لا من طريق الاستعانة

بقاموس تمسك به اليد، بل من طريق الاستعانة برأس مستقر بين اليدين، فليس الأمر إذن أن نقول: إن الثقافة تحتوي بصفة عامة عدداً من الفصول.. ولكن الأمر يقتضينا أن نتساءل كيف ينبغي أن ندركها في صورة برنامج تربوي يصلح لتغيير الإنسان الذي لم يتحضر بعد في ظروف نفسية زمنية معينة».

ففي المرحلة القاهرية وفي بلاد الشام، غرس مالك بن نبي بذوراً حملها ليزرعها في حقل جديد لم يباشر تربته بأي محراث كما فعل في الجزائر مع بواكير النشأة. لذلك فمشكلة الأفكار في العالم الإسلامي هي حصاد هذا التلاقي المشرقي المغربي في محيط العالم الإسلامي. إذ خطط لهذا الكتاب عام ١٩٥٩ ثم توقف، رغم الإعلان عن قرب صدوره.

أما كتاب (المسلم في عالم الاقتصاد)، فهو البعد الراهن لموقع المسلم من مستقبله، حيث يتقرر في إطار إدراكه لحاجاته كما شرح في كتابه فكرة كمنولث إسلامي، وهو بكل حال لا يجد علاجه في مجتمع دافوس حيث لا يستطيع العالم الإسلامي أن يقدم للاقتصاد العالمي حقيقة يمكن التحاور حولها سوى الخضوع لمنطق العصر الإسرائيلي ولابتسامات متبادلة مع بيريز.

فبناء الثقافة في هذا الإطار يتطلب منهجاً فاعلاً في السياسة والاقتصاد، وفي الحياة اليومية التي تنظم العامل والفلاح والمثقف بإطار من الوحدة النفسية والسلوك المشترك.

هذه الوحدة هي التي سوف تنشئ العلاقات الاقتصادية على أسس تتفق وميزاتها الخاصة. كما شرح في كتابه (آفاق جزائرية) الذي ضُمَّ في إصدار جديد تحت عنوان (القضايا الكبرى).

فالاقتصاد كما يقول بن نبي:

«ليس سوى إسقاط البعد السياسي على نشاط إنسان معين، فبقدر ما تبقى السياسة مرتبطة بمبادئ أخلاقية يبقى الاقتصاد وفياً لهذه المبادئ».

وهكذا كان كتاب (بين الرشاد والتيه) وهو مجموعة مقالات اختارها من مقالاته في مجلة الثورة الإفريقية في مرحلة استقلال الجزائر؛ يؤسس لمنهج ضل عنه طريق السياسة خلال مرحلة الستينيات، في حين غدا الاستقلال متنفساً لتطلعات سلطوية مكبوتة بتأثير مناخ الاستعمار ومؤثراته النفسية، عبر مفهوم الصراع الفكري، فغاب النهج في بناء اقتصاد الواجب والحاجات كما أشار في كتبه.

لذا ومن أجل درء ابتسامات بيريز وتهديدات أمريكا، يظل كتاب الصراع الفكري أداة التحليل لفكر تعد به أعمال بن نبي ليواجه مخاطر الإمبراطورية في مؤثراتها الإعلامية، ويبقى دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، المدى الفكري للمسلم؛ حين يخرج من غرفة نومه، وهو يحرك خموله في نظرة في الأفق الممكن، لكنه الصعب، وذلك ليتجنب خضوع ضعفه للمستحيل أمام سيطرة القوة العالمية.

ففي كل منعطف من مسيرة الجزائر والعالم العربي، كان أدب بن نبي يضع نشيد المستقبل في روح الأجيال. وحبذا لو تصبح هذه القطع الأدبية جزءاً من الثقافة التربوية في مناهج التعليم في الجزائر. حيث تنشر في كتب القراءة باللغة الفرنسية وباللغة العربية.

فمالك بن نبي افتتح كتابه (شروط النهضة) بأنشودته الرمزية، التي لخصت مراحل التاريخ الجزائري في مسيرته نحو النهضة. منذ عهد الأبطال مع الأمير عبد القادر الجزائري إلى عهد المرابطية، الوثنية في السياسة كما في الدين، ثم عهد الإصلاح مع بن باديس. كل ذلك باعتبارها مقدمات لتحديد شروط النهضة في مفهومها الكوني حين كسرت الأوثان مع الرسالة الإسلامية في الكعبة كما تشير أنشودته الرمزية.

هكذا دعا بن نبي لنشيد جامع ودائم عام ١٩٤٧. وقبل قيام الثورة عام ١٩٥٤، إلى بناء عالم نفسي جديد يؤسس لمعنى الثورة قبل قيامها، ومن خلال كتابه (في مهب المعركة) وهو مجموعة مقالات كتبها في جريدة الجمهورية، والشباب المسلم.

لذا يبدو لنا في ظل محاضرات بن نبي -موضوع هذا الكتاب- أن نشير إلى مقالته المختصرة، في مناسبة الاحتفال السنوي بعيد الثورة الجزائرية في أول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧، والذي بعث به إلى الأجيال بهذه العبارات من الأدب البنَّابي:

في مناسبة عيد الثورة الجزائرية كتب بن نبي في مجلة (La revolution africaine) - العدد ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) - ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ كلمة المناسبة تحت عنوان: (La flamme du souvenir) ما ترجمته للعربية:

«شعلة الذكرى يتجدد وَقدُها حين نحتفل بيومها في كل عام.

فالنار والضوء كانا دائماً شعار رسالة في المنعطفات الكبرى للإنسانية.

موسى إذ آنس جذوة نار اتخذ نحوها سبيله وحيداً في ليل الوثنية Paganisme مطلقاً صرخة..

ومن بعده بقرون وأجيال كان باسكال يردد أمام رفاقه: نار - نار - فرح - فرح - دموع الفرح. وفي أعلى المشهد الإنساني، نرى ذلك المسافر الذي يسري في ليل الشتاء الجليدي، يصادف من بعيد ناراً فيستحثه المسير فرحاً إلى ضوء يجد عنده منزل ضيافة؛ منزلاً تحت سقفه إخوة في الإنسانية.

كذلك في الجزائر كان كل جزائري يسير منفرداً في بيدودة ليل الاستعمار يبحث في ظلمته عن ضياء.

فجأة: آنس من بعيد ناراً تمزق حجب الظلمة.

كان ذلك هو الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٥٤.

هكذا نحن مرة أخرى في الذكرى السنوية لتلك اللحظة المباركة.

فالجزائريون في ظل سمائهم المضيئة سوف يتلاقون مع إخوة السلاح.

لكن.. في فضاء ذلك الضياء تمر رسالة تحمل إلينا ذكرى الأموات، وفي الوقت نفسه نداء للأحياء.

ففي تلك اللحظة المهيبة دعوة لنأخذ من ذكرى الذين رحلوا أفقاً يتجه إليه قدر الأحياء.

لقد تسلق جيل الثورة صعب المناكب قُدُماً إلى التحرير. وكان ذلك مسلكاً صعباً ومتعرجاً.

لكن ونحن في ذكرى أولئك الذين نحتفل بهم اليوم نجد فيهم مرتكزات إقلاع.

فأيديهم المجرحة والممسكة بقوة وتصميم في كل منعطف.

وأرجلهم المدماة قد انطبعت بوضوح على حَرْثِ مرتقاهم نحو العلاء صعداً إلى قمم الأوراس والجرجورة حيث أطلقوا نداء الثورة.

هكذا وفَّر لهم الاستعمار سلماً لقمة اللحظة العليا في التضحية.

وهكذا فإن رهان جيل ما بعد الثورة نحو المستقبل رهان ذلول. لكن غالباً ما يكون الاستعمار قد سحب معه سلَّمه الشيطانية.

لذا فلكي نرتفع إلى مستوى الأعمال الكبيرة في ظل الاستقلال، فذلك يقتضينا مدارج إليها جديدة. مدارج من ذلك النشيد الكبير الذي صدح في روح الشعب الجزائري في ليلة الأول من نوفمبر، والذي وضع خطاه في طريق التحرير كيما يجد فيه جيل ما بعد الثورة البواعث التي سمحت له بالانتصار على تلك اللحظة الرهيبة في ثقلها والتي تحملها إلينا الأنباء. فإن الوفاء لذكرى أولئك الذين لم يعودوا بيننا أن نستلهم قوتهم الصاعدة، كيما نرتفع إلى مستوى الواجبات في مرحلة جديدة».

فالإرادة الحضارية تنمو في خصب الآفاق. وفي كلمات بن نبي الأخيرة في دمشق كان هنالك حديث عن رسالة المسلم. إذ سئل عن رسالتنا في عالم أحاط بمصيرنا في ظل العصر الإسرائيلي، فقد أعاد إلى الذاكرة مشرق الرسالة الإسلامية حين تحدَّث في قلة الزاد والهوان في مكة، عن طاقة الموقف إذ تتحدى إمبراطوريتي بيزنطة وفارس إنما بقوة الأداء وفاعلية العطاء في قيم الحضارة الجديدة؛ التي عبَّر عنها الرسولﷺ وهو يطمئن عمار بن ياسر حين يتعذب في ساحة مكة خالي الوفاض. فيقول له ما معناه: لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمرَ حتى تسيرَ الراحلةُ من صنعاءَ إلى مكةَ لا تخافُ إلا الذِّئب.

فبن نبي كان يبشر بقرب الوصول إلى عالم واحد. إلى حضارة هي منذ الآن في مستوى الكرة الأرضية، وإلا فالكارثة إذا هي فشلت.

من هنا فإن دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين كما توقع بن نبي هو قدر الناس جميعاً في النهاية.

ففي مقال نشر في صحيفة الجمهورية الجزائرية في ٢٦ آذار ١٩٥٤ كتب بن نبي:

«أوَ ليس الحلّ في تطور يضفي على الحضارة طابع الأممية والقارية، أي طابع عالمية تفرض على الأوروبي عالم الآخرين. إذ سيجد في رحابهم هنالك معنى الإنسان؟

فعالمية الحضارة سوف تكون الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الغرب المتورط بشيطان الاستعمار؛ إذ في إطارها سيتعرف الأوروبي على الآخرين الذين لم يكن يرى فيهم غير طرائد صيد. إذ سوف يتحدث بكل تأكيد عن عالمية خارج مناورات السياسة الراهنة، لتلك القوى التي تحاول أن تهيمن كمركز قيادة وحيد على العالم. لتؤسس عالمية هي مرادفة لما تسمى (الأمريكانية).

ذلك كله يعتمد اليوم كما في كل يوم على دور المسلمين به الإسلام الذي يحتاج إليه مستقبل الإنسانية.

مشروع بن نبي متكامل كمنهج تربوي وفكري وعملي

من هنا تبدو لنا (مجالس دمشق) هذه بما توافر منها، أسطع تعبير في الكشف عن المسرى الأساس الذي بنيت عليه سائر المحاضرات والمداخلات التي جرت في زياراته الثلاث إلى دمشق ١٩٥٩ - ١٩٧١ - ١٩٧٢.

ذلك أنه مهما اختلفت المجالس والمناسبات فالمحور واحد. إنه مشروع بن نبي في صياغة جديدة لدورة الحضارة الإسلامية؛ التي انتهت مع عصر الموحدين في آخر مسارها، لتستلم الحضارة الوليدة في عصر الأنوار دورتها المشحونة بطاقة روحانية التراث المسيحي اليهودي، الذي جمع اليونانية واللاتينية والوثنية الرومانية. وها إن نهرها قد قارب الوصول إلى مصبّه النهائي.

لذا كان القرن العشرون، وبروز وعد بلفور، ومعاهدة سايكس بيكو، بالإضافة إلى الاستعمار في الجزائر في القرن التاسع عشر. كان هذا كله حقيبة بن نبي وقاعة مختبره في صياغة مشروعه حول مشكلات الحضارة.

ويبدو هذا واضحاً من الكتاب الأول الذي أصدره بالفرنسية عام ١٩٤٧ (شروط النهضة الجزائرية) ومن قبله كانت مقالاته بالفرنسية تصب في الاتجاه نفسه.

ذلك أن محور هذه المقالات يُؤسس لمفهومين أساسيين:

المفهوم الأول: الحضارة الغربية والاستعمار.

المفهوم الثاني: الحضارة الغربية والقابلية للاستعمار.

وضمن هذين المفهومين تختصر تلك الثنائية التي سميت الشرق - الغرب، فبن نبي يرى أن هذه ثنائية مصطنعة؛ الهدف منها الترويج لعقلانية الغرب والحضارة وغموض الشرق في سحره المبهم كما رآه الأوروبيون في ثنائية مصلحة الهيمنة الغربية. فهناك وحدة المشكلات الإنسانية في كلا المفهومين.

فبن نبي يرى أن العالم يواجه مشكلة واحدة هي مشكلة العالم الغربي الذي طوى أعلام الحضارات في عولمة العصر الحديث فخرجت به الإنسانية عن مسارها.

ففي جانب (الحضارة الغربية والاستعمار) كمفهوم متضامن، أظهر بن نبي المظهر السلطوي لسيطرة الحضارة الغربية، وفي جانب (الحضارة الغربية والقابلية للاستعمار في العالم الإسلامي) أبرز المدى التاريخي للمفهوم الأول حين غابت الإرادة الحضارية التي خرجت من دورة الحضارة الإسلامية.

فوحدة المشكلة تبرز في وجهيها:

الوجه الأول: أنها مشكلة قوة وسيطرة.

الوجه الثاني: أنها مشكلة قابلية استوعبتها هذه القوة فألغت دورها، وأورثت روح التبعية النفسية.

لذا يختلف فكر بن نبي عن سائر الحركات الإصلاحية التي غمست قلمها بمداد الحضارة الغربية الذي وصل إلينا كإنتاج جاهز، فأعلنت موقفها منه سلباً أو إيجاباً، فيما كان المطلوب أن نأخذ عناصر هذا المداد لنركب منه مقادير ملائمة اقتباساً تنطلق منه رؤيتنا لمشكلاتنا في قفزة تاريخية تختصر هوة التخلف.

لذا وجب في البداية طرح شروط هذا التركيب النوعي الذي كان مفتتح دراسات بن نبي عبر كتاب شروط النهضة.

وهكذا أعطى للحضور الاستعماري من ناحية صورته في تعطيل كل ارتباط بين دور الإنسان الجزائري والبيئة حوله التي يعبر عنها بالتراب في ميزان الزمن الضروري لمسيرة التنمية.

ومن ناحية أخرى أعطى لرؤيته الفكرية مكوناتها خارج الدائرة التي رسمها الاستعمار، حتى لا يكون الجزائري مكبلاً بعقدة التبعية للحضارة الاستعمارية.

وهكذا وجدنا في الفصول الأولى لكتابه (شروط النهضة الجزائرية) عملية تحديد وتوصيف لتاريخ الجزائر في ظل الاستعمار، تمثل عملية فصل الزؤان عن قمح الحصاد الذي هو العدة في بناء المستقبل.

هذا القمح هو الاطراد التاريخي لفاعلية الفكرة الإسلامية.

فحين نحلل الحضارة الإسلامية فإنه يدخل في اطرادها عاملان:

١- الفكرة الإسلامية التي هي أصل الاطراد.

٢- المسلم الذي هو السند المحسوس لهذه الفكرة، فتطور الحضارة صعوداً وهبوطاً يرتبط من حيث الأساس بفكرة الإسلام والفرد الذي يمثل سندها المحسوس.

وهكذا وضع لكل مرحلة معناها ودورها، والتي تبدأ في الذاكرة الجزائرية من حركة الأمير عبد القادر الجزائري، ثم التي تليها للوصول إلى جمعية العلماء وبن باديس وفقاً للأدوار التالية:

١- دور الأبطال الذي تمثله هذه الحركة، وهي تمثل انتفاضة بطولية تدافع عن العقيدة ومجد الأمة. لكن هذا العهد لا تلتفت فيه الشعوب إلى حل المشاكل الاجتماعية التي مهدت للاستعمار وتغلغله. ومثل ذلك حدث في مواجهة تطور الحركة الصهيونية ببطولات مشهودة في فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين.

٢- دور السياسة والفكرة - حيث تبدأ الفكرة في صياغة المشكلات وحلولها وهي ترتبط بقوة من النقد الذاتي والإصلاح، وقد مثلتها حركة العلماء مع بن باديس.

لكن صفاء الرؤية الفكرية في السياسية يفقد أحياناً حصانته تجاه ما سمي الانتهازية السياسية.

٣- لذا استطاع الاستعمار أن يعطل فاعلية الأفكار عبر استدراج أفضى إلى فكرة الزعيم والقوالب السياسية نظراً لأن القابلية للاستعمار ما تزال تربك موازين الرؤية، وهكذا استعادت الفكرة الوثنية دورها التي كانت تتجلى في المرابطات فأصبحت ترتبط بالزعيم.

لقد أورثت سائر هذه المصادر المنتجات الحضارية لعالم أوروبة في اتصاله بعالمنا الإسلامي فأورثت معها مشكلتين أساسيتين:

١- مشكلة تكديس الصيغ الفكرية المبنية على تداعي الأفكار، أي الصورة ونقيضها كحلّ لها في الإطار الكمي، كمشكلة الفقر والجهل والمرض وعلاجها الغنى والعلم، دون اعتبار لمظاهر ضعف وحدة الأداء الاجتماعي وتخلفها.

٢- مشكلة تكديس المنتجات الحضارية المستوردة من الغرب، بحيث أصبحنا سوقاً افتقد ثقافة الحاجات وترتيب أولوياتها، وهكذا غابت كل خطة مبنية على المسوغات التي تنتمي إلى ما يسمى الكفاءة الاجتماعية ومحورها الإنسان.

هذه المقدمات أوجبت في خطط بن نبي تحديد شروط النهضة التي تكون العناصر الأساسية لإعادة تركيب النهضة الحضارية.

«فالعالم الإسلامي يريد أن يختار العمل النهضوي، إنه يريد إنجاز مهمة تركيب الحضارة في زمن معين، ولذا يجب أن يقتبس من الكيماوي طريقته إذ إن كل ناتج حضارة تنطبق عليه الصيغة التحليلية الآتية:

إنسان + تراب + وقت»

هذا التحليل كما يقول بن نبي: إذا ثبت صدقه في التفاعل الكيماوي الحيوي ثبت صلاحه في ديناميكية الواقع الاجتماعي وكان لنا أن نخطط بطريقة مد مجال تطوره كاطراد مادي نعرف قانونه، وفي الوقت نفسه يسمح لنا ذلك بالقضاء على بعض الأخطاء التي يشيعها ما يطلق عليه أدب الكفاح في العالم الإسلامي. حيث يزكي ضمناً الاتجاه نحو التكديس.

من هنا يدخل بن نبي إلى آلية الدورة الحضارية كما مرت في إطار الحضارة الإسلامية.

فالمسلم يعيش في عام ١٣٦٧ هجرية، وهو العام الذي كتب فيه بن نبي كتابه (شروط النهضة) بالفرنسية؛ أي من نقطة دورة تنطلق منها الأحداث التي لا تزال في ضمير الغيب، لكنها في الوقت نفسه مادة مستقبله، ومن هنا لا بد من الانطلاق من النص القرآني أساساً، ذلك النص الإلهي المبدئي للتاريخ التكويني Biohistoire، والذي تمثله الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٣/ ١١].

لذا اعتمد بن نبي مفهوم الدورة الخالدة معتمداً في ذلك على نظرية بعض الفلاسفة الألمان أمثال كيسر لينج وسواه.

وتأسيساً على ذلك حدد بن نبي شروطاً ثلاثة للإقلاع.

الشرط الأول: إمكانية تطبيق المبدأ القرآني عند نقطة الإقلاع.

الشرط الثاني: مطابقة التاريخ منطلقاً للمبدأ القرآني، وهو تغيير النفس في تمحورها حول هدف عيني يمنح حركتها توتراً يتصل برصيد الروحي في معناه الاجتماعي.

الشرط الثالث: هو العدة الدائمة: التراب + الوقت.

فالمجتمع الإنساني يمكن له أن يستغني وقتاً عن مكتسبات حضارة. لكن لا يمكنه أن يتنازل في الوقت نفسه عن جوهر حياته الاجتماعية.

فحين نحلل الحضارة الإسلامية فإنه يدخل في صرحها عاملان: الفكرة الإسلامية

التي هي أصل الاطراد، والإنسان المسلم الذي هو السند المحسوس لهذه الفكرة.

فتطور الحضارة الإسلامية صعوداً وهبوطاً يرتبط من حيث الأساس بالعلاقة العضوية التي تربط الفكرة بسندها.

من هنا يبدأ دور الإنسان في بناء عالم محيط حوله تتحدد في إطاره قيم الأخلاق ومدى ارتباطها بالمثل، والجمال ومدى التعبير عنه طبقاً لهذه المثل، والفاعلية ومدى ارتباطها بالمنطق العملي، والفن التطبيقي ومدى تمثيله للعناصر السابقة عليه في إطار من التكيف والتوجيه حول الأهداف العامة لرسالة الحضارة.

فالعناصر الأربعة: المبدأ الأخلاقي - المبدأ الجمالي - المنطق العملي - التقنية. هي التي من خلالها تتكون ثقافة المجتمع حينما تصبح تاريخاً. لذا فهذه العناصر هي الأساس التربوي الذي تحدده الشروط الثلاثة التي أشرنا إليها في مرحلة الإقلاع في كل إنتاج حضاري. فالحضارة هي القدر النهائي للثقافة التاريخية.

إذن هذا المنهج منفصل تماماً عن تطور الفكر الأوروبي، فهو يحمل في ذاته بذور نهضة تصادم منطق الهيمنة الشمولية لمفهوم الحضارة بوصفها مركزية غربية.

من هنا انطلق بن نبي في رؤيته للعالم الإسلامي حين وجد شبكة علاقاته الاجتماعية معطلة.

ولأن تجاربه في فرنسة حددت مفهوم النهضة والحضارة نتيجةً تاريخية لمسيرة أوروبة عصر الأنوار، وظهور مفهوم الاستعمار بعد اكتشاف أمريكا، فقد استطاع خلال هذه التجربة أن يستخرج مضامينها بعقل رياضي حساس قادر على وزن كبير الخطط الاستعمارية وصغيرها بميزان الصيدلي الذي يزن كل ما يقع في كفته.

من هنا كانت دقة ميزان بن نبي في وزن الأمور، إذ يحدد مشروعه في مستوى العالم كله حين يصبح حضورنا فيه جزءاً من مسيرته ونموذجاً يتبع في خلاص الإنسانية.

فبن نبي وضع العناصر الأولية لأية نهضة أخذت مسارها في التاريخ كسنة من

سنن الله في أرضه. ثم اعتمد التاريخ والتجربة الحضارية في مسيرة الحضارة الإسلامية لكي يتخلص من رواسب حالة الخروج من الحضارة الإسلامية وأمراضها، واضعاً لهذا الطريق معالم مرتكزات أولية: الإنسان - التراب - الوقت. إذ تتفاعل هذه العناصر في كيمياء التاريخ عبر قوة ضوابط الثقافة في حيوية تمسك فيها مصيرها.

تلك مسيرة كونية في قواعد الحركة التاريخية للحضارات. والحضارة الأوروبية ليست سوى حلقة في الدورة الحضارية صعوداً في بدايتها وهبوطاً في مسارها الحاضر، حين تنهزم القيم الأخلاقية والجمالية أول ما تنهزم في عناصر ثقافتها. وتبقى قوة دفع تاريخها وحده عبر التكنولوجيا والإنتاج الحضاري، في تكاثر ينمو في عالم الأشياء دون عالم الأفكار.

لذا يصح القول: إن عنوان كتب مالك بن نبي هو دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين. ففي زيارتي عام ٢٠٠٣ إلى مدينة وهران في الجزائر وفي أعقاب محاضرة حول فكر بن نبي سألني أحد الحاضرين: ماذا بقي من مالك بن نبي اليوم وبعد ثلاثين عاماً من وفاته؟ أجبته: بقي دور المسلم ورسالته التي لم تبدأ بعد.

فدور المسلم ورسالته هو النتيجة العملية لسائر ما أصدر بن نبي في النهاية. فالثقافة التي تحدث عنها بن نبي هي النسيج الذي ينشر رداءه على مستقبل العالم الإسلامي والعربي معاً. فهو يمثل مجال دراسة واحدة كما قال بن نبي، لأنه نتيجة حبكة تاريخية واحدة على حدِّ تعبيره، أورثت في بنائه النفسي والاجتماعي واقعاً واحداً مع الاحتفاظ بالخصوصيات الجغرافية والبيئية وتأثرها في الإطار في إفريقية وآسية وأوروبة.

لذا فحين نتحدث عن استعادة دورنا الحضاري، وجب أن ننظر إلى المشكلات نحن المسلمين كحقيبة من المشكلات تمثل واقعنا النفسي والتاريخي، بكل مافيه من عناصر تلك الحبكة التاريخية التي أشار إليها في نهاية كتابه (فكرة كومنولث إسلامي) بقوله: «فنحن إذ نسلم للمسلم بمهمة تشمل معه العالم الإسلامي من حيث إطار مشكلاته المشتركة في البيئة المعاشة عملياً، نكون قد زدنا في مستواه الشخصي أولاً

وبالذات. فالحديث عن المسلم لا يغفل عوامل أخرى تتصل بغير المسلم، لكن التركيز على المسلم في إطار العقيدة يمكننا من معرفة مهمته ودوره إنساناً عقدياً ودوره مواطناً.

(فالإنسان) من المؤكد أنه قيد مشترك بين المسلم وغير المسلم، إذ الإنسان العقدي عموماً يحمل في داخله المشكلات التي يواجهها العالم كله.

وإذا ما خلصنا المسلم من عقده الخاصة به نكون قد خلصنا الآخر غير المسلم بهذه العملية ذاتها من جزء كبير من مشاكله هو أيضاً؛ لأن المسلم يتصرف حاملاً لردود فعل ليست متأتية من بلاده، ولكن من حبكة تاريخية متأتية من الحضارة الإسلامية ذاتها، فثلاثة عشر قرناً قد فَصَّلتْ نموذجاً اجتماعياً يتصرف ويفكر حسب كيفيات لا تغيب عنَّا ملاحظة سماتها المشتركة من طنجة إلى جاكرتا، فنحن إذا تناولنا مشكلة المسلم نكون قد التقينا بمشكلة المواطن في أي بلاد ربطها التاريخ بصلات تقليدية مع المجتمع الإسلامي. كما نكون قد التقينا بالإنسان في العالم أجمع».

فنسيج بن نبي هو نسيج وحده له مقدماته ونتائجه، فقد قال لي يوماً: «أنا أكتب بوصفي صاحب قضية وليس باحثاً في التاريخ، ولو شئت في إطار الكتابة أن أختار لاخترت القصة إذ تستهويني».

فبن نبي لم يشأ أن يذكر لنا تاريخ نشوء كلمة (ثقافة) و(حضارة) كما تطورت في أوروبة إلا حين أخذ من مصطلح الثقافة في الغرب آليته الفنية في خلاصتها الموضوعية والتي ترتبط بحركة الإنسان في إطار مجتمع.

فتبسيط فكرة الثقافة في عناصرها الأربعة كما شرحها، هو خطاب لطاقة الإنسان المتخلف كيما يكتشف خصائص فاعليته كإنسان في إطار مؤسسي تربوي. لذا فالحديث عن دور المسلم ورسالته لا بد أن يرتكز على حديث عن (الثقافة والأزمة الثقافية) عند كل منعطف من الأزمات والكوارث.

إن وضع أزمة حزيران ١٩٦٧ تحت شعار أزمة ثقافية ليس سوى تصنيف ينطلق

من قيمة الثقافة في السياسة بوصفها منظماً لفعالية الأداء الاجتماعي والسياسي والفكري في رؤية المشكلات. إذ يطرح بن نبي المشكلة مدخلاً لتحديد دور الثقافة في إقلاع جديد.

والثقافة كما أشار بن نبي لا تتعلق بالعلم والمعرفة، وهذا بالضبط ما تم الاتفاق عليه في مطلع التأسيس لمصطلح الثقافة في القرن التاسع عشر منذ عام ١٨٩٠ على الصعيد التربوي في فرنسة.

فقد استقر تحديد الثقافة كما يقول مؤلف الكتاب:

بأنها لا تتعلق بالمعرفة التي تنسى أو هي قابلة للنسيان والتبديد Perissable ولكنها تتصل ببناء كفاءات ثابتة لا تتغير Invariable.[١]

حول هذه الأفكار تأسست في نهاية القرن التاسع عشر وفي النصف الأول من القرن العشرين تربية؛ لخصها تعريف إدوار هوريو فيما بين الحربين العالميتين حين يقول: «الثقافة هي ذلك الذي يبقى حينما ننسى كل شيء» على أساس هذه القاعدة نشأت وحدة الفكر، لأن الثقافة هي النموذج العام.

هكذا بدت عبارة إدوار هوريو في الثلاثينيات الخدود العميقة لمفهوم الثقافة تعبيراً مختصراً لآليتها في تكوين البناء الفكري للمجتمع. كما أشار بن نبي.

إذ يجعلنا نميز بين الثقافة نفسها والمعرفة التي أسست لاكتساب الثقافة. فالثقافة ليست في حقيقتها كمّاً من المعلومات، قليلة كانت أم كثيرة.

فالثقافة هي صعيد من الفكر لا صلة له بمستوى الدروس سواء في نوعها أو في مداها أو في كميتها، إنها كفاءة التلقي والتعليم، إنها ربما ذلك الذي يبقى حينما ننسى ما تعلمناه». إنها على الأخص ما يجب أن نملكه أولاً قبل أن نتعلم. كما يقول Fernand Robert في كتابه الإنسانيات.

---

(١) L' histoire des mots: Culture civilisation P. 26 Beneton

هذا المنحى الذي يختفي وراء عبارة هوريو يقودنا إلى عناصر الثقافة كما وصفها بن نبي من خلال مفهومي الموقف والتصرف Attitude والكفاءة Aptitude.

فمفهوم الموقف في شخصية الفرد يرتبط بصورة أساسية بالباعث والمسوغات من ناحية. وشبكة العلاقات الاجتماعية من ناحية أخرى كما شرحها بن نبي في كتابه (ميلاد مجتمع)، وهنا يتدخل الدين كأساس للروابط في مفهومها الغيبي والذي يمنحه المسوغات من مسيرة المجتمع.

لذا نرى الأستاذ مالكاً يقودنا بصورة طبيعية إلى السيرة النبوية التي مثلت الخصائص الأولى لتكوين المجتمع الإسلامي معنىً مضمراً كما يقول في تأسيس اتجاه الثقافة والحضارة ومشكلة التكيف كما شرحها في كتابه (شروط النهضة).

في إطار هذا البناء الذي يؤسس لوحدة المجتمع يصبح الإنسان هو المحور في وتيرة عطائه وتوتر إبداعه وصبره ومصابرته كما أوصى القرآن الكريم، ذلك كله يتفاعل حينما يرتبط الإبداع بالبيئة المحيطة به من التراب في مساحة الزمن، وهكذا تأخذ الحضارة دورها في التاريخ في فاعلية العناصر الثلاثة:

الإنسان - التراب - الوقت

من هنا يصبح معيار الواجب مفتاح الفاعلية في الأداء. وبقدر ما يملك المجتمع من رصيد الواجب يملك طاقة القوة التي ينبغي أن تصرف في إنجازه الحضاري. فالحرية والحقوق إنفاق للطاقة بقدر ما يرتبط الإنفاق بالإنتاج.

لقد أفرد بن نبي هذه المشكلة كتابه (وجهة العالم الإسلامي) داعياً المسلم في حركة الإصلاح إلى تصفية المشكلات السلبية في إطاره الداخلي، أي أن يقف أمام أوروبة إنساناً وليس مستعمراً. من هنا بدأت رؤية بن نبي لمستقبل دور المسلم ورسالته.

فبن نبي في كتابه (ميلاد مجتمع) يطرح قضية الميلاد باعتباره خروجاً من رتابة الحضارة إلى عالم جديد من أجل قيام مسيرة جديدة، وذلك عبر تحديد شبكة العلاقات الاجتماعية بوصفها مؤسساً لثقافة مجتمع نتيجة عاملين أساسيين:

١- فاعلية القلق والتوتر في إدراك المشكلات من ناحية.

٢- رصيد الواجب في مخزون الأداء الاجتماعي من ناحية أخرى.

وهذا يعني أن المجتمع لا يكتمل حضوره التاريخي إلا حين ينتقل من مجموعة بشرية يحيط بها عالم الأشياء وعالم الأشخاص إلى بنية أساسية هي عالم الأفكار. وهنا يبدأ مفهوم الثقافة في مسيرة التاريخ كما تشير إليه فكرة الثقافة مصطلحاً اعتمد عبر التجربة الغربية[١].

لذلك فالحقوق والواجبات التي نظمتها هذه المجالس تفتح الطريق لدور المسلم في إطار بناء ثقافة جامعة لمسيرة المجتمع، لذا لا بد أن نقف عند تأسيس بن نبي لمفهوم الحقوق والواجبات.

ففي حديثه عن الحقوق والواجبات إلى جمع من النساء في زيارته لدمشق عام ١٩٧١ يؤكد على أمرين أساسيين:

الأمر الأول: أسبقية الواجب على الحقوق، لأن الواجب طاقة في مساحة المجتمع، والحق استهلاك في حدود الفرد، ولذا فالحق يستهلك من طاقة الواجب، فإذ نضبت وجفت طاقة الواجب افتقد حق الفرد معناه في فوضى المجتمع، فالمطالبة بحقوق المرأة لا معنى لها؛ لأن المرأة والرجل كلاهما يمثلان وحدة متكاملة في الأداء الاجتماعي.

الأمر الثاني: أن آفاق الواجب ترتبط دائماً بالرسالة في رؤية العالم من أجل تغييره، لذا فالتغيير لا يمكن أن يتم إلا حين تصبح الرسالة نموذجاً مؤثراً في الأهداف ومتأثراً في الوسائل. حينئذٍ تصبح الرسالة قد تكاملت بنيتها نموذجاً اجتماعياً يساهم في مسيرة العالم ما دامت البيئة الثقافية تمسك بنسيج الأداء الاجتماعي.

هذا الأساسان هما الشرط الأولي لعملية التركيب التي تحدد دور المسلم ورسالته، لكن ذلك لا يعني انتظار هذا التكامل، بل البدء في تأسيسه عبر السلوك الفردي للمسلم.

---

(١) راجع كتاب نظرية الثقافة - عالم المعرفة - مجموعة من الكتاب.

فبن نبي خلال رحلته الأخيرة إلى دمشق أشار إلى مدى ارتباط التغيير في السلوك الفردي بالمناخ العام لوحدة المجتمع.

فكتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي لم يستطع منذ عصره حتى عصرنا الحاضر إلا أن يكون مرجعاً لعلم في تحديد استقامة السلوك؛ لأن المرحلة التي تمر بها الحضارة الإسلامية كانت تميل في دورتها التاريخية إلى الانهيار. والأمر نفسه بالنسبة إلى ابن تيمية.

لذا تبدو فكرة الواجبات والحقوق توجز مقولات ذكرها بن نبي في كتبه: (الفكرة الإفريقية الآسيوية) (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) حينما تحدث عن أسطوانة الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعة في فاعلية الحضارة، حتى إذا بدأت الحضارة تميل نحو الأفول تبدأ أسطوانة الأفكار المطبوعة يعتريها ما يعتري نشيد الأسطوانة من قدم حين يداخل صوتها اختلال وحشرجة قبل أن تصمت نهائياً.

وبن نبي يستنجد دائماً بالإرشاد القرآني في تحديد نظرية الثقافة في عناصرها الكونية التي هي سنة الله في تنظيم الاستقرار الكوني الذي يربط الإنسان بالتراب والوقت. هذه العناصر الكونية تمثل الأساس لحركة التاريخ في مسيرة الحضارات على اختلاف اتجاهاتها، من هنا يتميز فكر بن نبي في تحديد الثقافة باعتبارها مكونات إقلاع ينطلق من أرضية المعطيات المضمرة في ثقافتنا وضرورات مسارنا الاجتماعي.

فالرسالات السماوية في قيمها الحضارية انطلقت من ذلك الربط الذي تأسس في أول بيت وضع للناس في مكة. إذ الكعبة المشرفة في بنائها المستقر في التراب هي طريق الاتصال بالسماء. وفي الوقت نفسه العروة الوثقى في الارتباط بالأرض والزمن، حتى إذا بدأت الرسالة السماوية تأخذ طريقها التاريخي كان لا بد لأول عمل يقوم به أبو الأنبياء أن يرفع القواعد من البيت هو أولاً، ثم مع ابنه إسماعيل كاستمرار في مسيرة الأجيال، وهكذا يرتبط الإنسان بوصفه طاقةً من طاقات الإيمان شرطاً أولياً بالتراب في وادٍ غير ذي زرع، يرتكز على فاعلية الإنسان أولاً قيمةً سابقةً

على الوسائل تؤسس لشبكة العلاقات الاجتماعية حين تهوي أفئدة الناس إلى وحدة المسار الإنساني التي تحرك البواعث.

لذا يحدد بن نبي معنى البناء الحضاري عبر مفهوم (العقبة) و (اقتحامها)، كما ورد في القرآن الكريم ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [البلد: ٩٠/ ١١]، أي الإرادة التي تخرج عن جاذبية الأنا وغريزتها من خلال شبكة السلوك التي ترتبط بالواجب يقول بن نبي:

«إذ ليس من المتيسر في أساس اقتحام العقبة سوى إرادة الإنسان.

من هنا فالثقافة تنطلق من هذا الاختيار.

فحين نختار جانب الواجب تتحدد الثقافة تلقائياً، إذ تصبح ثقافة جديدة في المستوى الحضاري، كما تتحدد تلقائياً سياسة جديدة.

فلو أن المسلمين منذ نصف قرن تشبثوا في جميع الأقطار الإسلامية بمبدأ اقتحام العقبة لما كانوا على ما هم عليه اليوم».

فكلمة الواجبات تحدد اقتصاداً وكلمة الحقوق تحدد اقتصاداً آخر يستهلك من رصيد الاقتصاد الأول. وحين افتقد عالمنا العربي والإسلامي اقتصاد الواجب وقع رهينة اقتصاد الحقوق. حيث نشأت نقابات الحقوق: العمال. المرأة دون تحديد اقتصاد الواجب.

لذا فدور المسلم هو في البداية إعادة بناء جديد لرؤيته في الداخل عبر تأسيس اقتصاد الضرورات والحاجات في صياغة لحركة المجتمع في اتجاه ثقافة يستطيع عبرها تحديد دوره في صعيد العالم رسالةً. وهذا هو منطلق الحضارة.

الحضارة في مسيرة التاريخ موعد مع الوظيفة الاجتماعية

يرى بن نبي أن الحضارة ليست كل شكل من أشكال التنظيم في الحياة البشرية، ولكنها شكل نوعي خاص بالمجتمعات النامية، حيث يجد هذا الشكل نوعيته في استعداد هذه المجتمعات لأداء وظيفة معينة لا يكون المجتمع المتخلف في حالة تكيف معها لا من حيث رغبته، ولا من حيث قدرته، أو بعبارة أخرى لا من حيث أفكاره، ولا من حيث وسائله.

هذه الأسس المقتبسة من كتب بن نبي ومحاضراته حين عودته إلى الجزائر عام ١٩٦٤ كانت خطاباً موجهاً إلى المجتمع الجزائري بعد الاستقلال. لذا يعود بن نبي ليؤكد على ما سماه علم اجتماع خاصاً بالبلاد التي نالت استقلالها، وهو علم يختلف عن ثوابت النظرة الغربية نحو العالم، فهو يقول: «يجب أن نجابه مشاكل قصورنا قبل الاستقلال ومشاكل بلوغنا بعده. والمشاكل بعد الاستقلال لا تتضاعف فحسب، ولكنها تنعقد بمظاهر نفسية جديدة، تتعقد علاقاتها الوظيفية ببعض العقد الجديدة، وذلك على سبيل المثال عندما تصبح كلمة الاستقلال مبرراً لبعض ضروب الإهمال التي تثقل بعبئها الوازن سيرنا. إذ يتعين على المجتمع في الساعات الخطرة أن يقوم بقفزة يتخطى بها الهوة أو أن يخرج من التاريخ. فالعمل المشترك يتطلب إيقاعاً ووزناً يؤثران في الجهود الفردية، ويضعانها في الوقت نفسه داخل الجهد الجماعي»(١).

هذه النظرة تجد معناها في المحاضرات الست التي تتضافر جميعها لتفعيل دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين. إذ إن بن نبي تطرق من منبر دمشق بعد أن اجتاز تجربة الجزائر في الستينيات إلى مشكلات ما بعد الاستقلال، إذ انتهت التجربة إلى تلك المرارة التي تملكت بن نبي من تجربة الجزائر التي تضمنت كتابين: الكتاب الأول (بين الرشاد والتيه) وهو مجموعة مقالاته في مجلة الثورة الإفريقية، وقد أضفنا ترجمة ونشر مقالاته التي لم يتضمنها الكتاب تحت عنوان (من أجل التغيير)، ثم كتابه

---

(١) راجع صفحات القضايا الكبرى ٤٣ - ٦٧ - ٦٩ - ٨٤ - ١٠٤ - ١٠٦ - ١١٠.

(مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) والذي كتبه بالفرنسية وسلمني أصوله حيث نشر بعد وفاته في الجزائر بناء على النسخة المسلمة إلي.

ذلك أن الصراع الفكري قد بدد معالم طريق بن نبي في وضع أفكاره في مجرى الفاعلية التي افتقدت معطياتها في بنية المجتمع المتخلف أساساً. لذا كان منذ الخمسينيات كما أشرنا يضع كتاباً حول الصراع الفكري في البلاد المستعمرة.

فبن نبي يشير في محاضرته عن الحقوق والواجبات إلى هذا الصراع فيقول:

«ففي كل نشاط فكري على العموم والنشاط الفكري المتصل بالإسلام على الخصوص يقع هذا النشاط مباشرة تحت مجاهر سميتها مراصد الصراع الفكري في العالم، وهذه المجاهر ليست بكل حال إسلامية، حتى لو سخرت بعض الشخصيات أو بعض الجهات الإسلامية لتضييق الخناق على هذا النشاط، إذ هذه الجهات هي في النهاية مسخَّرة، وليست صاحبة الأمر في القضية.

أصحاب الأمر ليسوا في بلادنا، بل خيوطهم، وأحياناً تتسرب من حيث لا ندري إلى عقولنا، بمعنى أننا ننساق وفق خططهم دون أن نشعر، وهذا كله يحدث في كل موقع».

هذه الملاحظة تجد مداها في عالمنا الحاضر حين تؤسس مراصد الصراع الفكري منابرها المتبادلة حول مفهوم الإرهاب لتضع ستاراً كثيفاً حول المشكلات الحقيقية التي تواجه قضايانا الرئيسة في إعادة صياغة قوتنا الذاتية، كما تفعل اليوم الصين والهند.

لقد أراد بن نبي إزاء هذا الواقع الاستعماري الخفي والمتخفي في نفوسنا ضمن مفهوم القابلية للاستعمار تحقيق هدفين اثنين:

الهدف الأول: تحديد آلية الرصد الاستعماري لتطور الفكر في العالم العربي؛ بغية مراقبته في كيفية تأثيره في تعطيل الأفكار الهادفة لدفع البلاد نحو التطور.

الهدف الثاني: إبراز الغياب الكامل في منهجية الفكر العربي والإسلامي عن أي توصيف للمشكلات بما يمثل قصوراً في تحديدها، وذلك يترك مساحة واسعة لآلية الرصد الاستعماري والتأثير في تعطيل أية نتائج تعبر عن صحة المسار وفاعليته.

فالاستعمار بمختلف الوسائل التي شرحها الأستاذ مالك في كتابه يسدل ظلاماً شاملاً على بعض القطاعات من الوجهة الفكرية كي يعزلها عن ضمير الشعب المستعمر نفسه وعن الضمير العالمي.

وهكذا يصبح المشهد وكأنما القاعة غارقة في الضوء بينما المسرح ذاته غارق في الظلام.

هذه الصورة التي عرضها بن نبي في كتابه (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة) ١٩٦٠ تكشف غياب الفكرة المجردة في رؤية المشكلات وتحديد الأهداف.

فالمنهجية الإسلامية أو العربية المقتبسة من الغرب لم تقدم حقيقة تتصل بقوة المجتمع الذاتية وإحساسه بالمخاطر.

فقد تكدست قوالب الحضارة الغربية في عالمنا في أُطر سياسية واقتصادية واجتماعية، بينما القضية الحيوية المتصلة ببناء الشخصية الجديدة لمجتمعنا فقد بقيت بعيدة عن كل حدّ، لأن الصراع الفكري في البلاد المستعمرة العربية والإسلامية قد بلغ مداه.

وينهي بن نبي تحليله بتوجيه المشكلة لإبطال مفعول الصراع الفكري في وجهين:

أولاً: كيف نعطي لأفكارنا أقصى ما يمكن من الفعالية.

ثانياً: أن ندرك الوسائل التي يستخدمها الاستعمار لينقص من فاعلينا.

فالسياسة تتطور تبعاً لأفكار مجردة تعانق بحكم الضرورة الضمير. وهنا تتحكم المبادئ والمقاييس وتحتكم في ضمير حي متوتر وفاعل، وعقل يدرك، وقلب يشعر، ما دامت الدوافع تتعلق بالأفكار.

أما إذا كانت الدوافع طبقاً لسياسة العالم الإسلامي ناشئة من جهاز هضم غريزي كما يقول بن نبي حينئذ تخون المواقف أفكارها.

وهنا تقع الكارثة في النهاية كجسرٍ ينهار حين تخونه أفكاره.

هذه المنطلقات هي أساس مشكلة الأزمة الثقافية عند كل هزيمة، لأنها إحدى مظاهرها، إذ بدأ بن نبي في عرضه لمشكلة الثقافة يحدد مدى بناء الكفاءة الفكرية في حيوية الثقافة ووحدة الفاعلية في تناول المشكلات.

هذه الأسس استعرضناها لنكمل من كتب بن نبي الصورة التي عرضها في المحاضرات الست، وكان لا بد من توضيحها لنمنح هذه المحاضرات قيمتها في مواجهة مشكلة الثقافة في مرحلتنا الحاضرة في ظل العولمة الأميركية الإسرائيلية، فأفكار بن نبي مرت في الخمسين الماضية من السنين سحاباً في صيف التطورات التي انتهت بالفشل حينما افتقدت مرحلة ما بعد الاستعمار أية قدرة على مواجهة المخاطر.

فبن نبي يشير في محاضرته (الحقوق والواجبات) عام ١٩٧١ إلى مخاطر ما سوف ينتهي عليه القرن العشرون من تهديد لمفهوم الثقافة فيتحدث عن مفهوم القوميات التي ظهرت في القرن التاسع عشر والتي فشلت في أوروبة منذ الحرب العالمية الأولى. لكنها انتقلت إلينا ملتوية لأسباب نعرف بعضها ونجهل بعضها الآخر. لكن التجارب هذه كلها قد فشلت في بناء النهضة، ويجب علينا أن نصفّي في النهاية الحساب.

يقول بن نبي: هناك دراسة للمجتمع الإسلامي يمكن أن ينظر إليها من الوجهة النفسية وعلى الخصوص (رجل ما بعد دولة الموحدين) أي مرحلة انهيار الحضارة الإسلامية.

على ضوء هذه الدراسة يتبدى تناقض تام ودائم حَكَم كل تطور للمجتمع الإسلامي منذ تلك الفترة حتى المراحل الأخيرة. فرجل هذه المرحلة يتصور نفسه قادراً أن يمد يده بكل بساطة لكي يمسك القمر؛ إذ يبدو في نظره أمراً سهلاً، لكنه من ناحية أخرى لا يحرك أصبعه الصغير ليطرد بعوضة على رأس أنفه؛ فهذا في نظره مستحيل.

ففي إطار هذا الذهان Psychose وجد قادة الدول العربية أنفسهم فجأة عام ١٩٤٨ أمام قضية فلسطين، فنظروا إليها بكل خفة وحبور باعتبارها قضية سهلة.

نحن نعلم ما جرى بعد ذلك حين عالجنا الأمر عبر شعار دون آخر مصحوباً بأعلى الاستهتار والفخر في التصدي للقضية.

لكن يجب أن نشير في النهاية أن هذا الضحك في مداه أعقبه فوراً جدية المشكلة في منتهاها وسوء تقديرها وضياع الجهود نحوها. فبدأ عبر جهد فكري ضائع يدرس أسباب الهزيمة المروعة في كتابات اقتصرت على الانتقاد والجدل فأرخت للمراحل التالية من الهزائم المتتابعة.

فالمشكلة من هذا الجانب مشكلة أزمة ثقافية. وإذا أخذنا معيار الثقافة باعتباره تكويناً تربوياً يؤسس لكفاءة فكرية في ظل مناخ حضاري شامل نرى بن نبي يؤسس في دراساته لجغرافية وحدة المشكلات في مداها الثقافي والاجتماعي الذي ينعكس على كفاءة الإنتاج الاجتماعي، وهذه الجغرافية تتجاوز جغرافية الأعراق القومية والافتراضية، فهناك وحدة المشكلة في الإطار الثقافي في تناول ضرورات الحاضر، ومدى ارتباطها بالإنتاج الاجتماعي في العالم العربي، وليس وحدة الأصول القومية التاريخية، إذ الولوج إلى هذا الصعيد منذ بداية القرن العشرين كان نتيجة رد فعل الاستعمار، وهو في النتيجة من قبيل وضع العربة قبل الحصان، إذ كان ينبغي البحث عن حصان الكفاءة الضائعة من الوجهة النفسية، والتي تؤسس للفاعلية الثقافية التي تراجعت في المسيرة التاريخية التي جمعت سائر الأعراق. فمن خلال هذا الإطار القومي استطاعت إسرائيل العبور في مدعاها القومي، لكنْ، وهي محملة بسائر معطيات الفاعلية الثقافية الغربية التي كانت بمثابة حصان طروادة، فيما بقيت أحلام القوميات لا تزال تشبه اليد التي تسعى لتطال القمر كما قال بن نبي.

كانت المطالبة بالحقوق القومية باباً سهلاً للخروج من مواجهة المشكلات الجامعة للعالم العربي في مداها الإنمائي الذي بدا، للمرحلة النفسية التي أشرنا إليها، مدخلاً مستحيلاً في عمق مشاعر التخلف، فيما كان السهل ليس سهلاً والمستحيل ليس مستحيلاً.

فكرة الشرق الأوسط توصيف غربي لمفهوم القابلية للاستعمار في عالمنا العربي والإسلامي جغرافياً واجتماعياً.

من هنا ومن خلال هذا الركود الذي انتهى إلى الحدود السياسية في صعيد العالم العربي عبر دول هنا وهناك، كانت فكرة الشرق الأوسط مصطلحاً تجد معناها في ذهن المخطط الاستعماري وفي ذهن العالم العربي الذي قبلها في لغته السياسية.

فمعناها في ذهن المخطط هو أحد نتائج معناها في ذهن أدبيات العالم العربي حين نظر إليها من الوجهة النفسية تسليماً بمنطق المستحيل ورآها المخطط الغربي استسلاماً لمدى مساحة بيضاء يرسم عبرها حدود امتداده الاستعماري. فالدعوة إلى الإصلاح السياسي والثقافي والتربوي من قبل السياسة الأميركية اليوم والقبول بمناقشتها من جانبنا سلباً أو إيجاباً هو المعنى المزدوج الذي يعبر عنه مالك بن نبي بمصطلح القابلية للاستعمار.

فمشروعنا الاقتصادي فشل في النهاية على أساس القوميات، ومشروعنا السياسي فشل كذلك على أساس القوميات، ومشروعنا الثقافي فشل على أساس القوميات، حتى أنه انحط إلى مستوى الفولكلور حين أصبحت كلمة ثقافة قد تعني الفولكلور.

وهكذا، يرى بن نبي أن القضية الآن أفلست نهائياً وخصوصاً في المجال الاقتصادي، ذلك أننا إذا التفتنا إلى كلمة قومية عربية في مضمونها كما تأسست في أوروبة فسوف تأتي قوميات أخرى، إذ الآن توجد مخططات استعمارية؛ كما حدث في تقسيم الشام إلى لبنان وسورية الآن يفكرون في تقسيم الجزائر إلى بلاد عربية وبلاد بربرية، بحيث تتأسس على أرضنا قوميتان؛ القومية العربية والقومية البربرية.

هذا التحذير الذي توقعه الأستاذ مالك لمستقبل الثلث الأخير من القرن العشرين يجد مصداقيته في بداية القرن الواحد والعشرين؛ لأن منطلقات الثقافة كما أوحى بها الفكر الأوروبي قد اتخذت مسارها في فراغ المساحة الثقافية والتي تعطلت أسطوانتها المؤثرة في فاعلية الحركة. من هنا يبدأ دور المسلم أولاً -كما أشار بن نبي في

محاضرته-، استناداً للبنود الأساسية بوصفها مرتكزات لحضور ثقافة في مستوى العالم، كما أشار في محاضرة (المرأة والرجل أمام واجبات واحدة في مرحلة الإقلاع نحو النهضة).

هذه المخاوف التي تحيط بدور المسلم في نطاق الحضارة الإسلامية تتطلب معايير فكرية وعملية معاً، وهذا ما ركزت عليه المحاضرة الثانية (المرأة والرجل أمام واجبات واحدة في مرحلة النهضة).

إذ يجب الانطلاق في بناء دورنا على حقائق التاريخ، ومن هنا ينبغي أن نضع عقدنا جانباً، لذا ينبغي أن ننطلق من الحقائق التالية:

أولاً: أن هنالك محنة تخلُّف نمر بها.

ثانياً: أن النتائج التي أورثها هذا التخلف هي من صنع أيدينا، فالتخلف هو حصاد أمراض اجتماعية، فهناك واجبات لا تغني عنها كثرة التعبد والدعاء. فالمتعبدون والمنغمسون بعبادة الله عليهم أن يدركوا فاعلية عبادتهم فلا يفرطوا في مسؤولياتهم الاجتماعية.

هذه المسؤوليات تتطلب رؤية في مساحة العالم كله، ودورنا فيه. لذا علينا سلوك الموضوعية في التوجه والاتجاه.

ثالثاً: أن معطيات العمل الانتقادي يرتكز على أمن المجتمع، وهذا يتطلب وحدة أفراده ووحدة سلوك أفراده، في تنظيم ثقافي وانتظام حضاري.

رابعاً: أن التشاؤم ممنوع في معرض الموضوعية والواقعية. والنقمة التي تحل بمجتمعنا ليست نقمة من الله، بل هي رحمة تؤذينا لتذكرنا بالسير في الطريق المستقيم.

خامساً: لا بد أن تكون رؤيتنا في حجم العالم كله، لكن علينا أن نتخلص من التفاؤل السهل استناداً إلى ذاكرة متعالية عن مشكلات الواقع، كما حدث في التعامل مع قضية فلسطين حتى لا نقع في مرارة الهزيمة، لذا يتطلب العمل إدراكاً للواقع

والعمل على تغييره في مسيرة الثلث الأخير من القرن؛ لأن نهر التاريخ قد وصل إلى مصبه في البحر والمتغيرات تسير وتمهد لرسالة الإسلام.

سادساً: أن صلاحية الإسلام لمستقبل العالم هي بمقدار ما نقدم للعالم من حضور وإسهام، وهذا الأمر مستقل عن صحة الإسلام حقيقةً إلهية، فالصلاحية شيء والصحة شيء آخر. فالإسلام لا يفقد صحته مهما تخلف المجتمع الإسلامي، لكن الإسلام يفقد صلاحيته إذا أغفل المسلمون طريقة استعماله أداة حضارة وعمل، وأداة تزكي المجتمع وتحقق للفرد فيه ضمانات على اختلافها.

هذه الأسس الستة تجد فاعليتها في تحديد مفهوم الثقافة بوصفها منظماً لمسيرة المجتمع فإذا تخلفت هذه الفاعلية عن دورها كانت هنالك أزمة ثقافية.

ذلك أن الإسلام رسالة في مستوى تحديات العالم كله في تبليغه للناس كافة. لذ فإن المحاضرات التي قيلت في زيارتيه الأخيرتين ليست سوى مزيد توضيح لمشروعه النهضوي الذي يجب النظر إليه متكاملاً من أول كتاب أصدره في هذا السبيل، وهو كتاب (شروط النهضة) الذي صدر بالفرنسية تحت عنوان (شروط النهضة الجزائرية) عام ١٩٤٧.

أما بعد:

فإن كثيراً من الدراسات الاقتصادية والفكرية في عالمنا العربي بدأت تعود أدراجها إلى منطلقات بن نبي بعد أن تخلفت عنها خمسين عاماً.

ففي افتتاح الندوة العالمية التي دعى إليها (المجلس الإسلامي الأعلى) في الجزائر، التابع لرئاسة الجمهورية الجزائرية من ١٨-٢٠ من شهر تشرين الأول أكتوبر من عام ٢٠٠٣ افتتح رئيس الجمهورية الأستاذ عبد العزيز بوتفليقة الندوة بكلمة قال فيها:

لقد وضع بن نبي إلى حد كبير أسس فكر إسلامي حديث يساير تطور العالم ويعي الرهانات الدولية، لكن فكره كان ولاشك سابقاً لأوانه فوجد نفسه مهمشاً من قبل

التيارات السائدة، إلا أن الأحداث أكدت ما ذهب إليه من نظريته وأكدت تحليلاته.

أما اليوم فالجامعات والمفكرون بحاجة إلى اكتشاف هذا الفكر الجديد.»

هذه الإشارة التي انتهت بها كلمة رئيس الجمهورية الأستاذ بوتفليقة وجدت معناها في مداخلة بالفرنسية لوزير التجارة في الجزائر أحد تلاميذ مالك بن نبي الأستاذ نور الدين بوقروح حيث أكد على تكاملية كتب بن نبي في شرح مشروعه النهضوي، وإنني أختتم هذه المقدمة بترجمة النتائج التي انتهت إليها هذه المداخلة:

في نظرة موجزة لبعض مراحل حياته يبدو فكر بن نبي واضحاً ومباشراً خارج أي إبهام أو ضبابية؛ إنه فكر ملتزم يعالج واقعاً معاشاً في خدمة نهضة الجزائر والعالم الإسلامي الذي يقاسمها المشكلات، لذا ففكر بن نبي يبحث دائماً عن دوره في حركة عمل ملموس ومنتج.

لقد أغنى بن نبي العلوم الاجتماعية بإدراك وتفهم أفضل لعلم النفس، كما في علم الاجتماع الإسلامي، وتفسير حركة التاريخ الإسلامي. وقد استحق بذلك كله مكانته بين ابن خلدون وشبنجلر وتوينبي، ويمكن له تصنيفه بين أولئك الفلاسفة الذي تأثروا بالمرحلة التي كانت تمر بها أوطانهم وحالة ثقافتهم فكانت كتاباتهم تعبيراً عن ما كان يعانيه معاصروهم، ونذكر من بينهم فيشت، نيتشة، خليل جبران، أورتيخا، إيف غراس.

وككاتب ملتزم يمكن أن نجد لبن نبي زملاء منهم سيزار - تيبور روني دومون - (جوزي دوكاستر) وهم كتاب كان يشير إليهم في أعماله وكتاباته.

إن حياة وفكر بن نبي يتداخلان في عروة لا انفصام لها؛ فحياته فيها صلاحية التعبير عن فكره، وفكره فيه صلاحية التعبير عن حياته، إذ كل واحد منهما هو شهادة لصحة الآخر، فأفكار الرجل أصيلة وقد رضيت بها حياته مساراً لفاعلية الأداء، بمعنى أنها وهبت لفكره لتكمل كل واحدة منهما الأخرى. لذا فالسياسة لا تخالط فكره بل تتحدان اتحاد وحدة وأداء.

فإذا كان الشأن العام هو الذي يحيل السياسة إلى الفكرة من أجل إدارة جيدة لمصالح المدينة، فإن الوفاء لهذا المثل الأعلى الذي يشير إليه بن نبي بأوسع العبارات لا يعني سوى الحضارة.

وإذا كانت السياسة تعني التزام عمل ونضال، فهذه هي على الدوام حياة بن نبي. إنها معركة ضد النزعة الاستعمارية وضد النزعة للقابلية للاستعمار إنها ضد الانحطاط، ضد التخلف، إنها ضد الأفكار المقتولة والأفكار القاتلة.

لقد ولد فكر بن نبي من تجربته، أما أعماله فقد خرجت من بُنْيَةٍ أسس لها. وكل منهما، الفكر والعمل؛ يترابطان أداء، إنهما متداخلان متشابكان حتى إنه لا يفصل بينهما سوى خط وصل يضعهما في معنى واحد.

أما كتبه فليست سوى سُبل إجرائية، هي ملخصات لأفكاره تسلك بنورها الطريق. إنها بواعث إنجاز اقتصادي وسياسي وثقافي، إنها سلسلة تحرض على العمل وفي الوقت نفسه تضع خطة لمساره وأهدافه.

لقد كان جهده منصرفاً للبحث عن القضية الاجتماعية لشعبه وللعالم الإسلامي، وفي هذا المدى الواسع لابدَّ له أن يتحدث بلغته ويتبنى مصطلحاته لكي يحيط به.

وإذا كان من المتعارف عليه أن الإنسان العملي لا يحب القراءة ولا النظريات ولا الأفكار المبهمة، وأن المفكر بالمقابل غير مكابد للمصاعب حوله ويميل للخجل ولا يتلاءم عمله مع النشاط الجسدي؛ فإن بن نبي على العكس من ذلك قد قرأ جبال الكتب، وانغمر في عمق العلوم والنظريات الاجتماعية الجارية في زمانه.

كان مناضلاً محطماً لكل المحرمات الموروثة. . لقد كان مجدداً ومبتكراً.

وعلى منوال العظماء ومربي الإنسانية كان بن نبي يوجه ويرشد ويعلم لا على مقاعد الجامعة، بل في منزله وخارجه كما في البلاد التي يزورها، بل وحيث يجد لكلمته مستمعاً. كان لا نظير له بين أقرانه في زمانه، لا يعبأ بالمجد ولا ينتظر المكافأة. لقد حمل عبء قضيته إلى النهاية.

وشعر نيتشة يختصر مزاياه هذه كلها حين يقول:

نـظـرتـه لا تـشـوبـهـا الـرغـبـة
تـشريـفـاتـكـم دون اهـتـمـامـه
كـعـين الـنـسر يمـتـد بـصره إلى الـبـعـيـد
إنـه لا يـراكـم لأنـه لا يـرى سـوى الـنـجـوم

عمر كامل مسقاوي

طرابلس- لبنان

١ محرم ١٤٢٥ هـ / ٢١ شباط ٢٠٠٤ م.

مجالس دمشق

المحاضرات

١- لقاء مفتوح مع الأخوات في مسجد صلاح الدين الأيوبي في ١٦ نيسان ١٩٧٢م.

٢- الثقافة والأزمة الثقافية - ألقيت في الجامعة السورية بدعوة من كلية الشريعة، آذار ١٩٧٢ م.

٣- الحقوق والواجبات مع مناقشة وحوار مع الحاضرات من السيدات، ألقيت في مسجد المرابط، ١٩٧١م.

٤- المرأة والرجل أمام واجبات واحدة في مرحلة النهضة مع مناقشة وحوار مع السيدات. ألقيت في مسجد المرابط، ١٩٧١م.

٥- دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين. ألقيت في رابطة الحقوقيين، آذار ١٩٧٢م.

٦- رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين. ، ألقيت في مسجد المرابط، أيار ١٩٧٢م.

المحاضرة الأولى
مفاهيم

١- القابلية للاستعمار

٢- الحضارة - الإسلام

لقاء مفتوح في مسجد صلاح الدين

مع جمع من الفتيات في ١٦ نيسان ١٩٧٢ م

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

المقدمة الأخت ليلى سعيد

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

نرحب بالأستاذ مالك الذي زارنا في هذا الاجتماع. ومما يشرفنا أن يحضر مفكر كبير جلستنا ليتحدث إلينا، وهذا من سماحة أخلاقه، ومن صوابية نظرته للمشكلة، ومن حسن تقديره لأمور يراها المجتمع الإسلامي المعاصر أمراً ثانوياً.

وهنا أحب أن أذكر ملاحظة، ربما بعض الأخوات يرون أن لا حاجة لنتحدث بها بوجود الأستاذ، والأخذِ من وقته، إلا أنني أعرف أن مما يهمه أن يعرف مقدار فهمنا لأفكاره، كما يهمنا نحن أيضاً أن يطمئننا على مستوى فهمنا لأفكاره. وعلى هذا الأساس سأتناول فكرتين أو ثلاثاً باختصار أمامه، ليسمع منا، لأنه حين يسمع منا يعرف مستوانا، ويعرف ما نحتاج إليه، واليوم أريد أن أتخذ مجيء الأستاذ إلى هنا وسيلة لتوضيح قضية هامة من القضايا التي يعرفها، وهي العلاقة الطبيعية الموجودة بين الحق والواجب.

لما تنبَّهنا لهذه الفكرة بوصفها نظرية منذ بضع سنين لم نكن نستشعر قيمتها الواقعية كما نشعر الآن، حيث الأستاذ موجود بيننا، وسيتحدث إلينا، ووجود الأستاذ بيننا في هذه اللحظة حق نزل من السماء لواجب صغير أدّيناه بصبر وأناة، خلال بضع سنين، وبالنسبة إلى هذا الأمر أوضح ما يكون، حيث أعرف اللحظة التي كانت جلستنا هذه حنيناً في عالم الغيب، ويشاركني في هذا بعض الأخوات، ويمكن للأستاذ مالك أن يرى أن هذا الاجتماع من النتائج الطبيعية لجهده الذي استمر

نصف قرن، وهو يعيش مأساة تخلُّف المسلمين، يعيشها بالمحن اليومية، ويتبين هذا لمن درس مؤلفاته وخاصة كتاب (شاهد قرن) وكتاب (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة).

وفكرة أخرى: أن الوقائع الاجتماعية تكون نتيجة لأحداث مضت؛ تكون نتيجة لما قبلها وسبباً لما بعدها. وكما يقول الأستاذ مالك في كتاب (شروط النهضة) إن عدم إدراك هذه النظرية الكلية، أي إدراك أن الوقائع نتيجة لما سبق وسبب لما سيأتي، إن عدم إدراك هذه النظرية الكلية البعيدة عن النظرية الزمنية تحدث نظرة خاطئة، وتحدِثُ عند المثقفين، أي المتعلمين، نظرة مؤسسة على خطأ منطقي حين لم يستطيعوا أن يروا تطور التاريخ، فحين ننظر من هذه الرؤية (المؤسسة على خطأ منطقي) لا نرى تطور التاريخ. وهذه النظرة جعلتنا ننظر إلى المدنية الغربية على أنَّ تاريخها بدأ في اليوم الذي التفتت أنظارنا إليها، والواقع ليس كذلك، وإنما هذا تاريخها.

المدنية الغربية إذن هذه ناتجة عن عدم إدراكنا لها من خلال النظرة الكلية. هذا هو الخطأ والغلط الحقيقي.

وفكرة أخرى من أفكاره الأساسية: أنه كما يمكن تطبيق العلاقة الموجودة بين الحق والواجب - هذه الجلسة - نتيجةً لواجب سبق أن أديناه، كذلك يمكن تطبيق فكرة أخرى من أفكاره الأساسية، وهي استخدام الوسائل المتاحة في أيدينا للوصول إلى وسائل ليست في أيدينا، حين ننظر إلى الموضوع بهذا الشكل، وحين نسلك هذا الطريق نكون قد سلكنا طريقاً للتخلص من المشكلة الأساسية التي يبرزها الأستاذ مالك في مؤلفاته تحت مصطلح (القابلية للاستعمار) وأرجو أن أكون قد أعطيت صورة أقرب ما يكون إلى ما كان يريده حين يكتب أفكاره. وسنسمع منه الآن لنزداد وضوحاً ونزداد اتصالاً بالسنن، سنن الآفاق والأنفس التي من عرفها سخر له ما في السماوات وما في الأرض. فليتفضل الأستاذ مشكوراً.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

والصَّلاة والسَّلام على خير المرسلين

يسرُّني بعدما استمعت إلى ابنتي التي قدمتني إليكنَّ، وعلقت على بعض الأفكار التي عرضتها في دراساتي، أنها ذكرتني بأشياء كنت أنسها فعلاً.

في البداية يجب أن ندرج مقدمةً لحديثنا قضية عامة نطرحها قانوناً نهتدي به في سيرنا نحو حلّ المشكلات التي نواجهها نحن معشر المسلمين.

إحدى هذه المشكلات تبرز من ناحية نفسية في فترة خطيرة من تاريخنا الثقافي. وذلك عندما أفلت شمس الحضارة الإسلامية، وانتهى دورها على وجه الأرض. وبقيت آثارها المجيدة تذكرنا بماضٍ مجيد.

ففي دمشق مثلاً مضت فترة تحجر فيها الاجتهاد وتوقف، انطلاقاً من مبدأ يؤسفنا أن نذكره هنا للعبرة.

فالله سبْحانه، عزَّ وجلَّ، قدَّر لكلٍّ خلقه في أحسن تقويم، وقد أحسن تقويمهم ليسيروا طبق سُنَن معينة تحقق حاجاتهم البسيطة والمعقدة، لضمان بقائهم؛ فقدر للحيوان مجموعة من الغرائز تتكفل ضمان حياته، لكنه عزَّ وجلَّ فضل الإنسان بشيء هو العقل يتصرف به لضمان حاجاته في العيش اليومي، وفي مراحل التاريخ، لكنه إذا وصل مجتمع ما في طور من تاريخه إلى تعطيل نشاطه الفكري بحجج واهية؛ كتلك الحجج التي كنا قبل أربعين عاماً أو نصف قرن نسمعها في الجزائر مثلاً، وكما هي قائمة أو يجري مفعولها على العقول في البلاد الإسلامية كافة. وذلك فيما يخص القرآن الكريم تفسيراً لآياته، إذ أصبحوا يعلقون على كل اجتهاد في تفسير القرآن الكريم

بكلمة تحد من كل نشاط، وتعطل العقل باعتباره شيئاً غير ضروري وغير لازم في الحياة البشرية. إنهم يقولون: إن الاجتهاد في تفسير القرآن خطأ والخطأ فيه كفر. وهذا يعني وقف وسدّ باب الاجتهاد وتعطيل الفكر نهائياً.

فإذا أردنا أن ندرك مدى خطورة هذا التعطيل يجب أن نقارنه بتعطيل آخر.

لنفترض أن الحيوانات لها أصوات ولها مجموعات تتحاور فيما بينها عن شؤونهم، وقد أشار عليهم بعضهم أن يعطلوا غرائزهم، ترى من يتكفل لهذه الحيوانات شروط حياتهم إذا تعطلت غرائزهم؟

هكذا نحن نكون قد قررنا بإجماع ضمني تعطيل اجتهادنا في نشاطنا الفكري ونشاطنا الدنيوي والأخروي.

فتعطيل الفكر هو في الصورة التي أشرت إليها مما جرى في الجزائر فيما يخص القرآن. وبدا ذلك بكل أسف مسلكاً تعطَّل فيه النشاط الفكري في العالم الإسلامي كله.

اليوم نحن نعيد النظر في كل هذه القضايا وعلينا أن نستمر في هذا الاتجاه؛ لأن المجتمع الإسلامي لا يزال يعاني أمراضه مما أشرت إليه في بعض الكتب، وما تكتشفونه أنتم، إذ الاجتهاد هو السبيل لاكتشاف الجوانب المرضية في العالم الإسلامي والتي بقدر عمق تشخيصها ودقته نحدد المعالجة، حتى لا تكون معالجتنا لأمراض وهمية أو نصف حقيقية.

فالعالم الإسلامي أضاع أكثر من قرن في معالجة مرض سماه الاستعمار، بينما ابنتنا الكريمة التي قدمتني أشارت إلى ذلك الضياع لأن المرض الحقيقي لم يكن الاستعمار القادم إلينا من خارج استعدادنا لاستقباله. بل هو في مكونات ذلك الاستعداد، والدليل على ذلك بسيط يقدمه لنا الواقع المؤلم اليوم، وهو أن الاستعمار غادر هذه المساحة من الأوطان، ولكن هل نحن نشعر أن الأوضاع الاجتماعية أو الخلقية أو الثقافية أو الإنسانية قد تغيرت بطريقة جوهرية؟

أخشى أن أجيب على هذا السؤال فيما أنا لا أريد أن أتورط في جواب متسرع أو جواب صريح، إذ سأترك لضمائر بناتنا كي يتأملن في هذا الموضوع فقط. أما الجانب الذي ألفت النظر إليه هو أن ما كنا نعانيه وما زلنا نعانيه إلى حدٍّ كبير (وقد كانت ابنتنا التي قدمتني أشارت إليه) فيما حلَّ في بلادنا من الاحتلال الاستعماري، فهل فيما أشارت إليه في مقدمة هذا الكتاب من جديد في تاريخنا؟ إنها ليست جديدة، ومن هنا فالمرض الذي أشرنا إليه والمتفشي في العالم الإسلامي ليس جديداً، بل هو ظاهرٌ بَيِّنٌ في ضعفنا وهو ليس غريباً، لأنه سُنَن الله في خلقه، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [البلد: ٩٠/١٠-١١]. فالمداولة بين الناس هي هبة الله لمن منحهم تأييداً ونصرةً وغلبةً على الأعداء والخصوم من خلال غلبتهم على أنفسهم أولاً. ولكن هذه المداولة حين ينقضي دورها وتدور أيامها في مكان ما وفي مجتمع ما فذلك لسنة قدَّرها الله، وأترككن تقرأن كتباً في تفسير هذه السنة الإلهية حتى لا يطول بنا الحديث في نقطة خاصة، لكنني أقول: إن هذه المقدمات التي كانت تعلن من بعيد القرون، قدوم الاستعمار واحتلاله للأوطان الإسلامية (وليس من القرن التاسع عشر وحده)، قد جاءت من غير مصدر واحد بل من مصادر كثيرة. مثلاً مصدر ابن خلدون، إذ ربما قرأْتُنَّ ابن خلدون إذ يقول في (مقدمته) وفي عبارات عامة عن التاريخ، وهو يكتبها قرناً بعد سقوط بغداد، وقرناً قبل سقوط غرناطة المعقل الإسلامي الأخير في الأندلس، يقول هذه الكلمات الغريبة كأنما هو يلمح ما سوف يأتي في العصر الذي كان عصر جدي أو جد جدي أو جد آبائكن، لقد قال، وهو بالطبع يتأمل الرقعة الإسلامية من شرقها إلى غربها:

«وكأني بالمشرق ينزل به ما نزل بالمغرب على نسبة أملاكه» ثم يضيف: وهذا يهمني أكثر لكن نرى أن هذه الأمور طبيعية تجري على سنن الله «وكأنما لسان الكون ينادي فيه بالتقلص والأُفول فاستجاب».

هذه الفقرة من عبارة ابن خلدون إذا وضعناها في فترتها التاريخية، أي وضعناها وسط قرنين؛ قرنٍ مضى على سقوط بغداد وقرنٍ آتٍ لسقوط غرناطة، فقد كان ابن

خلدون ينذرنا بلغة ذلك الزمن، إذ كانت المصطلحات التي نستعملها اليوم غير موجودة، إذ لم تُكَوّنها بعد ظروف التاريخ الحاضر عبر المحَنِ التي واجهناها، فكانت المصطلحات الجديدة كما نقول اليوم: (استعمار)، فلو قلنا لابن خلدون: (استعمار) فإنه لا يفهم هذه الكلمة، إذ هذا المصطلح جديد، وقد وجد في ظروف أوحت بنتيجته، وكذلك كلمة (القابلية للاستعمار) وهذا ما أودُّ الإشارة إليه.

كان في أوائل القرن السابع عشر سفير ملك إسبانية كارلوس الخامس، وكان سفيراً في المملكة التي نسميها اليوم (المملكة المراكشية) كان يكتب تقريراً دبلوماسياً حسب مصطلحات العصر لملكه فيقول: «مولاي.. إن الأمور تجري هنا في مراكش كأن الله يريد أن يُهَيِّئَ لك السبل»، طبعاً هو أيضاً يفقد هذا المصطلح الذي نحن صنعناه. لكن لماذا صنعنا مصطلح (القابلية للاستعمار) لأن التاريخ صنع مصطلحاً قبل أن أطلقه على أوضاع معيّنة تحت اسم (الاستعمار) فكان من واجب المسلمين أن ينتبهوا إلى أن الاستعمار هو مجرد بذرة صغيرة حقيرة، ما كان لها أن تنبت وتؤتي أُكلها لو لم تُهيَّأْ لها التربة الخصبة في عقولنا ونفوسنا.

هذا المفهوم بكل أسف هو ما فات إدراكه على رواد الحركة الإسلامية منذ قرن، بحيث ينبغي على هذا الجيل - جيلكن - أن يتدارك هذا البطء في المسار، وأن يراجع سائر الأفكار التي سبقت، ويصفي منها ما يجب تصفيته فيمسك بالصحيح ويلغي منه ما كان خطأً. فأصحاب الخطأ قد اجتهدوا عن حسن نية ولهم أجرهم، عملاً بالحديث الشريف، لكن ليس علينا أن نتحمل نتائج خياراتهم وتفكيرهم مقيدين بقيود قيدت الأنظار والعقول قبلنا.

أكتفي بهذا في تعليقي على المقدمة التي أوحت إلي بها ابنتنا الكريمة التي هي منكن، وكنت أريد أن أفتح معكن حواراً في هذا المجال، لكن المجال لا يتسع. ونحن نستطيع أن نُضَيِّع فيه ساعات وأشهراً وسنوات، ثم ابنتنا التي سبقتني قد كرست مجهوداتها في ذلك معكن، أو مع غيركن، أو بعض الأخوات أيضاً اللواتي حصل لي الشرف أن عرفتهنّ في دمشق.

ما أريد التركيز عليه هو أن نهتم بشؤون المجتمع الإسلامي. ذلك أننا إذا انغمسنا في فرديتنا في أنانيتنا (وأقول أعوذ بالله من الأنانية، وأنا أتعوذ بالله منها دائماً، ويجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعوذ منها) وأقول: حتى على فرض أننا نُحَكِّم أنانيتنا في القضايا، يجب أن نعرف أن مصير الإنسان ليس في يده.

يا بناتي وأشدد على هذا، مصير الإنسان ليس بيده، وأنا يؤسفني أن نُهمل بعض الحقائق الكبرى ولا نعطيها قيمة حيث تأتي مجهوداتنا أو بعض مجهوداتنا وقد ضاعت سدى، وبعض تأملاتنا أضحت في غير مكانها.

يجب أن ترسخ هذه القوانين في الأذهان، فمصير الفرد مقيد بأوضاع المجتمع الذي يعيش فيه، كما أنبته الله حيث قدر له ذلك حين برز إلى الوجود.

لقد علمت أن بعض بناتنا جامعيات، وبالإجمال لهن إمكانيات علمية تؤهلهن لتأمل القضايا الاجتماعية في مستوى معين. لذا أضع في تأملهن هذه القضية:

سأضع أمامكن فرضيتين ومن خلالهما نحدد مدى حرية تصرف الفرد طبقاً لمواهبه، ثم مدى إمكاناته لتحقيق هذه المواهب، ودرجة حريته. سيتضح لنا من خلال هاتين الفرضيتين أن حريته قليلة جداً إلا في ظروف نادرة استثنائية وفي حدود ضيقة.

الفرض الأول: نفترض أن مولوداً سئل قبل ولادته (على سبيل الفرض الرياضي والهندسي وأنتنَّ تدركن معنى الفرض العلمي) أين تريد يا مخلوق أن تكون؟

قبل الجواب على هذا السؤال أكرر أننا في معرض فرضية؛ لذا نضع جانباً القضية الدينية، لأن القضية الدينية لا تتعلق بهذه الشروط التي نتحدث عنها. لأن هذه الشروط في الأساس هبة من الله، فالله يهدي من يشاء حتى ولو ولد في بلاد الكفر فيكون مسلماً، وأنا عرفت كثيراً من الناس في فرنسة أسلموا، وأسلموا أحياناً على يد مسلمين عصاة، لا يعنينا الأمر هنا، لذا نعود للجواب على هذا السؤال:

أين تريد أن يكون مسقط رأسك؟ فإذا قرر هذا المولود واختار أن تكون ولادته على ما أسميه محور (واشنطن - موسكو) وذلك بامتداده إلى طوكيو، فإننا نستطيع أن

نحدد حظّه في الحياة بالطريقة الإحصائية التي لا يستطيع أحد التلاعب بها. والحصيلة أن نسبته في حدود التعليم وحدود الرعاية الصحية في طفولته مثلاً حيث الرعاية منذ الحضانة، وكذلك الضمانات الاجتماعية قبل الولادة، فتقدم للأم ما يمنح الجنين أفضل الظروف، لذا تتحقق له نسبة من الحظوظ في التعليم وفي الرعاية الصحية بوصفه طفلاً، ثم في العمل رجلاً، فوق ٩٠٪، وهذه هي نسبة الأشياء في المحور الشمالي الذي أطلقنا عليه **محور واشنطن - موسكو**.

الآن لنأتِ إلى الفرض الثاني: فإذا قرر الطفل أن يولد على محور طنجة - جاكرتا، وقبل أن نتساءل عن اسمه ولونه وإمكانيته الجسمية والعقلية، قبل أن نتساءل عن هذا كله، فهو قبل هذا كله يقع مباشرة بمجرد ولادته تحت قانون الأعداد الكبيرة كما يقولون، أو كما يسمونه القانون الإحصائي. وسيكون له في محور طنجة - جاكرتا من الحظوظ ٤٠٪ في التعليم، أما الرعاية الصحية فأقل من ذلك ٢٥ - ٣٠٪، أما في العمل فيكفي أن نقول: إن بلداً مثل الهند فيه ٨٥ مليون بطالة، لذا فالحظ في العمل سيكون أقل من ٢٠٪، ونضيف بين قوسين أنه إذا ولد في الهند سيكون له ٢٥٪ من الحظ ليكون منبوذاً؛ لأن ٨٥ مليوناً من المنبوذين يعيشون في الهند، أي ربع السكان، وهذا يعني أن ٢٥٪ من مواليد الهند سيكونون منبوذين بطبيعة الحال.

إذن القضية، وهذا ما ألح عليه، أنّ أنانيتنا إذا ما فرضناها لنحقق شروط حياتنا وربما على حساب المجتمع، فإننا لا نستطيع هذا كما يتوهم البعض إلا في حدود ضيقة؛ لأن المجتمع نفسه يفرض علينا أوضاعاً لا قبل لنا بردها، فإذا كان المجتمع غير قادر على تحقيق الرعاية الصحية وغير قادر على تحقيق التعليم والعمل فإن فاقد الشيء لا يعطيه، كما يقول المثل، وهذا يعني أن القضية دائماً، حتى إذا أردنا أن نفردها وأن نتكلم عن الأنا فهي قضية (نحن).

وليست (أنا) وليس هناك قضية (أنا) في العالم غير بيوتنا وسكننا الخاص طبعاً في الأشياء التي نستعين بأنفسنا ومجهوداتنا لتحقيقها. وهذا واجب، لكن في المجتمع هناك (نحن) قضية سابقة تحت قانون الجماعة.

إذن يجب أن نهتم بشؤون المجتمع بقدر ما نهتم بأنفسنا، إذا أردنا الخير لأنفسنا فيجب أن نريد الخير للمجتمع، ويجب أن نقوم بتقويم ما يقتضيه خير المجتمع وهو ما أشارت إليه ابنتنا بالحديث عن الواجبات.

والنبي ﷺ يشير إلى هذا في حديث له: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»، أي يجب بعبارة مصطلحاتنا أن نهتم بالمجتمع الذي سنكون تحت رحمته شئنا أم أبينا.

فإن كان المجتمع في مستوى إمكان حضاري، طبق مصطلحاتنا، يمكنه من تكفل الرعاية الصحية والتعليم لنا، إذن يجب أن نهتم بشؤون هذا المجتمع، خصوصاً أن مجتمعنا اليوم يخوض معركة كبرى للبقاء، وأعني بالمجتمعات (المجتمعات التاريخية) وهي تعدُّ على الأصابع كما يلي: المجتمع المسيحي، المجتمع البوذي، المجتمع البرهمي، المجتمع الإسلامي، واليوم أضيف مجتمع جديد في الطريق هو المجتمع الشيوعي. هذه المجتمعات البشرية الخمس هي التي تخوض معارك ضارية من أجل البقاء، وسأعود للحديث معكن مرة أخرى في ظرف آخر لأتكلم في هذا الموضوع على جانب آخر.

إذن علينا أن نهتم بهذا، إذ المجتمع الإسلامي في معركة مع مجتمعات أخرى، منها مجتمعات زالت اليوم، فالمجتمع البوذي زال، والمجتمع البرهمي في طريق الزوال، والمجتمع المسيحي في طريق الزوال، ولكن ما الحالة الصحية التي نجد عليها المجتمع الإسلامي اليوم؟

قبل أن أجيب على هذا السؤال أقدم بين قوسين الملاحظة التالية؛ فالمجتمع الإسلامي يُرعى فيه جانبان:

- جانب تظهر فيه العناية الإلهية فقط من دون فضل البشر.
- في جانب آخر هو عمل أيدينا، أي: ما نصنعه نحن.

لذا لا أتكلم على الجانب الذي يرعاه الله، ولا أدخل في التفاصيل؛ لأن الوقت لا يتسع لذلك، لذا سأتكلم على الجانب الذي نصنعه نحن، المسلمين، بأيدينا.

فلو تأملنا بشيء من العمق بداية هذا القرن سواء كان القرن الهجري أو القرن الميلادي المسيحي فهذا القرن خطير جداً؛ لأنه مليء بالأحداث الكبرى. فلو أننا أتينا في بداية هذا القرن ووضعنا خريطة للعالم الإسلامي نسميها بالمصطلح المستعمل اليوم، أي طبقاً للمعركة التي تدور بين المجتمعات، فعلى أي صعيد تجري هذه المعركة؟

إنها لا تجري على صعيد الاقتصاد، ولا على الصعيد السياسي، بل هي تجري على الصعيد الروحي، تجري على الصعيد، كما يقولون اليوم، (الإيديولوجي)، ولا بأس أن نستعمل هذه اللفظة كما لا ينبغي أن ننفر منها أو أن نستغربها، إذ نستعملها كي نوضح أفكارنا، فلو أننا رسمنا خريطة نسميها (إيديولوجية) في غرّة هذا القرن للعالم الإسلامي فماذا نرسم مراكز للإشعاع الإيديولوجي؟

إننا نرسم مراكز ثلاثة من دون تفضيل لأحدها على الآخر.

١- مركز القاهرة.

٢- مركز إستانبول.

٣- مركز دلهي التي تسمى اليوم نيودلهي.

مراكز إشعاع ثلاثة هكذا تبدو المدن الثلاث إذا رسمنا الخريطة في غرة هذا القرن، لكن إذا تقدمنا ربع قرن في مسيرة هذا القرن فماذا يحدث على خريطتنا؟

نرى أن خريطتنا افتقدت إحدى مراكزها وهي إستانبول، إذ فقدت كيانها كعاصمة سياسية، فخلفتها أنقرة كما نعلم، وانقلبت آيا صوفيا إلى متحف، وتغيرت كتابة اللغة التركية من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية. وهذا يعني انتهاء دور إستانبول بوصفها مركز إشعاع إسلامي، هذا في ربع قرن. ثم نأتي في سنة ١٩٢٥، أي بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، فإذا سرنا عشرين عاماً أخرى على محور الزمن سوف يحدث شيء آخر في مدينة دلهي التي تسمى اليوم نيودلهي هي النتائج نفسها، والكتابة الأردية التي كانت تكتب بالحروف العربية أصبحت تكتب بالحروف

السنسكريتية، أما الأجهزة التي كانت منذ قرون، أي منذ عهد الإمبراطورية المغولية الإسلامية، فقد كانت مركز إشعاع كبير، حيث أضحى مركزاً للإشعاع الإسلامي في آسية، إذ لا يتصور إسلام إندونيسية نتيجة لإشعاع القاهرة أو نتيجة لإشعاع إستانبول، بل نتيجة لإشعاع المركز الإسلامي في الهند، وفي موقعها مركز دلهي. فهذا المركز زال في الظروف التي نعرفها أي في الظروف التي تأسست فيها دولة باكستان، وهكذا أزيل المركز الأول والمركز الثاني. والآن لم يعد في العالم الإسلامي إلا مركز واحد هو القاهرة، ونلاحظ أن القاهرة لا تشعر بقيمتها كمركز إشعاع إسلامي، وتضيع من قيمتها كمركز إشعاع إسلامي، إذ نرى بكل أسف أن الطباعة والنشر للتراث الإسلامي انتقلت من القاهرة إلى بيروت وأصبحت بيد غير إسلامية.

إذن العالم الإسلامي يعاني ظروفاً قاسية تجعله في حالة سفينة مهددة بالغرق. ونحن على متنها. طبعاً - أعيد مرة أخرى - لا أتكلم على الإسلام، بل أتكلم على المجتمع الإسلامي.

والمجتمع الإسلامي غير الإسلام، ويجب أن تكون هذه الأشياء واضحة في أذهاننا. فهذا المجتمع الإسلامي الذي نراه اليوم في خضم المعركة بين المجتمعات الأخرى، أي في إطار المعركة الإيديولوجية كما نراه سفينةً تكتسحها الأمواج من كل جانب سواء ما يسمى الموجة الصهيونية، أو الموجة التي تسمى بالإلحاد، أو الموجة التي تسمى الشيوعية، أو الموجة التي تسمى الاقتصادية ويعبر بهذا التعبير عن قصد.. إلخ.

فسفينتنا مهددة بالغرق، لذا يجب علينا أن نعلن الشيء الذي يسمى في الأسلوب العسكري (حالة طارئة) يجب أن نعلن حالة الطوارئ أو ما أسميه أنا في دراسة سبقت منذ عشرين عاماً حالة إنقاذ، يجب أن ننقذ السفينة وأهلها من الورطة التي تورطت فيها، ونعني المجتمع الإسلامي والمسلمين، وفي حالة كهذه يجب أن نتصور صلة المسلم بالمسلم الآخر.

فما صلة الإنسان الذي يجد نفسه على متن سفينة أو باخرة مع بعض المسافرين حتى لو كانوا على غير دينه في حالة إنقاذ أو في حالة خطر؟ من الطبيعي أنه يجب أن تتحد الجهود كلها، وأن يتطوع الركب كله في سبيل إنقاذ السفينة، وقبل كل مناقشة، إذ يجب الاعتناء أولاً بإنقاذ السفينة. إذا ما ركزنا وجمعنا مجهوداتنا ربما تتدخل رعاية الله وتنجو السفينة. ولكن هذا يتطلب منا أيضاً اتجاهاً نقود به السفينة إلى برّ الأمان. فحين تكون السفينة في بحر لُجّي تحيط بها الأمواج من كل جانب، يجب أن نتصور أن إنقاذها يعني شيئاً ما محدداً. يعني تحديد مرفأ أو ميناء نقودها إليه من موقع الخطر تسترجع فيه بعض مرافقها التي ضاعت في أثناء الكارثة، أو عند طغيان البحر، أو في أثناء العاصفة.

يجب أن يكون هذا محدداً وفي الخصوص، في أذهان القيادة التي تقود السفينة إلى مأمنها، والسفينة هي المجتمع الإسلامي، ولنا أن نتساءل: إلى أين نقود السفينة لينجو أهلها؟ إلى أي ميناء أو مرفأ؟ هنا يجب أن تتوضح بؤرة أمامنا تتجه نحوها كل المجهودات، ولا يجوز لأحد أن يقول: أنا أتصرف باجتهادي الخاص ثم يشير علينا بيده اليمنى أو بيده اليسرى لنتجه معه يميناً أو شمالاً أو إلى الوراء، لذا نحرم عليه هذا الاستقلال الاجتهادي باسم سلامة السفينة وأهلها.

هذا يذكرنا بحديث رسول الله ﷺ فالرسول ﷺ يستخدم في أسلوبه صوراً متفجرة، تفجر المعنى في العقول، وهكذا استعمل صورة المركب وصورة السفينة للتعبير عن المجتمع الإسلامي في حديث مشهور، وأنا هنا أذكره بالمعنى. «استهمَ قومٌ في سفينة فأصابَ بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلها. فقال الذي في أسفلها: فلنثقب ثقوباً في السفينة حتى نتناول الماء، ولا نزعج من هو على متن السفينة، فإن تركوه يفعل ذلك هلك وهلكوا جميعاً، وإن ضربوا على يده نجا ونجوا جميعاً».

فنحن اليوم إذا نقلنا هذا الحديث، على صاحبه الصلاة والسلام، وإذا نقلنا ظروفنا اليوم، وقلنا: إن سفينتنا مهددة بالغرق، واتفقنا عليه. وإذا خالفنا أحد في النظر ربما وجب علينا الضرب على يده، هذا ما أردت أن أقوله في هذه الحلقة.

ونتساءل ما البؤرة؟

هنا لا بد من إضافة توضيح؛ مجرد تعليق على كلمة بؤرة، ماذا تعني البؤرة؟

وماذا يعني بالنسبة إلى مجتمع ما المرفأ؟ أي المأمن الذي يجب أن تصل إليه سفينتنا. لا أطيل الكلام على الموضوع، إذ الموضوع يتسع لأكثر من حلقة. دائماً أكتفي بالقول بعد تأمل طويل وبعد مراجعات متكررة بما كنت قد قلته منذ أربعين سنة إذ أراجع الأفكار لعلّي على خطأ فأنتهي دائماً إلى أن المرفأ بالنسبة لكل سفينة مهددة بالغرق، أعني لكل مجتمع إنساني هو أمران:

١- **دينه**

٢- **حضارته**

دينه أعني عقيدته، أي الطاقة التي تجعل المجتمع يتمكن من مواصلة السير من المكان الذي طوقته فيه الأخطاء بلوغاً إلى مأمنه.

هذه الطاقة طاقة النجاة، ثم عندما نصل إلى المرفأ، والمرفأ هو حضارة المجتمع. أعني الإمكان الحضاري الذي يخوله القيام بوظيفته التاريخية بوصفه مجتمعاً متحضراً. يقدم جميع الضمانات الاجتماعية لكل فرد يعيش فيه.

هل هذا ضرورة؟ نعم إنها ضرورة متصلة اتصالاً روحياً بغريزة البقاء، فإذا أراد المجتمع الإسلامي أن يبقى على وجه الخريطة عليه أن ينقذ نفسه بدينه، لأنّ الدين هو الوسيلة الوحيدة لديه ليسير إلى مأمنه، بل والمأمن بالنسبة إلى سائر المجتمعات، فالأمر لا يختلف من مجتمع لآخر، فالمأمن هو الحضارة، وعند ذلك إذا عدنا إلى المعركة التي تخوضها المجتمعات التي سميناها المجتمعات التاريخية، يكون المجتمع إذ ذاك في مستوى المعركة، وقد يكون هو قائد وسيد المعركة، لأنه أنقذ نفسه بدينه، ويستطيع إنقاذ الآخرين بدينه أيضاً والسلام عليكم.

مناقشة

السؤال:

بالنسبة إلى حديث الرسولﷺ كان في مجتمع عادات وتقاليد وثقافة واحدة، لذا كان يمكن إيصال الجميع إلى ميناء واحد، أما الآن بعد أن تشعبت البلاد باقتصادياتها حتى الناس أنفسهم تشعبوا بيئات واقتصاديات. فكيف يمكن جمعهم وأخذهم إلى ميناء واحد، لأنه ربما كل واحد يريد الذهاب إلى ميناء وحده.

جواب الأستاذ مالك:

الخطأ يبتدئ من هذه اللحظة بالذات، من الشيء الذي ترين فيه تعدداً وتنوعاً كما تشيرين إليه. هذا موجود، لكن هذا التعدد للقضايا، هذا التنوع للمشكلات من سورية إلى السعودية إلى مصر إلى ليبيا.. إلخ. هذا هو الخطأ، وهو خطأ ندفع ثمنه غالياً منذ قرن، لأننا تصورنا أن كل وطن يستطيع حلّ مشكلاته، بينما أوروبة اليوم وبعد قرن من ممارستها لما يسمى الوطنية، وقد مارستها وجعلتها سيدة المواقف العالمية مدة قرن وأكثر، بعد هذا كله هي الآن تعيد النظر في القضية وتشير على نفسها بالرجوع عن خطواتها، لأنها أدركت أنها أخطأت طوال ذلك القرن، ولم تدرك خطأها إلا في النهاية، والتساؤل يثور، لماذا لم تدرك خطأها إلا مؤخراً؟

لأن العالم كان نائماً حين كانت سيدة الموقف، فحين استيقظ العالم أصبح يجابهها، فأدركت أنها يجب أن تتكون ليس من وحدات سياسية تسمى فرنسة أو إيطالية.. إلخ، بل يجب أن تعود إلى وحدتها كالوحدة التي كونت الحضارة الغربية؛ لأن الحضارة الغربية لم تتكون كما تعتقد بعض الأخوات من فرنسة وإنكلترة، إذ ليس هناك ما يسمى حضارة فرنسية ولا حضارة إنكليزية ولا حضارة إيطالية.. بل هناك حضارة

أوروبية، وبالأحرى نقول حضارة مسيحية. فالحضارة شروطها المجتمع الغربي - المجتمع الأوروبي - لذا فالسفينة لم تغرق، أما إذا غرقت أوروبة فإن السفينة تغرق كلها.

إذن يجب أن نصحح مصطلحاتنا. ونحن لا نعلم إلى الآن من يفكر في إعادة النظر حتى من الناحية السياسية.

أما من الناحية الفكرية فيجب عليكن أنتن طليعة المجتمع الإسلامي أن تعدْنَ النظر في القضية، وتتساءلن لماذا فشل المجتمع أمام دويلة لا أقول حقيرة كما قال أحمد سعيد، بل دويلة صغيرة؟ نعم، وبكل أسف، نرى أن المجتمع الإسلامي وَهَن أمامها مرتين لماذا؟ الجواب: لأنه تفرق، لأنه تمزق، لأن كل دولة عتبرت نفسها مبدءً مستقلاً بناءً على القاعدة التي تشير إليها ابنتي السائلة، وهذا هو خطأ لذا يجب أن نراجع أخطاءنا.

السؤال:

كيف نبدأ؟

جواب الأستاذ مالك:

نبدأ ككل شيء في كل القضايا. كيف بدأ الرسولﷺ؟ لقد بدأ بفكرة صحيحة، عاشها، طبقها، تكبد من أجلها العذاب حتى لو قتلوه. أو كما قال لعمه لما عرضت عليه قريش عروضها المغرية: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي لما تركت هذا الأمر حتى أبلغه أو أهلك دونه».

كيف نبدأ؟ هكذا نبدأ.

نقول لبناتنا الناشئات شيئاً آخر: كيف بدأت الأفكار الأخرى حين واجهت معركة المصير.

كيف بدأ ماركس مثلاً؟ بدأ هكذا ولا يمكن أن يبدأ بطريقة أخرى.

كيف بدأ ماوتسي تونغ؟ بدأ هكذا يا ابنتي. إذ هكذا تكون البداية.

لكن توجد نقطة أخرى. يجب أن يكون المنطلق من فكرة صحيحة غير مبنية على الأهواء والنزوات. ينبغي ألا ننطلق من أي إشارة تأتينا من اليمين أو من اليسار، إذ ينبغي أن نصحح نقطة الانطلاق. فإذا تأكدنا من هذا كما تأكد النبيﷺ قبلنا إذا تأكدنا من ذلك ننطلق. ولا يضرنا من خالفنا. هذه هي الانطلاقة.

سؤال:

هل الحضارة بالنسبة إلى المسلم منفصلة عن دينه؟ أم أنَّ الدين الإسلامي هو الحضارة؟

جواب الأستاذ مالك:

هذا سؤال ورد مرة أخرى مع بناتنا، وأظن أجبنا عليه.

الأخت المشرفة: يظهر أن السائلة لم تكن موجودة في أثناء طرح السؤال في المرة السابقة.

مالك: مرحباً إذن. ابنتنا سألت هذا السؤال على ما أعتقد بعد قراءة كتاب لأحد إخواننا الشهداء، وهو سيد قطب رحمه الله، ولا شك أن السؤال يأتي من صداه، وأنا أعرف هذا الصدى، وكان جوابي على هذا الصدى قبل ستة عشر عاماً في كتابي (الأفرسيوية) إذ قد يقع خلط في الأذهان، وهذا لا يضر أن يكون أحد إخواننا اجتهد فأخطأ. لأنه يكون قد اجتهد عن حسن نية، وله أجر، خصوصاً هذا الشهيد الذي نشير إليه. ولكن يجب أن نوضح الطريق، ولا يجوز لنا أن نخلط بين المفاهيم. وكان جوابي على هذا الأخ أكرره الآن لابنتنا.

الإسلام ليس شيئاً بسيطاً حتى نُكَوِّنه نحن بأيدينا كما هي الحضارة صنع البشر. الإسلام صنعه الله محفوظاً في اللوح المحفوظ، بينما الحضارة شيء يتكون وينمو ويعيش ويمتد ويزول ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [البلد: ٩٠/١٠-١١]. بينما

الإسلام لا تداوله الأيام، لذا فالإسلام شيء والحضارة شيء آخر. الإسلام أبداً لا يتغير فيه حرف واحد، ولو تغيرت البشرية كلها. أما الحضارات فتعتريها أمواج التاريخ تنشأ، تترعرع، تزهو ثم يأتيها الأفول كما يراه ابن خلدون في (مقدمته)، وقد أشرت إليه في مقدمة حديثي، فما ذكره ابن خلدون قبل سبعة قرون هو الجواب على هذا.

فلو كان الإسلام هو الحضارة- والإسلام والحمد لله ما زال باقياً في قلوبنا وضمائرنا- لو كان هو الحضارة لما فتحنا مجالاً للحديث عن الحضارة، ولما خصصنا للموضوع دراسات أربعين سنة، ولما تكلمنا على هذا الموضوع، لأنه يصبح من فضول الكلام.

فنحن نتكلم، منذ أربعين سنة، ونؤكد أن على المجتمع الإسلامي أن يحل مشكلاته التي يراها متعددة، وهي في الحقيقة نابعة من مشكلة واحدة هي مشكلة حضارة؛ أفلت الحضارات التي سبقتها، ويجب علينا أن نعيد بناءها. كما أن المجتمع الياباني قد أعاد حضارته ونجح، وكذلك اليوم المجتمع البوذي، فهذا المجتمع وقد أفلت حضارته، هو الآن يعيد حضارته بما يجده صالحاً له، وعلى أساس ما يعتقده من كفر ومادية، بينما نحن الوسيلة بين أيدينا، الوسيلة من نور الله، والوسيلة حية بين أيدينا، طيِّعَةٌ للعمل، نستطيع بها أن نعيد بناء الحضارة الإسلامية. وليس هذا كي ننقذ سفينة المجتمع الإسلامي فحسب، بل كي ننقذ سفينة المجتمع الإنساني بأكمله.

تعليق من الأخت المشرفة:

بهذه المناسبة أحب أن أذكر الأخوات أن هذه الأسئلة التي تتوارد إلى أذهاننا في هذه المواضيع والتي نشعر أن فيها غموضاً، ستتوضح كثيراً، وسيسلط عليها إشعاعات موضحة، إذا درسنا مؤلفات الأستاذ التي أورد فيها نتائج أبحاثه ونتائج دراساته في حياته التي عاشها مفكراً يبحث عن مشكلة المسلمين، وأتمنى أن تكون هذه المناسبة، مناسبة زيارته إلى دمشق وحضوره جلستنا الخاصة هذه، سبباً في أن

تتفتح الأذهان، وتتجه الاهتمامات إلى فهم مؤلفاته ودراسة كتبه، وربما كنا نتنبه أحياناً إلى أن دراسة هذه المؤلفات تحت عنوان مشكلات الحضارة تفيد في توضيح كثير من المفاهيم الغامضة لدينا. ولكن ربما لم تكن بقدر ما يمكن أن تفيده زيارة الأستاذ لنا للاهتمام بمؤلفاته؛ لأن الرؤية والحضور والمشاهدة كل هذه الأمور لها نتائجها.

فالحضور يتولد منه الشهادة، وأداء الرسالة. لذا فنحن نشكر الأستاذ، ونحمد الله سبحانه تعالى أن يسر لنا هذا اللقاء، كي نشعر بأهمية هذا النتاج الفكري الضخم الذي هو بين أيدينا، إن بذلنا ما في وسعنا وأدينا واجباتنا في الاهتمام والحرص على الدراسة، وتفهم هذه المفاهيم كي نجعلها واقعاً عملياً، وإن شاء الله يتحقق هذا بأداء الواجب، فإذا أدى كل فرد منا واجبه الذي يمكن أن يؤديه بالوسائل المتاحة، فكل منا يملك ٢٤ ساعة في اليوم، ويستطيع أن ينظم ويأخذ بعض الساعات، بل ساعة واحد فقط تخصص وتكرس من كل ٢٤ ساعة لدراسة نتاج فكري لمفكر عاش المأساة، وكتب ما وصل إليه، راجين الله أن يكون معنا في كل المواطن.

الحضارة الإسلامية في تداول الأيام والقرون[1]

الإسلام هو القيمة الكونية العليا لكن الحضارة هي كفاءة المسلمين التاريخية في تبليغ الإسلام ومن هنا لا بد من تحديد جوهر الحضارة

فعندما نقول ما معنى جوهر الحضارة؟ معناه أن الحضارة، كما حددتها في البداية، هي مجموعة الشروط المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يقدم الضمانات الاجتماعية لكل فرد فيه.فعندما أقول هذا فذلك يعني أن الحضارة وظيفة في جانبها

---

(١) هذه المحاضرة تبدو لنا على سبيل المقارنة بين ما ورد فيها والمحاضرة السابقة تكملة للمناقشة التي تمت في نهاية المحاضرة السابقة حول ما إذا كان الإسلام هو الحضارة - كما جاء في سلسلة إحدى المحاضرات طبقاً لرأي سيد قطب - أم الحضارة هي مستوى كفاءة المسلمين التاريخية. ومن ثم فيه شروط موضوعية وسنن كونية في تداول الأيام بين الناس كما جاء في القرآن الكريم. وقد نقلت هذه المحاضرة من تسجيل كان لدى أحد تلاميذ الأستاذ مالك رحمه الله، هو الأستاذ جودت سعيد وعلى كل حال فإن هذه المحاضرة تتضمن تفصيلاً لوقائع مسيرة الحضارة الإسلامية منذ القرن الثاني عشر، فضلاً عن الشروط الموضوعية لارتفاع المسلم إلى مستوى الحضارة في العصر الحديث؛ لذا فإن فيها الجواب على كثير مما هو اليوم مطروح حيال التجديد والمعاصرة، وأهمية الاندماج الروحي في حيوية البناء الجديد كما يسميه الأستاذ مالك فضلاً عن أن الإشارة إلى عام١٩٧٢ التي وردت على لسان الأستاذ مالك، والتي تسبق وفاته بعام، تمنح القارئ رؤية مالك بن نبي الأخيرة قبل وفاته حول وحدة المجال الحضاري التاريخي الذي يمثله العالم الإسلامي، كما شرح في كتابه **فكرة كمنولث إسلامي** إن هذا المجال من الوحدة الاجتماعية يتميّز بحبكة تاريخية أورثتها ثلاثة عشر قرناً، على المسلم أن يتخلص من عقدها في ظل الحضارة الغربية لينطلق في وضوح الرؤية وصفائها.[مسقاوي]

الإرادة الحضارية، الإمكان الحضاري. فالجانب المعنوي هو الإرادة الحضارية والجانب المادي هو الإمكان الحضاري، والذي يضيع في أوروبا اليوم هو جوهر الإرادة الحضارية بفعل تضاخم الإمكان الحضاري، وهكذا فإن الإرادة الحضارية تنسحب حين يطغى إمكان وفرة الإنتاج والتكنولوجيا أي الإمكان الحضاري كقوة تراكمية لغير خدمة الإنسان. فأوروبا حين تصل إلى المريخ ستفقد ما تحت أقدامها، لأنها ستصل إلى المريخ بعقمها وإمكانها الحضاري، لكن أقدامها ستظل معلقة في الهواء، هذا يعني أنه لم يعد هناك إنسان... لقد انتهى الإنسان.

وأضرب مثلاً [illegible] هب أن إنساناً سيتكون في بطن أمه، ويأتي للوجود، كائناً بشرياً مثلاً اسمه أحمد. فإن هذا الكائن سيوضع في احتمالين:

١. احتمال أن يأتي إلى الدنيا على محور واشنطن. موسكو. الآن يمتد إلى طوكيو.

٢. احتمال أن يأتي إلى الدنيا على محور طنجة. جاكرتا.

فعلى المحور الأول يدخل هذا المولود تحت قانون الإحصاء. فهو مثلاً في أمريكا متعلم بنسبة ٩٥٪، في فرنسا أكثر قليلاً، في ألمانيا أكثر، ١٩٠٪ الاتحاد السوفياتي إلى حد ما، في اليابان ١٠٠٪ نسبة العمل.

لكن لنتوقف عند الضمانات الاجتماعية: ١. التعليم ٢. العمل مثلاً ٨٥٪.

أما في المحور الثاني طنجة جاكرتا فإن هذا الطفل سوف يدخل في قانون إحصائية أخرى، إذ هنالك نسبة ٥٠٪ بطالة، و٦٠٪ في المتوسط جهلة أميون و٤٠٪ متعلمون.

فمنذ ولادة الطفل في الهند مثلاً تعطيه ٢٥٪ من الحظوظ ليكون هندياً منبوذاً.

هذه يا ابنتي قوانين وليست قصيدة. يجب أن نفهم ويجب أن يدخل هذا في عقولنا...

إذ لو أعطانا الله روحاً بشرية على المحور الأول فالمواهب ستتحقق فعلاً، لكن لو كان نصيبها على المحور الثاني فقد تتحقق، إنما في ظروف استثنائية نادرة، لأن هناك في الغالب ٦٠٪ أنها لا تتحقق.

هذا الواقع الاجتماعي، وهذه هي الحقائق التي تضرب برؤوسنا وعقولنا وتنطحنا. فالإسلام لم ينمح، بل المسلمون هم الذين انمحوا وهم إذا ما ضيعوا عليهم فرصة الثلث الأخير من القرن العشرين فقد فاتهم التاريخ، وهي فترة تقرير المصير بالنسبة للغرب وبالنسبة لنا وبالنسبة للشيوعية وبالنسبة للعالم أجمع، فالثلث الأخير من القرن هذا هو مصب التاريخ.

من هنا يجب أن يأخذ المسلم مسؤوليته في إعادة بناء المجتمع الإسلامي على أسس حضارية كي يستطيع أن يتكلم مع الآخرين.

فالمسلم اليوم من المنبوذين في هذا العالم، لأنه نبذ نفسه هو بأعماله، ولم ينبذه التاريخ.

إعادة الثقة بالذات كصاحب رسالة

والسؤال المطروح: كيف يبني المسلم نفسه على أسس حضارية؟

هذا ما أجيب عنه فيما بعد، إنما لا بد للمسلم أولاً أن يساهم في بناء مجتمعه كي يستطيع أن يتكلم مع الآخرين نِدّاً إلى نِدٍّ والمسلم اليوم لا يتكلم ندّاً إلى ندّاً بل يتكلم كإنسان منبوذ؛ لا يسمعه إلا بعض من وهبهم الله عقولاً كبيرة يستمعون إلى الفقراء، أما الآخرون فهم لا يستمعون للمسلم.

ثم إن على هذا المسلم أن يستمر في تبليغ دعوة عُطِّل تبليغها منذ سبعة قرون أو ثمانية قرون، عُطِّل هذا التبليغ وهو المسؤول عنه، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، ولكن الشهادة بأي شيء؟ إنها التبليغ - وإلا فكيف سنشهد على الناس إذا لم نبلغهم؟ كيف سنكون عليهم شهوداً؟ لا يمكن أن نكون شهوداً إذا لم يتحقق الشرط الأساس الذي يفرض الشروط الأخرى.

فحين نحقق الشرط الأساس يمكن أن تضاف إليه أشياء كثيرة. فإذا كان على المسلم

أن يبلغ الدعوة فكيف يكون له أن يبلغ دعوة وهو في مستوى دون البشر الذين يسعى لتبليغهم؟

إنه لا يستطيع ذلك. ولذا يجب أن نبني أولاً مجتمعاً يكون في مستوى عالمية الرسالة أولاً، ثم في مستوى البشر الذين نبلغهم.

فالإنسان لا يستطيع أن يروي أرضاً عطشى فوق مستوى الماء. لذا علينا أن نكون موضوعيين ونتكلم بكل بساطة. نتكلم بكلام العلم، فالعلم هو تفسير الأشياء، ومن هنا فحين نقول ذلك لا نضيق ولا نصعب الأشياء، إنما نضع الأمور في منطقها العلمي: فنحن لا نستطيع أن نروي الآخرين إن لم نكن، على الأقل، في مستواهم الاجتماعي. وإلا فكيف يتقبلون منا هداية وإرشاداً وعناية ونحن في نظرهم - وليس في نظرنا - أدنى منهم. إذن يجب أن نكون على الأقل في مستواهم. وهذا يتطلب منا إعادة بناء المجتمع الإسلامي على أساس أن ندخله في رياضة جديدة، بمعنى أن نعيد التفكير في وظيفته الأساسية، أن ندخله من جديد في مسيرة الحضارة. والقضية في هذا الإطار تتصل بمدى الكفاءة لا بمدى صحة الأفكار؛ فلو أنني كنت في الصين أو في الاتحاد السوفياتي أو في الغرب فماذا أقدم لهم نصيحة؟ إذا كان مجتمعاً متحضراً أقول له: احفظ حضارتك واحتفظ بها، فإن ضاعت عليك حضارتك ضاع عليك حظك في الحياة.

أما في المجتمع الإسلامي فأقول له: أعد بناء حضارتك، فالحضارة هي فاعلية الإرادة الحضارية في الإمكان الحضاري لتوفير الضمانات الاجتماعية.

والآن نتساءل ما الحضارة؟ أنا الآن في مجتمع مسلم، ويقضي علي الواجب أن أقول له: أعد بناء حضارتك.

فالمجتمع الذي يتمتع مثلاً بكيان سياسي دون كيان حضاري يكون وجوده خرافة من الخرافات وخيالاً من الخيالات، فهذا المجتمع قد يدوم ولكنه سوف ينهار؛ فالمجتمع المغولي في القرن السابع دام مثلاً سبعين سنة وانتهى دوره في التاريخ. لماذا لم يدم أكثر من هذا؟ لأنه ليس بمجتمع متحضر. كان مجتمعاً قوياً سياسياً، لقد دمر الطاغية

ما دمر، اجتاح العالم، خصوصاً العالم الإسلامي، لكنه هو نفسه تقوض حتى ابتلعته المجتمعات المتحضرة . المجتمع الإسلامي هو الذي ضربه وصيره إلى حد ما مدافعاً عن المصير الإسلامي وليس عن المصير المغولي؛ **فهولاكو الذي دمر عاصمة الخلافة (٦٥٦ - ٦٥٨)** سيكون ابنه من الذين يقفون في وجه الموجات الصليبية المتتابعة في ذلك العهد ومن ثم هو من صد أو أوقف عن المسلمين الموجات الاستعمارية، هو بالطبع وليس العرب. هذه حقائق يجب أن تقال ومن ثم يجب أن تعرف.

فالمجتمع المغولي لم يكن يستطيع بمعطياته الذاتية كمجتمع بدائي أن يكون متحضراً، فقد انطلق - وأي انطلاقة - على العالم الإسلامي والأوروبي وحطم ودمر بلاداً كثيرة، منها مملكة إسلامية ضخمة تسمى خوارزم، ومحمد شاه خوارزمي مات فقيراً، وأمه مسكينة ماتت تتسول. هذه القوة الهائلة التي دمرت العالم في القرون الوسطى امتصتها الحضارة بعد أن صمدت حوالي سبعين سنة، ونافست حضارات، منها الحضارة الإسلامية نفسها أو الشمالية أو الحضارة الغربية، وهذا معناه أن مصير الشعوب يرتبط بالمجتمع المتحضر.

على كل حال فأنا هنا لا أقدم الدليل عبر هذه المقارنة لتأكيد فكرتي حول مصير الأفراد والشعوب، وإنما أقدم مجرد توضيح، لأن الدليل شيء آخر. لكن مع ذلك يمكن أن يكون دليلاً مباشراً وسريعاً.

ففي هذا الإطار نستطيع أن نقدم مقياساً، هو إحصائية متوسط دخل الفرد السنوي الذي أصبح المقياس العام لقياس التقدم التقني.

فاليوم حينما يتكلمون عن مستوى التقدم في المجتمعات أو في السياسة أو في الدراسات الاجتماعية أو الاقتصادية فإن متوسط دخل الفرد السنوي هو المؤشر في العالم، وهو مؤشر صحيح.

فقد تناولت إحصائية ١٩٦٧ ، وتعمدت شيئاً خاصاً هو الاعتماد عليها، لأنها تتضمن إحصائية أصدرتها الأمم المتحدة، وفيها ورقة لكل بلد رقم لـ ١٤٨بلداً.

ففي عام ١٩٦٧ مثلاً كان متوسط دخل الفرد في أمريكا ٣٠٢٠دولار لأمريكا مقابل المتوسط الأدنى في السلسلة ٧٠ دولاراً لأندونيسيا أغنى بلاد الله.

فالرجل الاقتصادي يتذوق الأشياء في أبعاد أخرى، فإنه يتساءل لماذا تحقق أندونيسيا أغنى بلاد الله سبعين دولاراً لمتوسط دخل الفرد السنوي، وألمانيا فقيرة الموارد الطبيعية التي تمثل ١٠٪ تحقق ١٦٦٠ دولاراً؟ هنا لبس.

لذا نستعين بالأرقام هذه التي أحبها وقدمتها في حلقة من حلقاتي في الجزائر دليلاً ليروا أن ما أقدمه لهم ليس مجرد كلام، بل دليل. فإذا أخذنا الأرقام ووزعناها كان الرقم الوسيط ٥٢٠ دولاراً وهو متوسط الدخل الفردي السنوي لليونان.

والسؤال هو لماذا أسميه الوسيط؟ جوابي أن هذا الرقم هو الحد الأدنى لمجتمع يستطيع أن يحقق الضمانات الاجتماعية للفرد. بمعنى آخر إذا كان الرقم أقل من هذا فقد انتهت عند ذلك الضمانات الاجتماعية؛ لذا نسميه الوسيط.

ومن الغريب أننا حين نستعرض الأرقام في هذه السلسلة واحداً واحداً انطلاقاً من رقم ٥٢٠ فإننا نكون عند عتبة الصعود في التقدم أو الهبوط للتخلف.

وهنا فإن توزيع ١٤٧ رقماً، يشمل العالم، لا بد أن يكون على طرفي الصعود والهبوط فلا يقارن بـ ١٦٦٠ دولاراً لألمانيا مثلاً، وبجانبها ٧٠ دولاراً لإندونيسيا. فالأرقام لا توزع بهذه الطريقة، وهذا لم ينتبه إليه الاقتصاديون، فتوزيعها وفقاً لما أشرت يبدو على الخريطة توزيعاً غريباً إذ يصور لنا قارتين اقتصاديتين، هما القارة الشمالية والقارة الجنوبية. أي القارة التي تحقق فوق ٥٢٠ دولاراً، والقارة التي تحقق أدنى من ٥٢٠ دولاراً، ومنها الجزائر وسورية...إلخ.

في البحث عن الفرق بين القارة الشمالية والقارة الجنوبية في متوسط الدخل فربما قلنا تمشياً مع المبسطين أو المبالغين في التبسيط: وأجبنا، لأن المنطقة الشمالية مُصنَّعة.

ونتساءل ماذا يعني مصنَّعة؟ والجواب لأنها استغلت اكتشاف الطاقة، تلك التي اكتشفت في باريس في أواخر القرن الثامن عشر. ولكن ما الطاقة البخارية؟ هي

القليل من الماء يغلي على نار، وهذه الظاهرة معروفة في تاريخ الإنسانية منذ اكتشاف النار. لماذا لم يخطر على بال أحد أن هناك طاقة تستغل..لماذا؟

يجب أن نفكر هكذا وبهذا التسلسل. وعندما نفكر بهذه الطريقة فإن الطاقة البخارية ليست سوى حلقة من الحلقات في سلسلة معينة قبلها، لو كانت مفقودة عندنا في الجنوب لم يكن من الممكن اكتشاف الطاقة البخارية. فهذا الانقلاب لم يكن فجأة وليد يوم أو ليلة، أبداً لم يكن كذلك. بل كان نتيجة تتابع إنجازات الحضارات قبلها.

بداية تاريخ أوروبا عصر الأنوار والتداول بين الحضارات: يمهد لمستقبل الإسلام من جديد

فلكي نحدد نقطة معينة نقول: هذا الاكتشاف كان بداية التاريخ في أوروبة لتستعيد مسارها؛ ذلك أن التاريخ الحضاري في مرحلته الأولى في أوروبة قد انتهت عام ٤٥٠ مع سقوط روما، ثم عاد التاريخ لأوربة مرة أخرى؟ هذا السؤال لم يكن سهلاً. ولقد وقع فيه رجال محترمون جداً. ففي بعض المناسبات كنا في جماعة نتناقش مع روجيه غارودي، أظن سنة ١٩٤٧ فانتحى بي جانباً وأسر لي بشيء من الحياء، وقال لي: لماذا الحضارة الغربية مستمرة بينما الحضارة الإسلامية انتهت؟ أجبت السيد روجيه متعجباً: لماذا؟ لأن في ثقافة الغرب ثقباً ذا مساحة كبيرة تمر به دون أن تدري. ولذلك أنت تحكم هذا الحكم، فأنت منذ طفولتك تدرس وتلقن هذه الأشياء، إنك تدرس أن الحضارة ابتدأت في أثينا، واستمرت ستة قرون إلى أن وصلت إلى روما، وانتهت في القرن الخامس الميلادي، ثم عادت فابتدأت في باريس.

هكذا أنتم تتصورون الحضارة. لكنك لو وضعت هذا المقياس على محور التاريخ ترى أن الثغرة ما بين عام٤٥٠ إلى عام ١٤٥٣ هي تقريباً ألف سنة، يعني شيئاً يسمى تاريخ النهضة، أنتم تعتبرونه فراغاً في التاريخ، ولكنها هي بالضبط الحضارة الإسلامية، فلو عزلنا الحضارة الإسلامية أو الحضارات القديمة عن الحضارة الحديثة لا يمكن أن يكون لهذه الحضارة من أسس تقوم عليها كما هي تقوم الآن. إلا إذا كان يمكن أن تقوم الحضارة على العبث. استحى غارودي من سؤاله حين أجبته.

إذن القضية دورية، لذا نحن مطمئنون ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ [آل عمران٣/ ١٤٠] فالحضارة كانت على محورنا، ولكنها - ولأسباب يريدها الله - أضحت على المحور الآخر، وأنا أظن اليوم أن شعوب القارة الجنوبية ستعود إلى حضارتها، ولكن يجب أن تشعر هذه الشعوب أن عليها أن تقوم بدورها على الأقل لتعجيل حركة التداول، فعوضاً أن تبقى عشر سنوات فلتبق خمس سنوات. وإذا كانت تبقى عشرين سنة فعشر سنوات أفضل وهكذا. لا بد أن نضع لتصرفاتنا توقعات ومواعيد نقدرها من حساب الزمن لتحقيق أهدافنا الإسلامية، لكن إذا لم نحققها في حساب الزمن تبخرت. وهنا نتساءل هل يستطيع العالم الإسلامي تحقيق ما يتوقعه؟ أعني تحقيق توقعات الحقيقة الإسلامية بأن يصيرها حلولاً واقعية لقضاياه الداخلية وقضايا اتصالاته على حدوده ؟. من خلال هذه النقطة الاستفهامية تصبح القضية قضية فاعلية لا قضية حقيقة إسلامية. ومن هذه النقطة فالقضية ليست قضية مبادئ ومسلمات، بل قضية ترجمة أو تعبير عن هذه المبادئ أو تصيير هذه المبادئ، وهذه المسلمات حقائق اجتماعية، ومن هنا يجب أن نميز تمييزاً أساسياً بين الإسلام وبين العالم الإسلامي، وهذا التمييز يفرض علينا تمييزاً آخر. ففي الفرد المسلم نفسه نرى فيه من ناحية الرجل المؤمن، ومن ناحية أخرى الفرد الإنسان فقط. أعني التمييز بين شاهدي الملحمة الإنسانية وبين صانعيها. ففي التاريخ يجب أن يصير الجانب الروحاني واقعاً اجتماعياً، يجب أن تتحقق أمور في مستوى عالٍ تسوغ صلاحية الحقيقة في جانبها العملي، أما إذا تمسكنا بالحقيقة على أنها حقيقة ونضعها في صندوق المجوهرات فإنها لا تنفعنا.

واجب الدخول في المعركة الاجتماعية الحضارية

فالمسلمون اليوم معرضون للتلف ليس لتقصيرهم في العبادات، أقول لكم الواقع، إنهم معرضون للتلف إذا لم يدخلوا المعركة الاجتماعية الحضارية، فأنا أخشى عليهم أولاً تفجر وسطهم الاجتماعي، ومحيطهم الاجتماعي العام الطبيعي، إذ إن مجتمعهم نفسه سيتمرد عليهم لاحقاً، وهذا ما يحدث بسبب القيادة الدينية. فالشباب في حالة تمرد على القيم المسلكية الإسلامية؛ إذ كلما تقدم إليها إنسان فإنها

تكتفي بما تحدثه عن الواجبات الدينية. وهنا يتقدم أسلوب الشيطان لدى الشباب، فيقولون بماذا تنفعنا الواجبات الدينية إذا كان العالم الإسلامي متخلفاً جاهلاً؟

هذا هو منطق أعداء الإسلام ونحن اليوم وفي هذه السنة ١٩٧٢ في الثلث الأخير من القرن العشرين مرحلة هامة وخطيرة: فإما أن يجري تصفية حساب كل الأديان جميعاً، وإما أن تصفى الأديان ويبقى الإسلام وحده، وهنا فإن على المسلمين أن يقوموا بدورهم في نهاية القرن العشرين. فذلك ما تتطلبه الظروف لا رغباتنا. فرغباتنا تريد الخير ونفوسنا تريد الخير إن شاء الله. ولكن هذا لا يكفي. فنفوسنا الإسلامية جبلت على الخير بطبيعتها، لكن هذا لا يكفي إن لم يكن لهذه النفوس وظيفة اجتماعية يتحقق الخير عبرها. نعم هناك خير واقعي. وهناك الإسلام أيضاً. إنما الإسلام حجة لأعداء الإسلام؛ سواء كانوا أعداء الإسلام في الداخل الذين هم قتلة هذا الشباب المتمرد اليوم، أو أعداء الإسلام في الخارج. فيجب في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين أن يتركز الجهد على رفع المسلم إلى مستوى الحضارة. فإذا رفع المسلم نفسه إلى مستوى الحضارة يستطيع عندئذٍ أن يحقق وعد الله.ووعد الله لا حاجة له بمساعدة المسلم في تحقيقه، ولكن يجب على المسلم المساهمة فيما وعد الله المسلمين والعالم والرسول قبل كل شيء في قوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٩ / ٣٣] فنحن ندرس هذه القضية الدراسة العلمية، ولكني أراكم تستعجلون أحياناً. وفي منطق العلم يلزمنا درس هذه القضية.. كيف يتحقق هذا الوعد؟

يتحقق وعد الله بشرط أولي هو الارتفاع إلى مستوى الحضارة، لكن أجيب على السؤال بوجهين فأقول: يتحقق وعد الله بشرطين: الوجه الأول وهو الأقرب؛ أن يعيد لنفسه الكرامة أمام من حوله وفي نظر الآخرين؛ لأن المسلم مهانة كرامته فرداً كان أم مواطناً عالمياً ...والمسلم الآن يمشي على أرض المهانة بحيث يحتقره أحياناً أخوه المسلم، وأحياناً يحتقره الأجنبي عدو الإسلام، لذا يجب أن يرتفع المسلم إلى مستوى الحضارة.والوجه الثاني أن يسلك جوهر الحضارة.

من هنا فقضية العالم الإسلامي اليوم لا بد أن تكون واضحة في زمن التذبذب وتشتت الأفكار .

إن جهودنا من ناحية أخرى لا بد أن تتركز في نقطة واحدة، نقطة تكون القطب الذي يستقطب مجهوداتنا بوضوح الرؤية والهدف. فإذا تخلف موقفنا اليوم عن تحديده لضعف في تصوره فقد يقرره بدون استئذان واقع الإنسانية، واقع التاريخ الإنساني، ذلك أن مصير الأفراد يكيفه المجتمع ويكونه، وهذا الإطار هو الذي يحدد مصير الفرد، ولذا ليس من فرد يستطيع أن يكون خارج المجتمع ويكون نفسه.

من الخطأ أن نتجاهل هذه الحقيقة فتقضي على مسلماتنا في اعتقاد خاطئ هو أن الإنسان يحقق مواهبه وحده بقدر ما لديه مواهب بعيداً عن المجتمع الذي يعيش فيه.

الحضارة الإسلامية توقف إنتاجها الثقافي في القرن الثاني عشر، لكن انهيارها تأجل تاريخياً حينما حل العنصر العسكري محل اللون الثقافي لمواجهة تحديات الخارج في قانون تداول الحضارات وتواصل الثقافات.

إننا إذا استقرأنا تاريخ الحضارة الإسلامية ومسارها نستطيع أن نؤسس لحقيقة رؤيتنا في عالمنا الحاضر. ففي القرن الثاني عشر كان تبدل وتغير في لون الحضارة عما قبله؛ إذ تغير اللون الثقافي ليحل محله العنصر العسكري، والعنصر العسكري كانت تقتضيه المرحلة التاريخية التي كانت تواجه تحديات كبيرة.

فالقرن الثاني عشر بدأ فيه الطابع العسكري يحل محل العنصر الثقافي، وسوف يظل كذلك إلى عام ١٩١٨ عام سقوط الدولة العثمانية.في هذه المرحلة الطويلة كان العنصر العسكري السلجوقي ثم التركي والعثماني؛ لأن المرحلة التاريخية كانت تقتضي ذلك تجاه تحديات خارجية، ولأن الجسم الإسلامي بدأ يصيبه الإجهاد وضيق النفس.

وهذا التحول كانت تمليه أسباب داخلية وأسباب خارجية.

فالجسم الإسلامي أصابه هزال وتعب خلال ستة قرون من الشحن الفكري

والكثافة الفكرية، ثم الوافر من العقائد، والوفرة المادية الحضارية. هكذا بدأت المخاطر الخارجية تتأهب لتسقط الحضارة الإسلامية. غير أن العنصر التركي أجل ذلك؛ وهنا ينبغي أن ننصف الأتراك إذ لو لم يظهر الأتراك في القرن الخامس عشر لأُخذ العالم الإسلامي وأبيد وأزيل من الخريطة.لولا الأتراك، وأختار في ذلك من ألف مثال مثالين فقط للبرهنة على هذا. فالجزائر احتلت عام ١٥٠٠. طبعاً المسلمون العرب ضيعوا الأندلس ولم يكن الأتراك قد أتوا حتى عام ١٤٩٢ عام سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس الذي كان بإمارة أبي عبد الله الذي قالت له أمه:

ابك مثل النساء ملكاً مُضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال

في ثماني سنوات بعد ذلك وصل الإسبان إلى الجزائر واحتلوا الجزائر ووصل إليه كارلوس الخامس، ولم يكن الأتراك قد أتوا.

لكن الأتراك برغبة وطلب من الدولة الحفصية الجزائرية أتوا الجزائر. لم تكن الجزائر ذلك الزمن معروفة كما هي في جغرافيتها اليوم، لأن بعضها كان تابعاً لتونس حسب تقلب الدول وتماوجها تاريخياً، إذ إن دولة بني مرين كانت هناك في الجزائر، ثم أتى الموحدون، فوحدوا كل شيء... إلخ.

هكذا أتى **عروج وخيرالدين بارباروس** وهما تركيان كان لهما من البسالة والشجاعة ما فرضا به نفسيهما على البحر الأبيض فأتيا، ولحقت بهما بعد ذلك الدولة العثمانية التي لبت النجدة، وأرسلت قواتها. وهؤلاء هم الذين طردوا الإسبان، ورسخوا نفوذهم عندما ماتت الجزائر وظلت هناك في حرب ثلاثين عاماً بين الجزائر وإسبانية، ولولا الأتراك لاحتلت إسبانية الجزائر وكان كل شيء مهيأ لهم.

لنذكر الرسالة التي بعث بها القنصل الإسباني إلى ملكه: «جلالة الملك، كل الأمور هنا مهيأة، وكأن القدر هيأها لك» وهذه هي القابلية للاستعمار.

اليوم حين يكون الوضع الاجتماعي والنفسي مفككاً حين لا يكون هنالك مستقبل فذلك يسمى في الفيزياء الفراغ الذي ينادي لملئه.

مثال آخر احتلال فلسطين. كان مقرراً أن تحتل فلسطين عام ١٨٨٠ حين أتى **تيودور هرتزل** معززاً ومجهزاً برساميل كما كان يقال. كانت رؤوس أموال باهظة تعرض على السلطان عبد الحميد كي يدفع عنه الضريبة الخارجية للدولة العثمانية - وكانت تقدر بملايين - مقابل شيء واحد هو الأذن له بشراء الأراضي، وأعطاه مهلة ليفكر بالأمر. قال له جمال الدين: إنهم يفكرون بإقامة دولة إسرائيل هنا. قال السلطان عبدالحميد: أنا مستعد أن يباع ملكي ولا أبيع أرض المسلمين. وأصدر فرماناً يمنع إقامة الحجاج اليهود أكثر من شهر في فلسطين لئلا تكون وسيلة للهجرة. ويكتب مفكر يهودي فيقول: "كان هرتزل يعتبر السلطان عبد الحميد غبياً، ثم أدرك بعد ذلك فطنة السلطان عبدالحميد، فقال: كان يمكن أن يتم ذلك دون معارضة عام ١٨٨٠م. لكن موقف السلطان أجل ذلك إلى أن قام العرب بطرد العثمانيين، بما سمي الثورة العربية الكبرى» والتي نؤرخ لها بأنها بداية النهضة، في الوقت الذي كانت بداية النكسة، بل هي فصل من فصول النكسة، لأننا نحن العرب خربنا بيوتنا بأيدينا.

إذن هذا هو مجرد إشارة تاريخية، أضعها بين قوسين، فتحته عن قصد لكي أعود إلى موضوعنا؛ وهو تداول مسيرة الحضارات ونهاية الحضارة الغربية واستقبال حضارة جديدة.

فابن خلدون كتب عام ١٤٠٦ في مقدمته يلخص الحضارة حين كانت قوى هذه الحضارة والثقافة الإسلامية تنتصب في ذهنه، يقول في مقدمته: «لقد كتب علي أن أكون مؤرخ اثنتين» بمعنى أؤرخ النهضة الإسلامية أولاً ثم حين أفلست كلها في النهاية. وهكذا يتحدث عن الدول ويستخلص قانون تعاقب الدول، إذ إن الدولة تنشأ في البدو أولاً، ثم تأتي الحضارة فتتراخى وتنمو، ثم تضعف قواها، وتحتاج إلى عنصر عسكري أجنبي فتتقوى به، ثم ينقضون عليها ويشكلون دولة أخرى...إلخ. فهو يقول: كل دولة ترسل قبل أن تزول إشعاعاً، يظن أنه إشعاع، لكنه انطفاء، فإذا

رأينا ابن خلدون نشعر بأن الحضارة في أوجها، وهذا صحيح إنها في أوجها، ونحسب أن لها مستقبلاً، ولكن الحقيقة أن ابن خلدون آخر شاهد لها، جاء يكتبها قبل أن تنقرض وقبل أن تموت، وبعد ذلك ينخفض مستوى الأدب ويتجه إلى ركاكة الشعر والكتابة.

الحضارة تشرق بحضورها التاريخي في وحدة المجال الجغرافي، وتغرب في أفق هذا المجال، لتشرق في مكان آخر، وهذا هو مفهوم المجال الجغرافي للحضارة ووحدة مشكلاته.

الآن أطوي الصفحة وأرى العرب المسلمين، لا أريد أن أضم المسلمين بعنوان الحضارة العربية فالحضارة العربية هي حضارة اللغة فقط، لأن الذين أقاموا الحضارة العربية بحكم السكان أولاً وبحكم الديمغرافية؛ كان المسلمون غير العرب فيهم أكثر من العرب، سيكون منهم (ابن طفيل - الفارابي - ابن سينا... إلخ).

كل هؤلاء ليسوا عرباً باستثناء الكندي فهو عربي، كما أنّ كل العلماء والمحدثين (البخاري - مسلم - الترمذي - الخوارزمي - الطبري) كل هؤلاء من وراء النهر. فحين نقول حضارة عربية فلأن المسلمين تبنوا اللغة العربية لغة لهم، وعبروا بها، ولكنها ليست عربية في الجنس، بل هي إسلامية الروح.

إذن كيف انسحبت هذه الأسماء الإسلامية، ولم يبق إلا العنصر العسكري ليفرض الدولة العثمانية في القرن السادس عشر على زمن سليمان العادل القانوني؟ وبقي هنالك عنصر عسكري فقط دون ما إشعاع ثقافي، وذلك ليبدأ هذا الإشعاع في منطقة أخرى مع نيوتن وسواه، ثم بعد ذلك يأتي (ديكارت وباسكال وفولتير وروسو..إلخ) أسماء كلها أجنبية وتبرز عبقريات كلها أوروبية في الرقعة نفسها من القارة الأوروبية.

ثم فلو فعلنا مثل هذا من قبل، وأسقطنا الأسماء ابن سينا . الفارابي..إلخ على المساحة الجغرافية نرى أنها جميعها في رقعة واحدة من الأرض جامعة لجهودهم ؟

ثم إذا تساءلنا ونحن نحلل المشهد في إسقاط الأسماء في الرقعة الأوروبية كما في رقعة الحضارة العربية لماذا لا نجد في القرن العاشر أو الثالث عشر مفكراً أجنبياً في فرنسا أو نابغة فرنسياً؟ لماذا لا ينبغ ألماني؟ لماذا كل هذه القافلة من الفلاسفة (كانت . ماركس . هيجل . نيتشه) التي بدأت تبرز في قرن ولم تبرز مدة قرون من قبل؟

ثم إن حركة الإصلاح وحركة النهضة بدأت منذ ذلك التاريخ تسيطر على المسار. ونرى هذه الأسماء كلها في البقعة الجغرافية نفسها في شمال أوروبة بالإضافة إلى أمريكا وبعض الجزر في جنوب أفريقيا وغيرها فما معنى هذا كله؟

من هنا يتبين لنا أنه لو كان الإسلام هو سبب تخلفنا، أو نقول: نحن المسلمين متخلفون فكأننا نقيم علاقة سببية بين الإسلام وتخلف المسلمين، وأن هؤلاء متخلفون لأنهم مسلمون. فنحن حين نقول: إن الهنود متخلفون يعني توجد علاقة بين صفة الهندية والتخلف، لكن في القاموس العالمي لا نقول: دول متخلفة، بل دول نامية.

اعتراف غربي متأخر بأن الحضارة الإسلامية ساهمت في تأسيس مسيرة العلم التجريبي في الحضارة الغربية وتخلفنا هو نتيجة استقالتنا نحن المسلمين من حركة التاريخ.

لو كان الإسلام سبب تخلفنا لما كان ذلك الإشعاع الذي أخذ يتكاثر لدى الغربيين في السنوات الخمس الأخيرة. إذ صدر حوالي عشرة كتب لسد هذه الفجوة التاريخية بالنسبة للغرب. ففي كتاب يسمى (التاريخ العالمي) في جزأين، ولأول مرة في سلسلة العقليات -وهي سلسلة محترمة جداً- لأول مرة يصبح الإسلام معلماً في مراجع أكاديمية غربية.

كنا من قبل مثلاً ندرس الحقوق عبر القانون الروماني من فوق القرون، ثم نأتي إلى قرون العصور الأوروبية وهي ليست القرون الأولى بل القرن الخامس عشر فقد تسأل يا سيدي: ماذا حدث بين القرن الخامس والقرن الخامس عشر؟ هل كان فيه فراغ

هل كانت فيه فجوة؟ لماذا كتبكم لا تغطي هذه الفجوة؟ ماذا كان؟ هل التاريخ توقف؟ لا، التاريخ لم يتوقف. لقد توقف هناك، وانتقل إلى رقعة أخرى من الأرض، تعطلت ثقافة هناك ونشأت ثقافة في رقعة أخرى من الأرض، وصنعت تاريخاً آخر.

والآن فهذا الكتاب يستعيد لأول مرة الإسلام كجزء في التاريخ العالمي، بحيث يصبح من المسببات، ويصبح ما يسمى السبب الملازم والحلقة المفقودة، لأنهم يقولون: إنهم لم يثبتوا النسب التام، لكن هناك القلب والإنسان. حلقات مفقودة لم يستطيعوا إثباتها. فالحلقة المفقودة هي ثمانية قرون كانت هي الحضارة الإسلامية المفقودة في التاريخ، ولأول مرة يصبح الإسلام معلماً تاريخياً وحده.

والإسلام ليس سبب تخلفنا، لأنه منذ سنوات خمس فقط صدر حوالي عشرين كتاباً بعنوان أو بمثل هذا العنوان (الازدهار والنمو والتنمية) مع اختلاف في الانتشار.إذن الإسلام ليس سبب التخلف كما لا نقول بأن الأوروبيين هم متقدمون لشعورهم العنصري بتفوقهم. ثم نضيف أن النظرية العرقية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر هي السبب، أي أن الأوروبيين وفق نظرية **رينان** يرون أن العرب ليسوا بشراً. والساميون (النظرية السامية) يرون أن الإسلاميين لا يمكن أن يفكروا، لأن لديهم قصوراً عقلياً .

فاعتقاد الغربيين بتفوقهم العنصري نضعه في حدود شعورهم بقوتهم دون أن يؤثر في حكمنا الموضوعي.

فنحن نرى هنا تداولاً تاريخياً؛ تداول ثقافات. والثقافة الإسلامية حكمت وسيطرت على العالم مدة سبعة قرون. ونرى الثقافة الغربية تسيطر منذ خمسة قرون فقط، ولكننا نضيق بها، لأننا نشعر بضغطها ووطأتها.

الثقافة الإسلامية انتشرت بسرعة، وماتت ببطء في القرن الخامس عشر

ويلاحظ أن الثقافة الإسلامية نشأت بسرعة. وانتشرت بسرعة أيضاً، ثم ماتت ببطء، لقد ماتت في القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر قرن الاستعمار.

لكنها بقيت مؤسسة سياسية بوصفها خلافة إلى نهاية القرن التاسع عشر، بل إلى عام ١٩٢٤ حين ألغاها أتاتورك، وهي آخر كيان وممثل مجسد لهذا الكيان المريض.

كان يسمى بالرجل المريض، بينما الثقافات الأخرى كانت بطيئة، وخاصة الحضارة اليونانية كانت بطيئة النمو وسريعة الانفكاك والتفتت، وكذلك الثقافة الغربية والفكر المسيحي الذي كان شريكاً، لا نقول تماماً، لكنه عامل مكون لهذه الحضارة، بدون الثقافة المسيحية ضعفاً ما كانت أوروبة تكتسب هذه القفزة التي اكتسبتها لولا شارلمان الذي وحد أوروبة. ولولا المسيحية التي أنشأت صرحاً موضوعياً للحضارة.

العلم حقيقة محايدة، والأخلاق تحدد وظيفته

وهنا آتي إلى مشكلة العلم. فالعلم أمر لا شك فيه وخاصة العلم التجريبي. والبشرية عاشت على العلوم النظرية التأملية مئات السنين. ولم تصنع وتحول العالم مثل ما تحول منذ أربعة قرون في عصر من العصور. فاليوم يتحقق من النمو والتقدم ما لم يتحقق خلال آلاف القرون، لأن المنهج كان مفتقداً، المنهج التجريبي وليس البحث العلمي .

والعلم أولاً هو اكتشاف قوانين موجودة، وأما اكتشاف سنن الكون وتسخيرها لهذه القوانين وتفسير هذه السنن وفق التعبير القرآني فقد أُلقي عبؤه على الإنسان.

ومن هنا كان اكتشاف العلم التجريبي الذي نتج في الثقافة الإسلامية، وهذا الأمر يؤكده الآن الغربيون ويعترفون بأن الثقافة الإسلامية هي التي أنتجت المنهج التجريبي.. فإذا نحن لم نستطع أن نعود لكتبنا لنفهم بعقولنا بأن هذه هي بذور المنهج التجريبي، إن لم نر المنهج التجريبي بوضوح وهو أكثر من بذور، فذلك لأن إدراكنا للمنهج كان معطلاً مع سائر ما ورثناه من حضارتنا؛ فالمنهج التجريبي هو الذي حول التأمل من تأمل مجرد إلى صنيعة، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية٤٥/ ١٣]. وهكذا بدأ ينظر ويجرب في الطب كما في كل الميادين.

فهذا العلم بدون منازع هو الذي أنشأ هذا التقدم، ولكن هل هذا التقدم قادر على أن يحمي نفسه؟ هل العلم قادر على أن يحمي الحضارة؟ أبداً هو غير قادر لأن العلم استطاع كما قرأت بالأمس في إحدى الصحف أن يجعل الأجهزة الإلكترونية أو الدماغ الإلكتروني يخرج مليوناً ومليار عملية تستدعي ملايين السنين، والإنسان لا يستطيع أن يقوم بها، لأن العقل الإنساني ليس آلة، فالإنسان لا يستطيع أن يكون آلة فقط، لأن الإنسان لا يمكن أن يحصر عقله بعلم وضعي وحده، بل لابد من علم كوني أيضاً، لأنه يحتاج إلى أمور أخرى: فنحن اليوم نرى الحضارة اليونانية قد ماتت ولكن متى ماتت؟ إنها ماتت حين بلغت أوج علمها. والحضارة الإسلامية ماتت كذلك حين استكملت علومها، لذا فالحضارة الغربية ستموت وهي في الطريق بعد أن استكملت وفتحت كل الآفاق؛ وأذكر بعض النماذج هذا الفكر فقط.

ففي أمريكا الآن صدر منذ سنتين دراسة لأكبر صحفي أوروبي هو ريمون كارتيل صاحب مجلة باري ماتش، وهي من أنصار الغرب وفي هذه الجريدة إحصائيات. والأمريكان أقوياء في الإحصائيات. ففي سنة واحدة هناك (٣٩٤٠٠٠٠) ثلاثة ملايين وتسع مئة وأربعون ألف جناية وجريمة، وهناك نماذج تذكر أن المرأة لا يمكنها أن تمشي في عدة أحياء في نيويورك، وعدة أحياء لا يمكن أن يمشي بها الرجال أيضاً غير مسلحين، كما لا يمكن في العمارات ذات الطوابق الستين أن يخرج أحد بغير سلاح، لأن الآلاف يقتلون في المصاعد. هل هذه ظاهرة سليمة؟ هؤلاء يموتون بماذا؟ إنهم يموتون بالعلم، جميعهم لديهم رصيد علمي متقدم.

الظاهرة الثانية أنه ما من ثانوية في أمريكا لم يجرب شبابها المخدرات، وكذلك في الجامعات هذه الظاهرة بادية للعيان، يراها المرء بسهولة، في ساحة أمستردام ترى ألف طالب وطالبة وكلهم غني متخرج في جامعات في الشوارع يرقدون.. وفي فيلم آخر عن أمريكا ترى واحدة من الجلسات العمومية للتحليل النفسي. وفي الساحات العمومية يأتي شخص ويقول: أنا مريض نفسياً وبحاجة إلى محلل نفسي. وهكذا ترى المحلِّلين والمحَلَّلين جميعهم مرضى.

أنا طرحت السؤال الذي طرحه محمد عبده حين ذهب إلى أوروبة، فقد سألت حوالي مئة مؤلف وصحفي من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، ومنهم رئيس مركز الدراسات الماركسية في الحزب الشيوعي سابقاً، ومنهم قسيسون أيضاً " ما وضع حضارتكم الآن؟» والله حصلت على مئات الأجوبة لكن هذا واحد منها: " إن وضعنا اليوم يتساقط من الطابق الخامس فيصل إلى الطابق الرابع، فيقول: المهم أنني لا أزال باقٍ في الهواء، ثم من الطابق الرابع إلى الثالث، فيقول: المهم أني لاأزال في الهواء. هكذا المشكلة أنه سائر إلى حتفه، لأنه سيصطدم بالأرض فوضعه هو هذا. والله لقد سألت شوارع باريس ودهاليز المترو، وكان الجواب يخرج من أعماق الفرد الفرنسي والألماني أنه يبحث عن مصير له.

ثم إنك ترى أكبر مفكر أوروبيّ **أندريه مالرو** في كتابه (الأشجار تسقط) يقول معلقاً على أزمة ١٩٦١-١٩٦٨ الأزمة الطلابية: إنهم طلاب وأفراد من المجتمع مرضى، ويجب أن يستقط عليهم وهم في طريقهم إليه، لأنهم شباب وهم أقدر في التعبير عنه. لكن **مالرو** يوم قامت هذه الثورة قبل أن يصدر أي جريدة فرنسية أو أوروبية قال: أزمة حضارة، وبعضهم استنكر، وقال: هذا ليس ضرورياً، لكن بعد كل شيء يتغير، هذه أزمة شباب، أزمة حضارية. ذلك أنه لا يمكن لأي حضارة أن تستغني عن بعد غيبي متعال Transcandances أي تؤمن بشيء سواء كان صحيحاً أو غير صحيح. ليست مشكلة أو قضية هنا، ولكن تؤمن بشيء يتعالى عليها ويتفوق حتى أنك تموت من أجله.

لكن أوربة لم تعد تؤمن بشيء ومن هنا كان الانهيار، ويبدأ أولاً بانهيار نفسي.

القيم القصوى Transcandances طاقة الدخول في التاريخ وهي ليست الحقيقة التي يثبت المختبر صحتها.

لا يمكن لأية حضارة أن تستغني عن قيم قصوى، والقيم القصوى ليست هي الحقيقة العليا. فالمشكلة ليست أن تستغني عن الحضارة الغربية معيار الصحة والحقيقة

كقيمة عليا، وعبرها نحدد قيمة الصحة، هل هي أصح من الإسلام أو من كذا من القيم...إلخ. أم لا؟ القيمة القصوى ليست هذه هي القيم العليا، فما معنى هذا؟

حين يقول **مالرو**: القيم القصوى هي غير القيم العليا، فذلك يعني أن القيم العليا يلخصها المختبر، أي أن نقول ونقيم الدليل هل الإسلام أصح من البوذية أو البوذية أصح من الماركسية.. الماركسية أصح من ...إلخ. فالنظر العقلي والامتحان العلمي أو الفحص العلمي هو الذي يتعلق بمدى ترابط الفكرة ومدى منطقيتها الداخلية، لكن التاريخ لا ينظر إلى هذا. التاريخ يقول: القيم القصوى هي القيم التي ترتبط ببشر يؤمنون بها سواء كانت خاطئة أو غير خاطئة؛ فالمشكلة ليست هنا، المهم هي الفكرة التي **يؤمن بها بشر، ويتقمصونها ويحولونها إلى واقع**.

فهناك كثير من العلماء الغربيين يحكمون على الماركسية بأنها غير معقولة وليست علمية، ولكن هذه هي الماركسية أصبحت قيمة قصوى بالنسبة لمجموعة كبيرة من الناس، آمنوا بها إيماناً متعالياً، وضحوا في سبيلها، وبعدها انتقلت إلى تاريخ.

فالتاريخ ليس مقبرة الحقائق الصحيحة والقيم الصحيحة، لكنه معرض القيم القصوىTranscandances .

ما الحضارة اليونانية؟ وعلى أي فكر بُنيت؟ إنها مبنية على فكرة لا تستقيم علماً ولا عقلاً، لكن هناك أناساً آمنوا بها كثقافة، وكذلك كل الثقافات التي صنعها التاريخ. الحضارة المصرية والحضارة الصينية هذه كلها ثقافات آمن الناس بها، فالأفكار حين تنتقل إلى الناس تصبح قوى مادية، أي تصبح تاريخاً. إذن الآن **مالرو** حين يقول: "الحضارة لا يمكن أن تستغني عن القيم القصوى" فهناك ناس يناضلون في سبيل الفيزياء وناس يعنون بالرياضيات ويناضلون في سبيل الرياضيات. هناك جمعية النضال من أجل الرياضيات العليا، هذه حقائق كونية وحقائق تكنيكية، لكن الناس يموتون أيضاً لأوهام بوذا...الخ. إنها أفكار يؤمنون بها؛ صحيحة كانت أو غير صحيحة، ليست هذه هي المشكلة، ربي هو الذي يحاسب على صحتها، ولكن هنا

فالتاريخ لا يمتحن، والقرآن الكريم يشير إلى هذا حين يقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود ١١/ ١٥] وهؤلاء الذين يقولون عنهم نُوَفِّ إليهم أعمالهم وهم فيها لا يبخسون، هؤلاء ليسوا المؤمنين، لأن الآية الأخرى تتحدث عن المؤمنين. ذلك أن ربي زود الكون بسنن، وربي لا يغير القوانين من وقت لآخر. وفي كل حكمته، إذ حكمته شاءت أن تكون هذه قوانين البشر جميعاً. فالحضارات لا تموت إلا حين تفقد مبرراتها، إنها لا تموت لنقصان البنيان العلمي. فالبنيان العلمي الآن ثقيل على الغرب، ولا يمكن لأي عالم فيزياء أن يحيط بما كتب في الفيزياء منذ عشر سنوات. ولا يمكن لأي واحد يعيش مجد مادته وميدانه.. فالآن الركام العلمي ثقيل تنوء به الحضارة الأوروبية، لكنها ستموت وتدفن تحت الركام بسبب موت المبررات، أي إرادة الحياة.

فهناك في أوربة لا يؤمنون بشيء، ويدعون تهاوي المطلقات، ثم إن العلم لا يحل الكثير من المشكلات، فالعلم يكشف لنا إذا أردنا أن نحطم شيئاً كالذرة.. القنبلة الذرية الطاقة الذرية، فالعلم يسخر لنا، ويجيب على سؤال كيف تفجر الذرة، فالآن نحن عرفنا قوانين الذرة، ثم الغائبة للذي يتكلم عن غائبة استخدام الطاقة الذرية، ذلك أنه ممكن أن نستعملها في تفجير الجبال، أو نحطم بها هيروشيما وناغازاكي. العالم يعلم، ولكن من الذي يحدد الغاية من هذا العلم (الكيمياء البيولوجية)؟ فهناك كتاب أصدره عالم بيولوجي فرنسي يثير مخاوف عالم الحياة البيولوجي وهي الآن خطيرة، لأنها يمكن أن تنشئ مجموعة من علماء الحياة يعاقبون من شاؤوا، يقولون لك: أنت تكوينك العقلي غير صالح، وتكوينك الجيني أو الكروموزون أو تراثك الوراثي ليس غنياً، ولن تستفيد منه البشرية أنه غير صالح إلخ، يمكن أن يصنعوا كل شيء. من الذي يقول بأنه يجوز أولا يجوز؟ **أوبنهايمر** الذي اخترع القنبلة النووية حين صنعها قال له السياسيون: شكراً لك انتهت مهمتك، بعد أن علمهم كيف يفجرونها، لكن من الذي يفجر؟ السياسيون والعقائديون، روزفلت وترومان وغيرهم. قرروا على ضوء أي شيء؟ إنهم قرروا من نظريات وعقائد ليست علمية،

على ضوء الهوى، أرادوا أن يسقطوها على هيروشيما وناغازاكي. إذن العلم يحتاج إلى حماية من نوع آخر هي حماية خلقية عقائدية، وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد ٥٧/ ٢٥] فالفولاذ نصنع منه الدبابات، نحطم به الناس، وممكن أن نصنع منه أموراً أخرى تنفع البشر.

فالعلم قيمة حيادية. العلم هو التعرف على قوانين موجودة في الكون فقط، ولكن هل تسخر هذه القوانين لصالح البشر؟. البندقية يمكن أن أقتل بها، أو أن أحمي بها الأمن والعلم من هذا النوع، هذا بالإضافة إلى أن البنية التقنية لا يمكن أن تحشر في العقل الإنساني لأنه ليس عقلاً الكترونياً نحشر فيه المعادلات..

. بنيتنا الإنسانية صنعت بحيث تحتاج إلى كل شيء. إنها تؤمن بالغيب. إذ البشر يؤمنون بالغيب بأي غيب منذ آلاف السنين. فحيث لم تعلم فكرة الله أوجده البشر، وأوجدوا بديلاً عنها، لأن النفسية الإنسانية تتعلق وتتطلب إيماناً بالغيب.

واليوم الماركسية في الحقيقة هي في البداية ولكن حين يقف بودغورني وبريجنيف أمام مقر لينين بخشوع وسكون عدة دقائق، فما معناه وأنتم ماديون لا تؤمنون بأن هناك صلة روحية معنوية؟ وأي شيء؟

الحضارة تلاشت وانتهت.

فالإسلام ثقافة أتت، ومستقبل العالم ينتظرها من جديد.. علينا أن نفهم.

المحاضرة الثانية
الثقافة والأزمة الثقافية

ألقاها الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي
في جامعة دمشق في آذار ١٩٧٢

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

والصلاة والسلام على خير المرسلين

أتوجه أولاً بجزيل الشكر للهيئة المشرفة على الجامعة: السيد مدير الجامعة وأخي عميد كلية الشريعة الدكتور عبد الرحمن الصابوني اللذين أتاحا لي هذه اللحظات الثمينة حين أفسحا لي المجال لكي أتحدث عن مشكلة الثقافة.

إنني أذكر، ولعل بعض المستمعين يذكرون معي، أن مائدة مستديرة عقدت في دمشق بعد أحداث حزيران ١٩٦٧ لتدرس أسباب الأزمة التي واجهتها الأمة العربية بأجمعها وعاشتها.

لقد ساهم في هذه المائدة صديق لي من فرنسة هو السيد جاك الذي نشر خلاصة مناقشات هذه المائدة في مجلة تصدر في باريس تحت عنوان (أزمة حزيران كانت أزمة ثقافية).

ولعلنا من خلال هذا العنوان نستطيع أن ندلف إلى موضوعنا (مشكلة الثقافة). فأزمة حزيران ١٩٦٧ هي ككل أزمة وليدة فكرة ذات تطبيق اجتماعي. والأزمة في هذا الإطار تنشأ من إحدى ناحيتين: إما من سوء إدراك للمفهوم، وإما من خلل في التطبيق.

ومن هذين الافتراضين سوف ندخل إلى موضوعنا.

فهل هناك خطأ في إدراك المفهوم؟ أم أنه خطأ في التطبيق؟

إن هذا ما يعنينا.

فالاجتماع الأول يدعونا لأن نطرح السؤال: ما الثقافة؟

ولقد عرض هذا السؤال نفسه على شخصية كبيرة هو (إدوار هوريو) وكان عميداً لكلية الآداب في (ليون) الجامعة الثانية في فرنسة، ورئيساً للبرلمان الفرنسي، وعمدة ليون ثاني مدن فرنسة كذلك، فكان جوابه غريباً إلى حدٍّ ما، حين قال لسائله وأظن السائل صحفياً:

«الثقافة هي ما يبقى عالقاً بالأذهان عندما ننسى ما تعلَّمناه على مقاعد الدراسة والجامعات». ربما كان هوريو يحاول التخلص من السؤال في جوابه هذا. فالسؤال على ما أظن طرح سنة ١٩٣٦، وفي ذلك العهد لم يكن قد أجريت بعد دراسات منهجية حول موضوع الثقافة كما تجرى اليوم ومنذ الأربعينيات تقريباً في المدرسة الأميركية على الخصوص. إذ أخضعت هذه المدرسة مفهوم الثقافة لدراسة موضوعية، بوصفها ظاهرةً اجتماعيةً كبرى عبر التحليل الاجتماعي وسائر طرق البحث العلمي[١].

---

(١) Beneton L'histoire des mots culture civilisation. P. 62

ما ترجمته إلى العربية:

في العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر، فإن كلمة (الثقافة) أضحت موضوعاً لجدل لا ينتهي حول أزمة النظام التعليمي.

كان الخلاف حول الدروس المنهجية المتبعة في التعليم الثانوي، الذي نشأ عام ١٨٧٢ مع جول سيمون Semon وبرييل Breel وقد تطور عام ١٨٨٠ في مواجهة أنصار الثقافة الحديثة ضد أنصار الثقافة التقليدية.

فالانعطاف في مفهوم الثقافة العامة غدا موضوعاً لتطور عاطفي وضع جواباً استحوذت عليه العاطفة. وهكذا استمرت المشكلة وغدت كلمة الثقافة عقب عام ١٩١٤ الراية في كلا الاتجاهين مع غلبة المدافعين عن الإنسانيات الذي لم يفتر معه استدعى كلمة الثقافة موضوعاً لمفهوم الإنسانيات.

في إطار هذه الخلافات هل فقد موضوع الثقافة وحدته؟

لا يبدو ذلك. فإذا كان هناك ثقافات متزاحمة فهناك عقيدة مشتركة حول وحدة المفهوم.

فبالرغم من التعارضات حول تكوين الشاب في هذا المفهوم فكل من الفريقين لم يكن يرى غير نموذج واحد مثالي مثقف وشمولي دون تمييز بين القومية أو الطبقية الاجتماعية. فهناك توافق واسع ارتكز حول الأفكار الغامضة للثقافة العامة تعني تكوين عام للفكر.

والفقه الرسمي اعتمدها واستوحاها. ولذا كان النظام الذي صدر عام ١٨٩٠ حول التعليم الثانوي ينص على هذا المفهوم (التعليم الثانوي يهدف لبناء تكوين فكري جيد، مجهز بثقافة عامة قوية، فليس المطلوب التعمق باللاتينية واليونانية متخصصين وأساتذة، المطلوب فقط فيما يخص اليونان واللاتين أن=

فالسيد هوريو كما يبدو قد أراد التخلص من السؤال فأجاب عليه بما يشبه نكتة، إنما هو في الحقيقة أكثر من ذلك. فقد وضع بهذا الجواب الذي جاء عفوياً، فاصلاً كبيراً بين الثقافة وما نسميه العلم. (أي نتيجة التعليم على مقاعد المدارس والجامعات) كما أشار هوريو.

= تساهما من جانبهما في تكوين ثقافة عامة في الملكات الفكرية).

وأرنست لافيس الذي يعبر بكل انتماء عن الرؤية الرسمية، يؤكد على فكرة الثقافة العامة فيقول: «نحن نعلم بأنه لا يجب أن نجعلكم علماء فقط، بل أنتم محتاجون إلى ثقافة عامة، تسمح لكم باختيار طريقكم الخاص بكم بعد القيام بالمقارنة والتفكير، ثم نترككم لمصيركم. كيف ما كانت خياراتكم، فإن النظرة في خيارات متعددة هي سمة العقول التي لا تريد أن تظل ضعيفة صغيرة».

هذا الاهتمام بالثقافة العامة يفسر ولادة تأهيل جديد بخصوص التعليم. فالثقافة لم تعد تتعلق بالمعرفة التي تتبدد من الذاكرة Perissable ولكنها في تأكيد كفاءات ثابتة.

وحول هذه الأفكار تأسس في نهاية القرن التاسع عشر وفي النصف الأول من القرن العشرين نظام تربوي يؤكد تعبير (الثقافة العامة) طيلة تلك الفترة، وبناء على تعبير (إدوارد هوريو) فيما بين الحربين العالميتين: «الثقافة هي ذلك الذي يبقى حينما يُنسى كل شيء».

على أساس هذه القاعدة نشأت وحدة الفكر؛ لأن وحدة الرؤية الفكرية واحدة. لأن الثقافة العامة واحدة، الثقافة هي النموذج العام. (انتهت ترجمة النص عن الفرنسية) من كتاب Beneton.

لتفسير فاعلية تعريف (إدوارد هوريو) الذي أصبح منذ الثلاثينيات من القرن العشرين أساساً لتعريف الثقافة ننقله ذا النص عن الفرنسية Fernard Robert من كتابه Humanisme .

«حينما تجري كلمة (ثقافة) في أسماعنا فغالباً ما يقترح لها التعاريف الجميلة، لكن ما يبقى في أذهاننا حين ننسى كل شيء هو الأفضل من بينها. وميزة هذا التعريف أنه يجعلنا نميز بين الثقافة نفسها والمعرفة التي أسست لاكتساب الثقافة.

فالثقافة ليست في حقيقتها كماً من المعلومات، قليلة كانت أم كثيرة، فهذا ما تواضعنا عليه كمفهوم في فرنسة. فنحن نكره أساساً صيغة الرأس المحشو بالمعلومات..

فإذا كنا نريد رأساً شفافاً جيد الأداء فإن قدراً من المعلومات يكفي لتقدير مثل هذه النتيجة. لكن إذا اعتبرنا الثقافة هي نتاج المعارف فإن المردود العكسي سوف يستمر. وهنا لن يكون لدينا لا عقل شفاف ولا عقل محشو.

فالثقافة هي صعيد من الفكر لا صلة له بمستوى الدروس الملقنة، سواء في نوعها أو في مداها أو في كميتها، إنها كفاءة التلقي والتعليم، إنها ربما الذي يبقى حينما ننسى الذي تعلمناه، إنها على الأخص ما يجب أن نملكه أولاً كي نتعلم.

إن ما يثير الإعجاب على الخصوص في رجل مثقف حقيقة أن كفاءته في فهم ما لم يعرفه بعد هي أكبر مما قد عرفه. إذ يقال له: مثقف، لأننا ندرك حين نلتقي به أن عقله غير مغلق تجاه ما لا يزال غير معروف لديه»

[مسقاوي]

فالنكتة التي صدرت عن هوريو قد أعطتنا إذن مقياساً يجعلنا نميز مقدار الخطأ، إن كان ثمة خطأ، في تفهمنا لقضية الثقافة.

إن كلمة الثقافة نفسها وردت في مقدمة ابن خلدون مرتين أو ثلاثاً في فصول موزعة من المقدمة دون أن يكوّن لمدلول الكلمة ضبطاً يحمل إلينا معنى الثقافة كما نفهمه أو نحاول أن ندركه اليوم.

فكلمة الثقافة تبدو لي في مصطلح ابن خلدون هي مرادف لما يسميه في مصطلحه الخاص (الصناعة) صناعة النحو، صناعة الفقه، صناعة الطب.. إلخ. فكل فن أو تقنية كما نسميها اليوم يسميه ابن خلدون صناعة. وأحياناً يجمع مجموعة الصناعات (أي ما نسميه اليوم تكنولوجيا) بكلمة ثقافة، إنما مدلولها اليوم قد اتسع أكثر من ذلك بكثير.

لقد بقيت الكلمة في الحقيقة نادرة الاستعمال في اللغة العربية كما أعتقد. ولقد نعثر عليها في لسان العرب إنما مجرد فعل (ثقَّف - يثقِّف: أي قوَّم - يقوِّم) وهي بهذا المعنى تقربنا فعلاً من فهم مدلول الثقافة بمعناه اليوم.

بيد أن الكلمة أو المصطلح قد أخذ نفساً في عصرنا الحاضر، وبدا كأنما تجدد في اللغة العربية. وأظن أن الأساتذة الكرام هم أعلم مني بمنشأ كلمة الثقافة وتداولها مصطلحاً عربياً في أدبياتنا، ولعله يعود إلى الربع الأول من القرن العشرين ليس أكثر من ذلك، فنحن مثلاً لا نجد لها أثراً في كتابات (محمد عبده) ولا كتابات (جمال الدين) على ما أعتقد.

وفي الربع الأول من القرن العشرين في مصر كما أخبرني الأستاذ محمود شاكر الذي هو أعلم مني باللغة العربية والآداب العربية أن أحد الأدباء المشهورين في تلك الفترة -سلامة موسى[1]- هو الذي أعطى لكلمة ثقافة نفسها في التاريخ الثقافي العربي مصطلحاً.

(١) يعرف سلامة موسى الثقافة في كتابه (التثقيف الذاتي): ٣٠-٣٢

«الثقافة ما نفكر به والحضارة ما نعمل به» ويقول: «الحضارة والثقافة شيء واحد أما في البلاد المتخلفة=

وبالرغم من أن الكلمة قد استعادت نفسها الجديد في اللغة العربية فإننا لا نراها تدل دلالة واضحة على الشيء الذي يتعين علينا فهمه. ففي ضوء أزمة كالتي عالجتها المائدة المستديرة التي انعقدت في دمشق إثر أزمة سياسية، يجب علينا أن نسبر بقدر الإمكان غور هذا المفهوم المتورط اليوم من ناحيتين:

فهو متورط أولاً إلى حدٍّ ما (حتى في المجتمعات المتقدمة)- لدرجة أنه مميع- في مفهوم تضييق حدوده الاجتماعية إلى مجال معين. هو مجال الترفيه والتسلية؛ فيسمى ثقافة كل ما يتعلق بذلك. وتتأسس وزارات لهذا الغرض بحيث تعني كلمة ثقافة (خصوصاً في البلاد الشرقية - ونستثني الاختصاصيين - كالصين الشعبية والاتحاد السوفييتي مثلاً) مجال التسلية بكل وسائلها.

هكذا تورطت الكلمة بحيث ماع مدلولها في مجال لا يعني بالنسبة إلى ما تشير إليه مثلاً كلمة (أزمة ثقافية) شيئاً. فالأزمة الثقافية لا اتصال بينها وبين مجال الترفيهي. ومجال التسلية طبعاً. فنحن لم نواجه أزمة ثقافية، لأننا لم نحسن كيف نتسلى. أو كيف نرفه، بل ربما لأننا لم نحسن العمل في نطاق ما أسميه (العمل المشترك) العمل الذي تتجمع في نطاقه وتتكاتف الأيدي والعقول والضمائر.

= فهما منفصلان، فالثقافة هي التراث البشري الذي تكون لنا فيما لا يقل عن خمسين ألف سنة، أي منذ اكتشاف النار، يجب أن نلم بها ونمتلكها بالدراسة.

فالمعارف التي نجمعها لهذا التفكير تختلف عن المعارف التي يجمعها المهندس لتحديد أسلاك الهاتف، والإضاءة للمنزل، على أننا يجب أن نعترف أن الاختلاف هنا في الدرجة وليس في النوع، لأن المجتمع الأمثل هو المجتمع العالمي الذي يهتم بشؤون العالم كله».

- «الثقافة قيمة اجتماعية وعالمية بشرية، فالأمة التي تركد ثقافتها وتستحيل إلى قواعد وأساليب يركد مجتمعها، وتقف جامدة بعيدة عن الرقي، وقد حدث في القرون الوسطى».

ومن قارن تعريف الثقافة لدى سلامة موسى وتعريفها في الفكر الغربي يلاحظ أن سلامة موسى إذا اعتبرناه أول من نقل المصطلح إلى العربية فإنه ينقل تعريفها طبقاً للنموذج الفرنسي مع الإشارة إلى أن تفسير الفرق بين المهندس ومعلوماته الفنية وفكر المثقف هو اختلاف في الدرجة، وليس في النوع، يشير إلى عدم وضوح هذا المفهوم لديه كما نقله من الفكر الغربي، لأن تفسير الفكر الغربي يختلف تماماً».

قراءة في كتاب التثقيف الذاتي سلامة موسى تعود إلى عام ١٩٥٣ نقلت مقتطفات منها ضمن أوراقي الشخصية [مسقاوي]

فالثقافة قد تعطينا فرصاً للتسلية، فمجال التسلية يدخل فعلاً في نطاق الثقافة. إذ في درجة معينة من درجات سلم القيم الثقافية تدخل أشياء الترفيه، أو أشياء التسلية، ولكن ليست الثقافة هي التي تعلمنا كيف ننشد مجتمعين نشيداً وطنياً مثلاً، أو أغنية ما، أو نعزف عزفاً بموسيقا معينة.

الثقافة: هي - كما تعبر عنها الأزمة - قبل كل شيء الجو الذي تتكتل فيه الجهود حين تجد في هذا الجو كل شروط تكتلها وتجمعها، وتجد المسوغات لذلك.

وإذا تركنا جانباً تورط الكلمة في استعمالها عند بعض البلاد المتقدمة اليوم بوصفها مجموعةَ وسائل الترفيه. والتفتنا إلى الجانب الثاني من تورطها، والذي يهمنا أكثر، نراها أيضاً منذ بداية ما نسميه عصر النهضة العربية، قد تورطت في شيء أفقدها نسبياً ثلاثة أرباعه أو ٧٥٪ من مجالها، لأننا وضعنا في كلمة ثقافة مدلول العلم، ومحتوى العلم، واعتقدنا أن العلم هو الثقافة، وأن الثقافة هي العلم.

وقد أحدث هذا التورط النتائج التي كانت متوقعة منه.

يجب علي هنا أن أحدد فيما يخصني وأنا إنسان مسلم وعربي كيف اتجهت لمحاولة تفهم الثقافة، وما يحيط بها من مشكلات في المجتمع العربي والإسلامي، مما جعلني أختلف في وجهة نظري حول الثقافة إلى حدّ كبير مع أولئك الذين يدرسون الثقافة في الغرب.

لقد بدأت -كما أوضحت- منذ الأربعينيات -فيما أعتقد- الثقافة بوصفها ظاهرة اجتماعية حين صدرت دراسات في أميركا لرالف لمنتون و بورغ مثلاً ثم تتابعت هذه الدراسات. وظهرت أحياناً في نطاق كتب ذات طابع سياسي مثل كتاب ماوتسي تونغ (الديمقراطية الجديدة) حيث تناول في أحد فصوله مشكلة الثقافة. وويادنوف الذي قدم تقريراً كبيراً عن الثقافة في المؤتمر الشيوعي الحادي والعشرين فيما أعتقد، وهذه كلها دراسات قيمة.

ولكن بماذا نختلف نحن مع هذه الدراسات، وخصوصاً الدراسات الأميركية؟

إننا نختلف في شيء جوهري، وليس لمجرد الاختلاف؛ فالاختلاف مفروض علينا جوهرياً أو بطريقة جوهرية.

فالدارس للقضية في أميركا أو إنكلترا أو فرنسة، يدرسها، كأنه يصف واقعاً اجتماعياً، يعني ظاهرة شاخصة أمام عينيه، فيقف منها إلى حدّ كبير موقفاً وصفياً؛ موقف الإنسان الذي يصف ظاهرة ويريد تقديم أوضح صورة عنها بما ينبغي عليه أن يحدد خطوطها العريضة والقصيرة.

لكننا حينما نتصدى نحن لدراسة كهذه، فنقطة انطلاقنا تختلف تماماً عن نقطة انطلاق الدارسين في البلاد المتقدمة. لأننا لا ندرس واقعاً اجتماعياً شاخصاً أمامنا، بل ندرس شيئاً خفياً لا تبصره أعيننا ماثلاً في الواقع الاجتماعي، أو هو معدوم الوجود إلى حد ما في مجالنا الوطني أو القومي الحضاري.

ومن هنا فنحن نتحرك من نقطة نحاول بقدر إمكاناتنا أن نضع خطط الإنشاء، لا صور الوصف كما يفعل الغربيون.

وخطط الإنشاء تختلف عن صور الوصف كما يعلم إخواننا المهندسون. فالإنشاء يقتضي على الأقل أبعاداً ثلاثة (طول وعرض وارتفاع)، وأحياناً يتوجب بعض المقاطع بقدر تعقد الشيء المراد وضع المخطط الإنشائي له.

لكن الصورة الوصفية لوحة معلقة تعطينا فعلاً ملامح الشيء كما تراه العين التي صورته بقدر ما تكون صادقة في تصويره حقيقة، وليس على مذهب بيكاسو وليس بريشة بيكاسو.

وبهذا تكون الصورة واضحة إلى حدٍّ ما، إنما لا تعطينا وسيلة لإعادة بناء الشيء المصور.

فالمنطلق في دراسة الغربيين يختلف إذن تمام الاختلاف عما نراه منطلقاً لدراسات في هذا الموضوع في البلاد العربية والإسلامية.

ولقد قامت وبدأت فعلاً دراسات متخصصة في البلاد العربية، لكننا نلاحظ مثلاً أن كلمة ثقافة ما زالت غير متورطة في عالم مصطلحاتنا الفنية، إلى درجة أن الدراسات المتخصصة في الموضوع تضع كلمة ثقافة وبجانبها بين قوسين كلمة (Culture) ومعنى هذا أن الكلمة في العربية لا تزال في نظر المتخصصين في هذه الدراسات غير وافية بدورها كمفهوم علمي يؤدي معنى محدداً إذا لم توضع لها ركيزة أجنبية تتوكأ عليها.

ولا نشير إلى هذه الملاحظة من قبيل النقد أو الانتقاص من أسلوب الدارسين الذين يضيفون إلى مصطلح (ثقافة) مفهومها الأجنبي؛ فدوام الاعتماد على المصطلح العربي لا بأس به لعشر سنوات أو لخمس عشرة سنة من بداية الاتجاه نحو هذه الدراسات في محيطنا العربي، لكن الاستمرار في ذلك يعني أنه حتى الآن لم يكتسب مصطلح الثقافة توطّنه الكامل في لغتنا، فندعمه بكلمة أجنبية يتوكأ عليها ليعرف بنفسه أنه قرين كلمة (Culture) أو رفيقها.

إذن فمنطلقنا يختلف تماماً عن منطلق الآخرين، ويجب أن يختلف للأسباب التي قدمتها. إنه من المفيد في هذا اللقاء أن أحدد كيف تكوّن هذا المنطلق، وما الأسباب التي دعت إليه، أو التي دعت إلى تحديد موقفي هذا في دراسة الظاهرة التي نطلق عليها اسم ثقافة؟

هذا أمر يدخل في نطاق معاناة شخصية، وخبرة مبنية على تجربة ومحنة، ككل عربي ومسلم، يعيش القضية ضعفاً، وهو يشعر بثقل التصرفات الفردية والاجتماعية في المجتمع العربي، أو بشيء من ذلك الثقل الذي نسميه أحياناً بالانحراف.

فلو نظرنا إلى الثقافة، وإلى عملية التثقيف على أنها علم فقط، نكون إذن وكأنما فصلنا القضية عن جوهرها، لأن العلم لا يدعي، وليس من وظيفته أن يقدم المبررات.

فالعلم ليس للمبررات، وهو لا يقدم الكيفيات. إنه يجيب عن سؤال (كيف) فقط.

فمنذ أن تأسس العلم على المبادئ التي قررها (ديكارت) في القرن السابع عشر والتي استنتجها من معركته مع المدرسة (السكولاستية) إذ كان ديكارت يرى أن هذه المدرسة، قد عطلت سير الإنسانية، فأراد التخلص منها فتخلص في الوقت نفسه من اتجاه فكري عظيم. إنه اتجاه الفكر الذي يضمن للمجتمع جانب المبررات؛ أي الجواب عن لماذا؟ فأضحى العلم بذلك لا يجيب إلا عن سؤال واحد هو: كيف؟

وحينما جاء نيوتن مكتشف الجاذبية بعد قرنين من ديكارت، وجدناه يصوغ قانون الجاذبية صياغة تتجنب طبقاً لمنطق (ديكارت) أن تتورط في ناحية المبررات.

فجاءت صياغة قانون الجاذبية كما يعلم طلاب الجامعات بهذا النص:

«الأشياء تسير كأنما الأجرام تتجاذب طبقاً لشحنتها المادية على عكس مربع أبعادها».

(أنما) وليس (لأن) إذ التعبير (كأن) يأتي وفق مبادئ ديكارت التي تقدم العلم على أساسها والتي تتجنب (لأن). أي تتجنب الجواب عن (لأن) فتعمد إلى استعمال (كأن) وهذا التعبير هو الذي يحمل طابع العلم الجديد والاتجاه الذي نشأ طبقاً للمنهج الذي قرره (ديكارت).

فلو أن العلم بقي في مفهومه كما كان قبل (ديكارت) لربما جاز لنا أن نقول: إن العلم يساوي الثقافة، ونقول ربما. لكن العلم اليوم لا يجيز لنا ذلك، لأن العلم في مفهومه الحديث لا يقدم المبررات، ولا يهتم بهذا الجانب، لأنه يهتم بالكيفيات:

كيف نصنع؟ - كيف نفعل؟ - كيف تسير الأشياء؟

هذا هو العلم بكل أسف، وأقول بكل أسف من دون استثناء أو استدراك ودون أن يبهرنا هذا العلم.

فنحن نعترف أولاً بما أنتجه هذا العلم الحديث الذي وصل إلى صنع الصاروخ

السادس عشر الذي هو في طريقه اليوم حول القمر إلا أن هذا لا يبهرنا. فحياة البشر أفضل وأثمن بالنسبة إلينا من سير صاروخ في الفضاء. وحياة البشر اليوم معرضة بسبب فقدان المبررات إلى مورطات كبرى، نرى ملامحها اليوم في المجتمعات المتقدمة، وأذكر الإحصائيات التي تدلنا مثلاً على أن بلداً كالسويد، وهو في المقدمة من المجتمعات الراقية، يتصدر إحصائية الانتحار في العالم، وهذا يعني أن هذا الوطن الغني الثري، والذي فيه العلم يستطيع أن يجيب عن كل سؤال يتضمن كيف؟

هذا الوطن نفسه أصبح عاجزاً عن الإجابة عن سؤال لماذا؟ بل إنه لا يقدم لحياة الأفراد المبررات التي تضمن لهم شروط الحياة البشرية. إذ تبين أن الحياة البشرية في حاجة إلى أشياء أخرى فوق ما تضمن المؤسسات من توفير لقمة العيش والرفاهية، إنها تظل مع ذلك متطّلعة إلى أشياء أخرى.

قلت: إن كلمة (علم) تورطت، وربما كانت ورطتها ضرورية للتخلص من المواقف السحرية التي كان يقفها العلم والعلماء قبل ديكارت؛ حيث إن كثيراً من العقول الإنسانية كانت تقتنع بتفسير الظواهر، والطبيعية منها خاصة، بكلمات غريبة مثلاً، كما كان يجري في البلاد الإسلامية والعربية كان عصر التفسيرات السحرية للظواهر الاجتماعية كالقول: «أراد سيدنا الشيخ فلان كذا» أو «أراد سيدنا الشيخ ذاك». وهذا ما أراد ديكارت أن يخلص فعلاً الفكر الأوروبي والفكر الإنساني منه، ولقد نجح إذ أراد ذلك، لكنني أخشى أن يكون نجاحه أبعد من الشروط، ومن الحدّ الذي يضمن للإنسانية المبررات المشروطة الضرورية لحياتها.

كيف شعرنا وشعر الفرد المسلم العربي بأن العلم الذي نتعلمه، ونعلمه لأولادنا في المدارس والجامعات لا يؤدي وظيفة الثقافة، أو بعبارة أخرى لا يقدم المبررات الاجتماعية للأفراد ولا للمجتمع. كيف شعرنا بهذا في حياتنا؟

بصورة بسيطة؛ فأنا من هذا الجيل، وابن هذا القرن ومن مواليد ١٩٠٥، وقد واكبت وعايشت كل أحداث القرن الكبيرة تقريباً، والتطورات التي حدثت في بلدي

الجزائر (وهي بلد عربي وإسلامي مثل سورية الشقيقة) فلاحظت أشياء وتصرفات وأمواجاً تاريخية كبرى، ولاحظت معارك سياسية، فماذا كانت نتيجة ملاحظاتي؟

إن سلوك الفرد العربي المسلم (الجزائري طبعاً، لأن مجال ملاحظاتي كان الجزائر) مشروط بشيء من السلبية، أو لنعكس القضية فنقول: إنه كان فاقداً لشيء من الإيجابية، أعني لشيء أساسي من الفعالية، بينما كنت أرى في الوقت نفسه أن سلوك الآخرين ينطبع إلى حد كبير بالإيجابية والفعالية.

وهكذا أصبحت القضية واضحة في ذهني: هل العلم هو سبب هذا؟

لا، فالعلم الذي تعلمه هذا الإنسان أو ذاك هو علم واحد. وأتورع ولا أجيز لنفسي أن أثقل عليكم بذكر أشياء لا حاجة لنا في ذكرها. سواء حدثت في المراحل القريبة أم في المراحل التي تخللت العقود البعيدة عنا من هذا القرن. ويكفيني هنا أن أذكر هذه القضية البسيطة:

طبيب مبرز، ناجح تمام النجاح في دراسته الطبية. أقول هذا وأنا ليس لي أي حق أن أقدم علامات النجاح لطبيب، وإنما أقول هذا على لسان رئيس لجنة الدكتوراه. فعندما انتهى امتحان هذا الشاب الجزائري، الذي كان شاباً قبل أربعين عاماً. أما اليوم فهو شيخ كبير، قام رئيس لجنة الامتحان، وقال لهذا الشاب الطبيب الجزائري: «إنني أنتظرك على عتبة هذه الجامعة لتعود إلينا زميلاً».

وقد تخرج في الدفعة نفسها، وعلى أيدي الأساتذة أنفسهم، وعلى المقاعد نفسها في جامعة الجزائر طبيب من جالية أخرى، من طائفة أخرى هو الطبيب (أبو الخير) اليهودي، وكان أيضاً طالباً نجيباً ولكن دون درجة الآخر.

فإذا وضعنا الأمور بمقاييس الدرجات العلمية نرى أن الأول يسبق الثاني في الامتياز، ولكن من أجل ألا نتورط في مقاييس غير صحيحة في هذا المجال، فإن علينا أن نلاحظ بموضوعية سعي كل منهما في سبل الحياة، كل منهما في طريقه.

فالطبيب الجزائري المجلي في إطار العلم قد أصبح هو أيضاً شخصية مرموقة في

المجال السياسي، والطبيب اليهودي، المجلي هو أيضاً لكن في درجة أقل من الطبيب الجزائري، قد أصبح هو أيضاً شخصية سياسية مرموقة في المجال اليهودي أي (بين صفوف الطائفة اليهودية).

ولقد أتيح لي أن أتتبع سلوك كل من الرجلين فرأيت المتناقضات.

فالمواقف السياسية التي وقفها أخونا العربي المسلم كانت كلها مواقف مطالبة، وإعلان الغضب أحياناً على الإدارة طبعاً، لكن إعلان الغضب هذا اقتصر على برقيات تنشرها الصحافة. ترفع عبارة الاحتجاج ضد كذا.. إلخ كتلك العبارات التي لا تعني شيئاً.

لكن الطبيب اليهودي كان صامتاً سحابة ذلك الوقت الذي امتد عشرين عاماً أو خمسة عشر عاماً قبل الحرب العالمية الثانية، فيما الطبيب العربي المسلم كان يطالب بالحقوق وينشر العلم الذي كان في حدوده الضيقة طبقاً لسياسة المصالح الاستعمارية. وكان يحتج على سكوت الحكومة، وعدم اكتراثها، وعدم اهتمامها، ثم يشكو بأن أبناء العرب المسلمين عاطلون عن العمل.. إلخ. ولقد كان له الحق في ذلك كله. وكان على صواب في كل ما يشكو منه، ولكن عند مقارنته بما فعل الطبيب اليهودي في ظروف مماثلة بعد حوادث تموز (يوليو) سنة ١٩٤٠ أو بعد حوادث حزيران (يونيو) - حزيران دائماً له رائحة غير طيبة في تاريخ الإنسانية - فقد انهارت فرنسة في ذلك الوقت. واستولى على الحكم الجنرال (بيتان) وأصبح تحت الضغط أو بإرادته واختياره تطبق قوانين (هابرغ) تجاه الأقلية اليهودية القاطنة في فرنسة وفي الجزائر.

كانت هذه القوانين تقضي بتحديد نسبة المتعلمين من أبناء اليهود المقبولين للدراسة، أي نسبة معينة في المرحلة الابتدائية، وفي المرحلة الثانوية نسبة أقل، وفي المرحلة الجامعية تصبح النسبة مفقودة تقريباً.

لقد طبقت هذه القوانين بصرامة وخصوصاً في الجزائر، لأن فيها تياراً ضد اليهود

بسببنا أو بسبب الأوروبيين، إذ إنه حتى الأوروبيين كانوا ضد اليهود في الحقيقة.

لم يرتفع صوت يهودي لمطالبة حكومة (بيتان) أبداً، ولكن نظمت حلقات في بيت كل يهودي، وأصبح كل يهودي يحمل أي درجة من التعليم أستاذاً في بيته حتى المستويات العليا (الجامعة).

وفي خلال سنتين لم تضع على طفل أو شاب يهودي ساعة واحدة من الدروس، وزيادة على ذلك فقد تقدم رئيسهم الدكتور (أبو الخير) ليتحادث مع قيادة الحلفاء باسم الجزائر يوم نزل الحلفاء في الشمال الإفريقي في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢، بينما الزعيم العربي الجزائري (الزعيم الكبير) والذي كانت له نسبة ٩٠٪ تقريباً من أصوات الجزائريين لم يتقدم بشيء.

لأي ناحية نعزو هذه الفعالية في سلوك الدكتور اليهودي وقلة الفعالية أو النسبية هذه في سلوك مثقفينا؟

هنا تبرز لنا الأزمة الثقافية في صورتها الحقيقية، في صورتها التي لا توحي بها ظروف أو أيام محنة، فالعرب لم يخسروا الحرب، وإنما خسروا معركة، وهم سوف يستعيدون إن شاء الله بلادنا ومقدساتنا.

إذن الأزمة التي تهمنا ليست الأزمة التي تدوم خمسة أيام، بل هي الأزمة التي تدوم لسنين والتي نخشى أن تدوم لعقود من السنين، وربما تدوم القرن إذا لم نلتفت إليها بكل جد وعناية.

وهنا نعود مرة أخرى لنتساءل: ما الثقافة التي تحدد لنا سلوك هذا الفرد، سواء كان عالماً أم غير عالم؟ وتحدد لنا - كما سنرى - أسلوب الحياة في المجتمع حيث يتحقق الانسجام بين سلوك الأفراد وأسلوب الحياة في المجتمع، وتنشأ رقابة بين الطرفين؛ رقابة طبيعية إذا اختلَّ شيء ما في سلوك الأفراد تنشأ ردود الأفعال في أسلوب الحياة لإيقاف الانحراف أو الخطأ في السلوك والعكس بالعكس.

فمثلاً (سقراط) الرجل الحكيم ومؤسس العقلانية، نستطيع أن نقول: إنه مات

ضحية هذه الرقابة، لأن المجتمع الأثيني، والثقافة الأثينية أدانته وحكمت عليه بالإعدام حتى شرب بنفسه كأس السم. وهذا يكون عندما تحدث الرقابة من ناحية المجتمع على ناحية الفرد أو من جانب (نحن) على جانب (الأنا)، والثقافة هي التي تنشئ هذه الرقابة بين (الأنا) و (نحن) وتنشئها على أساس المبررات التي لا يقدمها العلم.

وأحياناً نرى أن الفرد هو الذي يثور على المجتمع مثلاً: ثورة سيدنا (عيسى) عليه السلام على المجتمع اليهودي كانت ثورة عنيفة، حين ناداهم في آخر أيام الفصح كما أظن، واتهمهم في كلمته الأخيرة «يا أبناء الأفاعي» وهذا الاتهام وردُّ الفعل كانا عنيفين. وهو أشد ما يكون من فرد إلى مجتمع.

فالثقافة هي التي تنشئ الرقابة المزدوجة، أحياناً من جانب (نحن) كرد فعل لانحراف (أنا) معين. وأحياناً من طرف (أنا) معين ضد مجتمع، وهي توجد وتكوّن وتنشئ هذه الرقابة من الطرفين حيث لا تسمح بحدوث نشوز.

وفي ضوء هذه الملاحظات نعود لنتأمل عبارة (أزمة ثقافية) -سواء نتجت عن أيام حزيران أم بعدها أم قبلها- في حياتنا اليومية، وذلك طبقاً لما اكتسبناه من خبرة في الموضوع هي حصيلة مقارنات في مجال السياسة أو الاقتصاد أو سوى ذلك. وهنا لا بد أن تكون هذه المقارنات قد قيست بمقياس الفعالية التي هي دوماً المعيار الذي نتخذه في تحديد مفهوم (الأزمة). فليس تطفلاً أننا نبحث عن الفعالية دوماً في مجتمعنا العربي والإسلامي، بل إننا نعبر عن حاجة أساسية ندفع بها غائلة التخلف الذي يسم عالمنا. فنحن الآن أمام الملأ العالمي نوصف بالعالم المتخلف، أو أننا جزء من العالم المتخلف، وهذا يتصل بلقمة العيش. وهو أمر ليس بالهين لنزهو فيه، أو نلتفت عنه.

فإذا قلَّت فعاليتنا بسبب سلوك بعض أفراد مجتمعنا المثقفين أو غير المثقفين، فنحن إذن أمام حاجة تطبع سلوكنا بالفعالية.

فإذا كان التعليم والعلم لا يكفيان لطبع سلوكنا بالفعالية فإن علينا أن نتجه إذن

اتجاهاً آخر. لأننا قد ورطنا مفهومنا للثقافة عندما نظرنا إلى العلم على أنه يطبع سلوكنا بالفعالية، وأنه يمدنا بالمبررات، بينما العلم ليست هذه مهماته ولا وظيفته.

فالعلم شيء حيادي لا يريد الخير ولا الشر، وإنما يسعى للجواب عن (كيف) فقط.

أما الثقافة فهي تريد الخير، وإذا ما انحرفت المواقف الثقافية تصبح تريد الشر. وإذا نحن في ضوء هذه الملاحظات وسَّعنا المقارنات في المجال الاقتصادي، والمجال الاقتصادي يبين لنا إذا ما تساءلنا: هل أموال العرب المكدسة اليوم في العالم العربي لها فعاليات أموال غير العرب؟ فالجواب بالنفي ضعاً: لأنكم تعلمون أن الأموال المكدسة في البنوك الأجنبية للعرب تمثل جزءاً كبيراً من رصيد الدول المستعمرة، حيث إنه لو سحبت هذه الأموال لوقع خلل في ميزانية المصارف الكبرى. مثلاً (المصرف الوطني) في إنكلترا على وجه الخصوص.

إذن يجب أن نقول: إن السلوك الفعال، وأسلوب الحياة في المجتمع لا يتكونان على أساس العلم، وإنما يتكونان على أساس الثقافة، مع الملاحظة بأن هذا التكوين ينشأ مع الطفل منذ اليوم الأول في المهد. وهذا التكوين يختلف عن الوعي الذي يتكون في سن الخامسة أو السادسة من العمر والذي يكتسب العلم عبره.

ولقد سألني أحد أقاربي، وقد ولدت له حفيدة فقال: ولدت لي ابنة ابني فلان فكيف تشير علي بتربيتها؟

أدركت الموضوع فتعمدت استثارته مداعباً، لكن مداعبتي كانت تنبئ عن الحقيقة، فسألته: منذ كم ولدت؟ قال: منذ شهر - قلت: إذن لقد فات شهر من التربية أو التثقيف.

لقد تذوقها كنكتة كما أراكم تذوقتموها الآن، لكنها في الحقيقة ليست نكتة؛ فالطفل يبتدئ تكوينه النفسي في زمن مبكر أكثر مما نتصور عادة، إذ ملامح تكوينه النفسية تتكون قبل ما تتصوره الأسر التي نحن منها.

فالطفل لديه طريقة للإدراك ، ليست كطريقة الكبار طبعاً؛ إذ الطفل لا يفكر، ولا يختار بين شيئين؛ هذا شيء محرق وهذا شيء غير محرق، لكنه يدرك هذا بشيء من لا شعور أو بشيء باطني وعبر امتصاص نفساني، فكما أنه منذ نشأته وخروجه من بطن أمه، يتنفس فيفتح فاه ومنافذه لاستنشاق الهواء الضروري لحياته منذ اللحظة الأولى، حتى أن الوليد يضرب أحياناً ليفتح فمه كي ينطلق الهواء من منافسه كذلك، فإن الطفل له كيان نفسي منذ اللحظة الأولى لمجيئه. فهو يبدأ لا شعورياً ودون تدخل الإرادة بتمثل الأشياء والعناصر التي نسميها (العناصر الثقافية).

فماذا أسمي هذا وكيف أحدده؟

لو عدت الآن إلى السؤال الذي طرح على السيد (هوريو) سنة ١٩٣٦ ما الثقافة؟ أقول: هي الجو المتكون من ألوان وألحان ونغمات وروائح وسكنات وأضواء، ومن جوانب مظلمة، إنها هذا الجو كله الذي تتفتح فيه النفس، وتشعر بوجودها في إطار عام.

هذه هي الثقافة..

والآن إذ قمنا بمراجعة بسيطة سريعة وتساءلنا: لماذا اختلف سلوك الطبيب الذي أخذناه مقياساً للمقارنة، عن سلوك الطبيب الآخر؟

فالجواب: إنَّ كلاً منهما وجد في جو ثقافي مختلف منذ المهد، أي منذ الأيام الأولى لحياته. ثم نسترسل في المقارنة، ونضع بعض الملاحظات عن كيفية النمو النفسي عند الطفل.

١- يولد المولود على الفطرة من الناحية النفسية، ولكنه يبدأ بامتصاص وتمثل الجو الخارجي، أي العناصر الثقافية التي حوله من ألوان وأصوات وسلوك، ومن أفكار (لا تعني شيئاً بالنسبة للفكر) ولكنها تحمل رسائل إلى لا شعور الطفل. فهذا الطفل سيجد منذ نشأته في المهد اختلاف سلوك ذويه عن ذوي غيره.

مثلاً: الأم وهي أقرب الناس للطفل. الأم الحنون التي يجرها إسراف في حنانها

إلى إفراط في العطف يزيد عن درجة معقولة: يصرخ الطفل - وهذه فطرته - للمرة الأولى، وأظن أن هذا يقع في اليوم الثاني إذ في اليوم الأول لا يتغذى الطفل فيما أعتقد (على كل حال هذه الأشياء يعرفها الأطباء والأمهات) فالطفل إذن حين يشعر بالجوع يصرخ فتأتي الأم وتغذيه، فإذا تكرر هذا من دون قيد أو شرط، أي كلما صرخ الطفل أتت أمه لتغذيه، ينتج عن هذا خلال أسبوع واحد فقط أن الطفل يسجل في أعماقه واقعاً، وهو أن هذا العالم (العالم هو بيته بالنسبة إليه) حين يصرخ يستجيب له.

أما من ناحية أخرى فإن الطفل حينما يكون الإرضاع منتظماً (مرة كل ثلاث أو أربع ساعات) ولا يقدم له ثدي أمه إلا في الحدود والمواقيت المقررة وفقاً لتعليمات الطّبيب، فإن الطفل إذا صرخ في المرة الأولى والثانية والثالثة دون جدوى يعرف حينئذ أن العالم لا يستجيب للصراخ، وأن المشاكل لا تحل بالصراخ. فينشأ عنده منذ الأسبوع الأول سلوك يختلف عن السلوك الأول جوهرياً، إذ الطفل الأول يحل مشكلاته بالصراخ، والثاني يعرف أن الصراخ لا يحل مشاكله.

هل يكفي أن نحدد الثقافة بهذه الطريقة؟ أي بأنها الجو المتكون من ألوان وألحان المهرجانات التي تسمى مهرجان (الصوت والضوء)؟ لكن هذه اللوحة لا تعطينا (كما أشرت سابقاً) تركيباً للثقافة، بل تركيباً تربوياً؛ تركيباً ننشئ منه برنامجاً تربوياً.

ولكن بمراجعة المقارنات التي انطلقنا منها، أعني المقارنة بين سلوك فعال وسلوك غير فعال، بين أسلوب حياة يسوده النظام والانسجام وأسلوب حياة فوضوي (وهنا لا بد من الإشارة إلى أنني حينما أتكلم على الأسلوب، فإنني أتكلم على المجتمع؛ على الجانب الذي نسميه (نحن)، وحينما أتكلم على السلوك فإنني أتكلم على الفرد؛ على الـ (أنا) نرى أن سلوك الفرد وأسلوب الحياة في المجتمع، والتجارب والتفاعل بينهما كما ذكرنا يفرض رقابة من هذا على ذاك، ومن ذاك على هذا.

إذن لا بد أن تفرض الرقابة، وإذا انعدمت هذه الرقابة، اختل الأمر، وإذا

اختلت الرقابة، فمعنى هذا أنه نشأت (أزمة ثقافية) أو هي في طريق النشوء. ونحن عندما نطرح سؤال: ما الثقافة؟ فإننا في الحقيقة نواجه ضرورات اجتماعية معينة.

فنحن إذن لا نطرح السؤال بطريقة أن الجواب لا يعنينا إلا من ناحية نظرية. كما هو الأمر بالنسبة إلى الدارس في أميركا مثلاً، أو في فرنسة وغيرها. فهذا الأخير يدرس المشكلة وإذا وفق فقد وفق، وإن لم يوفق فما أضرَّ شيئاً.

نحن نطرح السؤال لأننا نبحث عن سفينة النجاة، ومن ثَمَّ، فموقعنا مختلف؛ لأننا نبحث عن الجواب في ضوء ضرورات شاهدناها، في ضوء أزمة عشناها، ونحن مررنا بها. إذن فموقفنا ليس كموقف الآخرين.

حقيقة أننا نواجه فقدان المبررات في مجتمعنا، وقد بدأت الحديث عنها ربما قبل أوانه لكن لا بأس. المبررات التي تخضع سلوك الفرد لمصلحة الجماعة، وللصالح العام، (أي الإرادة العامة). فإذا فقدت هذه المبررات فهذا معناه أن الصلات الاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع إما ضعيفة أو مفقودة، لأن مجموعة أفراد، وإن كانت تعيش في مدينة أو بلد واحد، لا يعني أنها تكون مجتمعاً. فالمجتمع تكونه وظيفة، وهو يؤدي وظيفة، والأفراد فيه ينسجمون مع وظيفة المجتمع، فإذا ما اختلت وظيفة المجتمع اختلت علاقة الأفراد في المجتمع، وهذا معناه أن المجتمع مفقود، أو أن المجتمع نفسه معطل عن القيام بوظيفة.

إذن مجموعة من البشر لا تكون مجتمعاً، ومن ثَمَّ علينا إذن أن نقول: إن الشيء الذي نريده من الثقافة هو أن تبسط بين الأفراد شبكة علاقات اجتماعية معينة تضمن للفرد عناية ورعاية المجتمع من جانب، ومن جانب آخر تضمن المجتمع من انحراف الفرد ونشوزه .

فالشيء الأول الذي ننتظر من الثقافة أن تقدمه هو:

أولاً: أن تمنحنا الثقافة انسجام الأفراد مع المجتمع. وبذلك يتكون المجتمع إذا لم يكن موجوداً، ويقوى. وتنفك عنه أزمته إذا كان موجوداً. فالتماسك شرط

كتماسك البنيان المرصوص، كل مواد البناء فيه على درجة واحدة من التمدد والانقباض في، الحر والقر وإلا تعرض البناء للتفكك. والمجتمع كذلك بناءُ أفرادٍ، إذا كان فيه نشوز من جانب هؤلاء الأفراد فهذا معناه أن المجتمع معرض للتفكك.

وهذا الشرط؛ شرط انسجام الأفراد مع المجتمع، لا يمكن أن يقدمه العلم، ولكن تقدمه الأخلاق. وفي بلادنا يقدمه الإسلام، والإسلام وحدة، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّما بعثْتُ لأتَمِّمَ مكارِمَ الأخلاقِ» وهذا ليس كلاماً أدبياً. إنه ضرورة من ضرورات الحياة، ضرورات تشملها الرسالة. لأنه ضرورة كبرى، فلقد جاء الإسلام لتأسيس مجتمع، وكان لزاماً أن يضع هذا المجتمع على مكارم الأخلاق. فالأخلاق وحدها تضمن وحدة المجتمع، وصيرورة المجتمع، ووظيفة المجتمع. أي ما يتكفله المجتمع لكل فرد يعيش فيه من ضمانات، وأمن، ورعاية، وتعليم، ورعاية صحية.. إلخ. ولا يمكن لمجتمع أن يقوم بهذا كله أبداً على أساس العلم فقط.

ولسنا هنا في معرض تقديم إحصائيات تدلنا على فشل العلم في وظيفته الاجتماعية. فالعلم فشل في وظيفته الاجتماعية، لكنه نجح في الناحية الأخرى نجاحاً نتقبله بكل إعجاب، ولكن يجب علينا أن ندرك نقصانه في الجوانب الاجتماعية الإنسانية البحتة.

فالدين هو وحده الذي يستطيع أن يؤسس مجتمعاً، والعلم لا يستطيع تأسيس مجتمع. وإذا قيل لنا: إن بعض المجتمعات تأسست على غير الدين، فهذا يعني أن المعترض يحمّل كلمة (دين) ما لم نحملها نحن، إذ إننا نضع لها معنى آخر. فبالنسبة إلينا نحن المسلمين نضع فيها معنى الهداية هداية الله لخلقه، ولكن بالمعنى الاجتماعي فكل عقيدة تقدم للفرد المبررات الأساسية التي تحدد سلوكه وتطبع وظيفة المجتمع نحوه، فهي عقيدة وهو دين. ولا يستغرب في أن الشيوعية أيضاً تدخل في نطاق الأديان الأخرى، فهي دين من الأديان، وإنما نجيب على هذا ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ [الكافرون: ١٠٩/٦]، وصدورنا مرتاحة ومنشرحة، ولا نستطيع أن نسير مع رفاقنا الشيوعيين في أمن وأمان لا يضرنا ما

قدسوا من المادة لأننا نعتقد ونتمسك بما قالته الآية الكريمة: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ١٠٥].

أما من الناحية الاجتماعية نعلم ونقر ونقول، حتى للشيوعيين، بل وقلنا هذا في كتب: إن الشيوعية دين من الأديان، دين لكنه أثبت قاعدة مادية، ولست أنا الذي أقول هذا وحدي، بل هنالك من قال ذلك أيضاً، مثلاً (سارح بيردان) صاحب كتاب (المصادر المسيحية للشيوعية)، وكتاب لفيلسوف ألماني (الروح الشرقية والغرب) أو (الغرب أمام الروح الشرقية) يكرر هذا، وكتاب (فولنير شوباز) أيضاً يقول هذا، ويشير إليه.

فالمهم إذن أن الشرط الأول الذي نطلبه من الثقافة ونفترضه؛ عليها أن تحقق الأساس الأخلاقي في المجتمع، لأن المجتمع لا يقوم على غير الأخلاق، لأن المعاملات الاجتماعية كلها، حتى معاملات الجوار العادي، لا تبنى إلا على الأخلاق.

ثانياً: أن تمنحنا الثقافة قيماً جمالية، إذ المجتمع الذي تأسس وتكونت وحدته على أساس أخلاقي على ما نسميه المبدأ الأخلاقي، يتطلب صورة ومظهراً. يتطلب تنظيمه الشكلي من حيث ملبسه، ومعاشه، وترتيب أشياء بيته. الأشياء التي تتصل بالقيم الجمالية، لذا لا بد للثقافة أن تمدنا بالذوق الجمالي، وتنمي فينا هذا الذوق. ويجب علينا ألا نعتقد أن الإسلام قد أهمل أو زهد في هذا الجانب، لأننا نرى أن القرآن الكريم عندما يذكر الخيل والبغال يقول: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝﴾ [النحل: ١٦/ ٦].

فكلمة الجمال ليست نفعية. فركوب مصلحي. فعندما نركب البغال والحمير نقضي مصالحنا، ولكن القرآن يبرز قيمة أخرى غير المصلحة، القيمة الجمالية يظهرها للحياة.

إذن فنحن نطلب من الثقافة أن تكفل لنا هذا الجانب (الذوق الجمالي) لترتيب

شؤون مجتمعنا، لأن النشوز إذا كان يحدث في المستوى الأخلاقي فهو يحدث أيضاً في المستوى الجمالي.

والشريعة الإسلامية قد تحدثت عن تشريع لهذا، فالطلاق والزواج مثلاً في كل منهما آداب، فهنالك حالات يكون عليها الرجل أو تكون عليها المرأة (حالات جمالية وليست أخلاقية) ينشأ فيها طلب الطلاق، سواء بطلب من الزوج أو من الأنثى، وهذه أمور معروفة في الشريعة.

إذن القيم الجمالية، قيم: غيرية في جدول ثقافي. وفي سلم القيم الثقافية.

ثالثاً: الفعالية. فالمجتمع الذي تحققت وحدته وتحقق شكله، له حاجات ضرورية ويومية تتحقق بنشأة ما سميته قبل هذا (الفعالية).

والفعالية إذا عبرنا عنها بتعبير أو مصطلح آخر نقول: (المنطق العملي) وهذا مصطلح أعرف به منذ ربع قرن، المنطق العملي، هو ما يسمى في مجال الصناعة (تايلوريه).

فالمنطق العملي هو تركيب الحركات حسب نتيجتها، والوقت الذي تتخذه وتستغرقه هذه التايلوريه نسميها نحن المنطق العملي.

والشعوب لها مقاييسها، لكنها لا تفقد المنطق العملي؛ لأنها تعلم أنه إذا اختل المنطق العملي فهذا يؤدي إلى العبث، ويعرض المجتمع إلى تضييع مصالحه.

والشعوب على طريقتها تنقح الموضوع، وتأتي بملاحظاتها عبر المثل، كذلك المثل الشهير في الذي سئل عن أذنه فلفَّ يده اليسرى حول رأسه ليشير إلى أذنه اليمنى. وهذا يعني أنه أضاع جهده، وأضاع وقته، وأتعب نفسه، عوضاً عن أن يقول: «هاهي أذني» قال: «تلك هي». معنى هذا طبعاً إضاعة الوقت.

رابعاً: التقنية أو الصناعة أو العلم، وهذا هو الشرط الأخير في بناء الثقافة. منذ أن قامت الإنسانية بما يسمى (بتقسيم العمل) أي منذ عشرة آلاف من السنوات أو

أكثر أصبحت هناك تقنية موجودة، فهذا بنّاء، وذلك طبيب، أو أستاذ، والآخر خياط.. إلخ.

وتتكاتف هذه المجهودات في أداء وظيفة واحدة هي أن يقوم المجتمع الذي يتكون على الأساس الأخلاقي ويتمتع بذوق جمالي، ويسلك المسالك التي يهيمن عليها المنطق العملي؛ أي مسالكه لسد حاجاته اليومية بما يتعلمه في الجامعات.

إذن فنحن حين انطلقنا منذ ربع قرن تقريباً في العهد الذي نسميه (الحضارة العربية) أو الحضارة الإسلامية، وتشبثنا بالعلم، كأنه الشيء والألق الذي يحقق لنا كل ما نريده في حياتنا، فنحن كأننا استمسكنا بالربع من دورة تتضمن أربعة أجزاء.

إذن فيما أعتقد إن كانت قدّ نشأت (أزمة ثقافية) أو كانت الأمة العربية قد واجهت في ظرف ما أزمة سميت (أزمة ثقافية) فإذا كان هذا صحيحاً فالأزمة الثقافية قد تولدت لأننا تناولنا العلم على أنه ثقافة.

المحاضرة الثالثة

الحقوق والواجبات

ألقيت في جامع المرابط في دمشق أمام جمع من السيدات العاملات في الحقل الاجتماعي عام ١٩٧١م.

يليها مناقشة حول الأفكار المطروحة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

والصلاة والسلام على خير المرسلين

الحقوق والواجبات

إذ أتيح لي اللقاء بكن أبدأ بالتعبير عن سروري لما نُقل إليّ من خبر نشاطكن، وهو نشاط طالما تطلّعتُ إلى نشاط نسائي مثله في الجزائر، يقوم على سنة الله ورسوله. فمثل هذا النشاط -إذا استثنينا بعض المبادرات القليلة- لم يقم في الجزائر حتى الآن.

ففي البلاد الإسلامية الأخرى -تحت شعار التقدمية- قامت حركات نسائية على غرار ما يجري في البلاد الأوروبية غير الإسلامية، تطالب بما يسمونه حقوق المرأة. لكنني اليوم بينكن أراني في اجتماع لبناتنا المؤمنات المسلمات يقمن بالاضطلاع بالواجبات وليس بالحقوق. فالمرأة المؤمنة المسلمة لم تدخل بعد المعركة المصيرية. والمقصود بالمعركة المصيرية هي المعركة الحضارية، وليست الشعارات والكلمات التي تورطت بها بكل أسف في المجالات السياسية.

إذ كل ما لا يتصل بالناحية الاجتماعية والمشكلات التي تطرح على المستوى الحضاري فهو تضييع للوقت في الغالب، والدليل واضح، فكم ضيعنا من وقت بعد أربعين أو خمسين عاماً في المطالبة بالحقوق! ونتساءل اليوم ماذا حصلت المجموعات الإسلامية من نتائج وراء مطالبتها بحقوقها؟ إنها بين نتيجتين: فهي إما لم تحقق شيئاً، وإما حققت أوهاماً كتلك الأوهام التي علقت عليها أعلام الاستقلال. إذ بعد التضحيات الجسيمة التي تكبدها المجاهدون من أجل استقلال يستعيدون به المسؤولية في مواجهة مشكلات التخلف.

وما تحقق في المستوى السياسي الاستقلال وحده كحق من حقوق الأمة. إذ نحن في النتيجة نرى أن الاستقلال في شكله الصوري قد تخلف عنه المضمون، لذا أضحى سراباً لا يروي عطشاً.

لذا فبناتنا هنا اليوم في إطار نشاطهن يباشرن القضية الجوهرية بصورة مختلفة ومن نوع جديد جدير بأن يكون تجربة رائدة في العالم الإسلامي وعلى أوسع نطاق، وأرجو أن يخالط ذلك شعوركن فلا تبخسن قيمته. وهذا أمر لازم؛ إذ لا ينبغي أن تحجب أهمية هذا النشاط حين يتطلب الأمر بيان حقيقته وأهميته نموذجاً وقدوة.

فنحن نعلم أن الرسول ﷺ هو خاتم الأنبياء، إذ لا رسول بعده، فلو أنه جرياً على مبدأ التواضع أخفى حقيقته رسولاً تواضعاً منه- وحاشا أن يفعل ذلك رسول من ربّه- لما بلغتنا رسالته.

لذا فبناتنا حين يقمن بالواجبات فتلك جذور حضارية لا بد أن يشعرن بقيمتها مؤثرةً في التاريخ.

إنه النضال الشريف والبطولي والذي تكتنفه صعوبات نقدرها حين تصادفها معوقات من البيئة المحيطة والتي غالباً ما توحي بها النوايا السيئة والمعطلة في مختلف الجوانب.

كنت أتحدث في هذا الموضوع مع إحدى أخواتي هنا والبنات اللواتي قرأن كتابي (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة) يعرفن إلام أشير.

ففي كل نشاط فكري على العموم والنشاط الفكري المتصل بالإسلام على الخصوص يقع هذا النشاط مباشرة تحت (مجاهر) سميتها (مراصد الصراع الفكري في العالم) وهذه المجاهر ليست بكل حال إسلامية، حتى لو سخرت بعض الشخصيات أو بعض الجهات الإسلامية لتضييق الخناق على هذا النشاط، إذ هذه الجهات هي في النهاية مسخرة، وليست صاحبة الأمر في القضية.

أصحاب الأمر ليسوا في بلادنا، بل خيوطهم، وأحياناً تتسرب من حيث لا

ندري إلى عقولنا. بمعنى أننا ننساق وفق خططهم دون أن نشعر، وهذا كله يحدث في كل موقع.

نحن إذن نقدر الصعوبات التي تواجهها بناتنا في هذا النشاط الإسلامي، لأنه عمل رائد كما أشرت، سواء في دمشق أو في فرعكم الآخر في لبنان، إذ في هذه الرقعة الإسلامية التي نسميها الشرق الأوسط لا بد أن تنتشر دعوتكن النبيلة النزيهة، إذ بقدر هذه النزاهة عليها ألا تتورط في الأحوال السياسية كما تورطت حركات أخرى من أبنائنا الكرام بحسن نواياهم أحياناً فضيعوا أنفسهم وضيعوا على إخوانهم الفرصة للاستفادة من نشاطهم وجهادهم وتضحياتهم.

. لا بد أن نستفيد من هذه الدروس والتجارب القاسية أحياناً والعذبة أحياناً أخرى، لأنها في النتيجة هي دروس المحنة الإسلامية في مستوى النخبة. ولأنني أشعر في مبادراتكن كل وعي وتقدير وموضوعية، وتجدر الاستفادة كذلك من تجارب الآخرين ذوي المناهج الحزبية سواء شيوعية أو غير شيوعية، حيث يجرون مراجعة لنشاطهم في معيار من الدقة.

لذا لا بد من المراجعة الدائمة بمعيار من الحكمة والفكر الدقيق، حتى أن التجارب الفاشلة حين نضعها تحت المجهر نحللها لنرى لماذا وقع الخطأ؟ وماذا نتج عنه؟ حتى لا نتورط فيه، ولا تأتينا من حيث لا نشعر ولا ندري النتائجُ، السلبية مرة أخرى، التي كثيراً ما تصدر عن نوايا حسنة، لكن بغير حكمة وتأمل وتحليل للأشياء، لذا يجب أن تحصن نشاطكن من هذه الناحية حتى لا تبقى أبواب الخطأ وأبواب الانزلاق في الأوحال على اختلافها، فيما الأوحال السياسية هي الأكثر وضوحاً، لكنها ليست فريدة من نوعها.

نتمنى أن تكون هذه الخبرة الشيء الذي يسجله تاريخنا القريب، أي العقود الأخيرة من مسار العالم الإسلامي، وذلك حين ندرس ونحلل الفشل في كل أمر سواء في المجال الثقافي أو في المجال الاجتماعي.

لا بد إذن أن نخرج من ذلك كله بتقويم ينير لنا معالم الطريق، هذا أولاً، والشيء الآخر أن تُكوِنَّ من تجربتكن هذه نموذجاً يحتذى في العالم الإسلامي، إذ إنّي أراها فعلاً تجربة رائدة من كل جانب.

فهي رائدة في إدراك القضية في المستوى الحضاري. فبناتنا في العالم الإسلامي لما يقمن بهذا الجانب المهمل من نشاطهن في سائر هيئاتهن ومنظماتهن، حيث اقتصْرن على المطالبة بالحقوق، لكن نشاطكن ينصرف إلى القيام بالواجبات، وهذا أمر رائد في النشاط الإسلامي للنساء.

وإذا أعطينا هذا المفهوم معناه فإن الواجبات تمنحنا إياه الآية الكريمة بأبلغ بيان: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ [البلد: ٩٠/ ١٠-١١].

فما النَّجدان؟ إنهما الطريقان اللذان تشير إليهما الآية الكريمة، والتوضيح هو في الآية نفسها: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ٩٠/ ١٠].

فنحن نكمل تفسيرنا واجتهادنا فنقول: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ [البلد: ٩٠/ ١١]لأن طبيعة الإنسان ومزاجه قد ورطاه في طريق السهولة، في الطريق الأيسر، في الاستسلام إلى ما يسمى الواقع.

فهذا كله يقوم على اختيار أساسي يكون في الحقيقة جوهر الثقافة والأساس الذي تبنى عليه مصائر النشاطات كلها ومصائر البشرية في النهاية.

فما الاختيار؟ أهو المطالبة بالحق أم هو واجب؟

إن فطرة الإنسان وطبيعته جعلته يختار طريق السهولة، إذ الغريزة تميل إلى حقها في إشباعها كالحيوان. لذا فأيسر السبل هو طريق المطالبة بالحقوق هذه. فطبيعة الإنسان حين تفتقد الإرادة تشبه طبيعة المادة نفسها.

نضرب مثلاً كرة نضعها في النقطة الفاصلة بين عقبة صاعدة ومنحدر فإذا تركناها

فهي تنطلق في المنحدر، لأنها تفتقد طاقة الصعود والتفرد. ومن يقول خلاف ذلك يخدع نفسه.

الإنسان في طبيعته لا يختلف في هذا أساساً عن الكرة هذه التي توضع بين عقبة ومنحدر، فهواه ونزواته النفسية وشهواته ومزاج البشر يجعله يستسلم غالباً للمنحدرات، لأنها الأيسر والأقرب، فالنزول أيسر من الصعود لكن النتائج تختلف.

فالإنسان الذي ينزل ليس كالإنسان الذي يصعد السلم، والذي ينزل لا يستطيع سوى الخروج من الباب، أعني الخروج من المسؤوليات الكبرى التي يقتضيها الصعود.

فإذا نزلنا سلم التاريخ، إذا تنازلنا عن الواجبات، إذا التفتنا عنها وتشبثنا بما يسمى بالحقوق- وأنتن تعلمن بكل أسف وقع تمجيد الحقوق في نصف القرن الأخير، وما أعطى من هزائم- فما الذي سنجنيه؟!

ففي العشرينيات من هذا القرن انطلقت كلمة سعد زغلول باشا: «إن الحقوق تؤخذ ولا تعطى» رحم الله زغلولاً، ربما هذا الشعار لم يفده شيئاً، لكنه أضرَّ بنا في النهاية.

فحين نحاسب الآن أنفسنا لنصف قرن مضى نرى أننا خسرنا إذ تورطنا في هذا التيار.

طبعاً الحقوق كلمة عذبة فيها جانب أدبي مرموق، فيها جانب مغر وقد أغرتنا فعلاً هذه الكلمة، حيث أصبحت شعار الأحزاب السياسية في البلاد العربية على وجه الخصوص والإسلامية طبعاً.

أما أنها شعار البلاد العربية فلأنها التقطت هذه الكلمة، وجعلت منها قطباً تتجه إليه، ومن ثمَّ أضحت أساساً تبنى عليه اتحادات؛ اتحادات تأتينا فكرتها من الخارج

من أوروبة مثلاً تتحد لتحصيل حقوق المرأة. بينما نحن بينكم نشهد اتحاداً من نوع آخر، نعم إنه اتحاد، وها هو ما تقمن به، لكن من أجل القيام والاضطلاع بالواجبات. أي من أجل اقتحام العقبة، وليس من أجل النزول والتنازل، إذ النزول خروج من المسؤوليات. لذا أرجو هنا لبناتنا إدراكاً لقيمة هذا الموقف، وأشكر الله إذ أنتنّ اخترتنّ طريق الواجبات فنجوتنّ، ونجا معكنّ من هو في ركبكنّ.

من الطبيعي أن كلمة الواجبات حين ترتبط بمفهوم العقبة يعني أنها ترتبط بالجهود التي تبذل من أجل اقتحام العقبة، إذ ليس من الميسر في أساس اقتحام العقبة سوى إرادة الإنسان من هنا. والثقافة تنطلق من هذا الاختيار، فحين نختار جانب الواجبات تتحدد تلقائياً ثقافة جديدة، ثقافة في المستوى الحضاري فعلاً، تتحدد تلقائياً سياسة جديدة. فلو أن إخواننا المسلمين منذ نصف قرن مثلاً تشبثوا في جميع الأقطار الإسلامية بمبدأ اقتحام العقبة لما كانوا على ما هم عليه اليوم، سواء في باكستان أو في غيرها.

ونبني على أساس هذا الاتجاه مشكلة الصدى الكبير على ما أظن في مجتمع القرن العشرين (أواخر القرن العشرين) هي الاقتصاد. فكلمة الواجبات تحدد اقتصاداً معيناً، وكلمة حقوق تحدد اقتصاداً آخر.

فنحن نعلم أن كلمة اقتصاد لها رنينٌ وطنين في السياسات وفي الآداب وفي العقول عجيبٌ، ولا بأس في هذا. لكن يجب علينا أن نفرق بين الاقتصاد الذي يقوم على اختيار الواجبات، والاقتصاد الذي يقوم على الحقوق إنما ليس مقابل عمل يصب في بناء مجتمعه.

والجانب الآخر الذي يسمونه (نقابات العمال) في هذا الجانب أصبح العامل اليوم يتقاضى أجرته، بينما حين تكون حضارة ما في صعود يكون الاختيار إلى جانب الواجبات وليس إلى جانب الحقوق، حينئذٍ يتحدد نوع من الثقافة، نوع من سياسة،

نوع من اقتصاد، يصبح فيه مردود العامل في المجتمع (العامل المنتج) وهو ما نسميه اليوم منتجاً في الاقتصاد، أي إن مردوده في المجتمع أكثر مما يتقاضى بكثير.

وهنا لنا من هدي النبيﷺ دروس أمام هذه المشكلة. إذ لنا من بعض رموز النبي ﷺدروس عميقة؛ دروس اجتماعية في صورة رموز بسيطة. يأتيه يوماً أعرابي يسأله أي (شحّاذٌ) يطلب ما يقتات به. ففي هذه اللحظة الأعرابي يطلب حقاً مشروعاً له في الزكاة. إذن لم يطلب شططاً، بل يطلب حقاً مشروعاً له في الزكاة من بيت مال المسلمين، والنبيﷺ أعلم بهذا منا، ولكنه لا يحل القضية على أساس هذا الحق، بل يحلها على أساس الواجب فيشير على الصحابة (رضوان الله عليهم) الذين كانوا حوله فقال لهم: «جهزوا أخاكم كي يحتطب» فهو هكذا علمه كيف يأكل من صنع يده، يأكل من قوته حلالاً، ومن كده، ومن اقتحامه العقبة، حين كان متيسراً. والنبيﷺ أسخى من الرياح السخية في الربيع، ولكنه أراد أن يقدم درساً أولاً لهذا الإنسان، ويحوله في الوقت نفسه من مجرد مستهلك يعيش على كاهل المجتمع الناشئ إلى منتج، فهو بقدر ما هو منتج يستطيع أن يجمع الحطب فهو العامل المنتج.

إذن بقدر ما نختار طريق الواجبات أو طريق الحقوق نقرر في الحقيقة مصير المجتمعات ثقافياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً. أي مصير الدول ومصير الأمم ومصير البلاد كما هو الواقع، وكما نراه خصوصاً خلال الأحقاب الأخيرة من تاريخنا حين فضلنا جانب الحقوق.

ولا يفوتني هنا أن ألاحظ شيئاً. فالمطالبة بالحقوق أظنها انطلقت خصوصاً في الحقل السياسي، إذ تكونت على أساس ضعف ثقافتنا، ضعف مستوانا الثقافي، ضعف إدراكنا للمشكلات الاجتماعية والمشكلات السياسية على العموم، حيث اعتقدنا أننا سنحلها بالكلمات والشعارات والصراخ والمناداة بالحقوق، كما فعل رحمه الله زغلول، لكن التاريخ ومجرى الأحداث بعده كشف عدم الجدوى في هذا الاتجاه على الأقل، نقول عدم الجدوى (هذا في المجال السياسي).

أما في المجال الاجتماعي مثلاً مجال النشاط النسائي في أوروبة، حيث نرى المرأة الأوروبية تطالب بحقوق المرأة والمساواة وكلام من هذا.. إلخ. فلنتساءل هل هذه المطالب أتت في وقت تصعد فيه الحضارة الغربية أو الأوروبية أم في الوقت الذي هي فيه تهبط؟

الحضارة الغربية حين ننظر إليها عن كثب ونتفحص أمرها نرى أنها الآن بدأت في نزول السلم السهل، فالحضارة التي كانت تقتحم العقبات في العالم، وفي الاكتشافات الجغرافية الكبيرة في القرون الأربعة الماضية، هذه الحضارة التي طالما اقتحمت العقبات، لم تكن المرأة فيها ولا الرجل (المرأة على وجه الخصوص) مطالبة بحقوقها. هذه المرأة الأوروبية قد يبدو مكانها في المجتمع الأوروبي يهضم حقوقها، وكان فعلاً يهضم بعض حقوقها.

أما المرأة المسلمة (والحمد لله) فالإسلام لم يهضم حقها منذ أشرق في العالم إلى اليوم.

ففي أوروبة وسويسرا مثلاً لا تستطيع المرأة أن تملك بيع ممتلكاتها، ولو إرثاً عن أبيها إلا بإذن زوجها، بينما المرأة المسلمة تمتعت بهذا الحق منذ نزل القرآن الكريم، فأعطيت حقوق. بل هنا أكثر من هذا في الحقيقة. فالمرأة المسلمة الكريمة والحمد لله تفضل الله به علينا بأمهات مؤمنات قانتات مسلمات، نتذكر وجوههن الكريمة، فنرى كيف كان دور هؤلاء النساء مثلاً في تنشئة الأطفال في السياسة المنزلية، حيث إن أي أسرة ندرس حياتها المنزلية مثلاً منذ جيلين أو ثلاثة أجيال، نرى أن الكلمة فيها هي للأم في البيت أكثر من أي شيء آخر، ولكن على شرط أن تكون المرأة في مركز تطاع فيه، وفعلاً حين نراجع حياتنا نحن وقد أصبحنا على أبواب الشيخوخة نرى أن الإرادة الفعالة في حياة أسرنا كانت في البيت لأمهاتنا. لهن الفضل في ترتيب شؤون البيت والفضل في تنشئة الأطفال.

أمي علمتني، وهي أمية لا تقرأ ولا تكتب الكثير، لقد تفضل الله عليها بعقل

مستنير، تدرك الأشياء بالبداهة، وتتكلم كلاماً منطقياً، ربما نرى بعض المثقفين اليوم في الجزائر أصحاب الشهادات العليا يتحدثون منطقاً هو أدنى من منطق هؤلاء الأمهات الطيبات اللواتي كن يحتضنّنا في أحضانهن.

فالأم، أعني المرأة في وظيفة الأمومة، مكرمة مبجلة محترمة، مقدرة في المجتمع الإسلامي، ولم تكن في حاجة إلى عيد الأم. لكن أوروبة بحاجة لهذا العيد كي تذكر ما نسيت، أو تناست، حين تمزقت علاقات الأسرة كلها، تمزقت حين بدأ المنحدر الحضاري في أوروبة، إنني كنت منذ قريب في رحلة إلى أمريكا، أي منذ أربعة أشهر، وقد فوجئت بمعلومات كنت أجهلها يبدو منها اليوم أن الأم والأب كليهما لا وزن لهما في تصرف الأبناء والبنات.

فالبنت حين تبلغ سن المراهقة أو سنتين بعد المراهقة تخرج من بيت أبيها وتستأجر بيتاً حتى في العمارة التي يسكن فيها أبوها وأمها، وهي لا تزور أمها إلا في المناسبات الكبرى. وهذا معناه أن علاقات الأسرة تمزقت، وأن الأم انتهت كأم، ولم يعد لها سلطة على أولادها تضمن لهم التربية والحكمة التي هم بحاجة إليها. لقد ضاع الآن في أوروبة- وخصوصاً في أميركا- احتضان الأم لبناتها والأب لأولاده.

لذا حين نرى اتحادات نسائية تتشكل للمطالبة بالحقوق يبدو ذلك شيئاً غريباً، شيئاً يحيرنا، لكن حين نرى اتحاد بناتنا من أجل القيام بالواجبات نقول هنا: ثمة عهد جديد، إنها إرهاصات تبشر بشيء جديد. إذ إنني أعلم ما لتأثير بناتنا حتى في عمرهن الآن في هذه المرحلة من حياتهن في المجتمع، وخصوصاً حين يؤسسن بيوتهن وأسرهن على التقوى إن شاء الله، وهذا هو المتوقع من اتحاد مثل هذه الحركة النبيلة، ندعو الله أن يبارك فيها.

إننا ننتظر أن تكون تجربتكن هذه فعلاً تجربة رائدة، ليس في دمشق فحسب، بل أن تنتشر وتتكون بقدر الإمكان دون استعجال، وخصوصاً دون وضع المحراث قبل الثور، إذ يجب أن تأتي الأشياء في وقتها وفي مكانها.

يجب أولاً أن نستمسك بالصبر فالعقبة ليست سهلة .﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾ [البلد: ٩٠/١١-١٢].لم يكرر الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾ [البلد: ٩٠/١٢] إلا تمجيداً وتشجيعاً وتقديراً لاجتهاد وكدٍّ من يقتحم العقبة.

فأرجو الله أن يأخذ بأيديكن وأن يُيَسِّر لكنَّ الأمر حتى تصعدن هذه العقبة التي سوف تجدن عندما تصلن إلى قمتها أنكن وصلتن بالمجتمع الإسلامي إلى مستوى الحضارة الحقيقية.

مناقشة

السؤال:

بالنسبة إلى المرأة الأوروبية والوضع الأوروبي ماذا نستطيع تسميته؟ انحطاط خلقي أم تفكك عائلي؟

الجواب:

نعم يجوز أن نسميه انحطاطاً خلقياً، لكن المشكلة هي أهم من هذا. إذ حين نحدد الظاهرة عموماً يبدو أن هذا عرض من أعراض الانحطاط الخلقي نسميه انحطاطاً حضارياً. فالانحطاط الحضاري له مفهوم أعم يشمل الذوق الجمالي، أعني الهبوط الفني.

فنحن نعلم أنه في عصر النهضة في أوروبة نمت الفنون التي تسمى الفنون الجميلة. وكانت فعلاً فنوناً جميلة. فاللوحات التي صنعتها ريشة الفنان ليوناردو دافنشي مثلاً أو ميكال أنجلو أو سواهم في ذلك العصر، كانت تمثل فن الجمال، وفن القيم الجمالية، وهكذا نرانا من قمة هذا الجمال الأوروبي نهبط لنرى اليوم فناً اسمه فن (بيكاسو)، ومن لوحاته مثلاً لوحة اسمها عنزة بيكاسو، أنا إلى الآن أنظر إلى اللوحة وأحللها وقد أخذت عنها صوراً، لكنني لم أجد هذه العنزة، لي عشرون سنة أحلل، ويأتي من يقول لي: هذه عنزة. شيء غريب. هكذا أصبحت في ظل الانهيار التاريخي للحضارة تنحط القيم الحضارية كلها.

هذا الانهيار تمهّد له إرهاصات تسبقه، إذ الأزمة الاجتماعية لا تتطور بسرعة كما هي أزمة فرد أو أزمة أسرة، الأزمة الاجتماعية تبقى أحياناً بعد إرهاصاتها الأولى، ربما قروناً، ولكن الانهيار يأتي في النهاية، والآن أخشى أنه لم يعد أمام الحضارة الغربية قرون، وهذا ما أعتقده، بل على العكس فأنا حين عدت من أمريكا دعيت لمحاضرة في قسطنطينة في رمضان الأخير، فكانت محاضرتي عنوانها (دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين) وكان فحواها أو محتواها أن التيارات التي تكونت خلال هذا القرن بعد الحربين العالميتين أدلت بنتائج سلبية، وهي سوف تصبّ في الثلث الأخير من هذا القرن. أعني أن هذه النتائج ستصبح حقيقة واقعية قبل سنة ألفين، كما يقولون من هذه النتائج المتوقعة أن المجتمع المسيحي اليوم انتهى. ونستطيع أن نقول: إنَّ القيم الأخلاقية انتهت معه، أعني القيم الأخلاقية في أوروبة.

لكن القضية هي أخطر من هذا.

فالمسيحية انتهت لأنها لم تستطع في هذه المرحلة الأخيرة من التاريخ الأوروبي أن تجيب عن الأسئلة كلها التي طرحها العلم والفكر الأوروبي.

هذا أولاً.

ثم إنه بعد الحرب العالمية الأولى والثانية تكونت ثغرات في الجهاز الروحي الذي كان هو الركيزة التي ترتكز عليها الحياة الأوروبية.

فلما تكسرت هذه الركيزة أو كادت أو ضعفت أضحت الحياة الأوروبية وكأنها قائمة على الفراغ؛ على لا شيء، إذ بدأت المرحلة التي يسمونها بدورهم مرحلة الفراغ الروحي.

فالفراغ الروحي ينتج منه انهيار أخلاقي ينتج عنه التيه، تنتج منه الوجودية؛ لأن الوجودية معناها يدخل في هذا السياق؛ لأن معناها البحث عن أسباب وجود أخرى حين فقدت الأسباب التقليدية.

فمسوغات الوجود التي عاش عليها المجتمع الأوروبي في عنفوان شبابه وفي قمة

حضارته بدأت تفقد جدواها في الثقافة الأوروبية، لكنها تبدو في النفوس الأوروبية أكثر بروزاً، إذ بدأت تشعر بفراغ.

فالفراغ هذا إما أن يمتلئ بالتفاهات كالوجودية أو أشياء أخرى كالانحلال الخلقي، أو يعوض بطريقة أخرى، أو يحول إلى نوع من عملية تناسي النسيان حين ينطلق الشباب والشبان في أمريكا بالخصوص في تناول المخدرات حتى يتناسوا الحياة كيلا يشعروا بفراغها، يريدون أن يملؤوه بأي شيء يأتي.

فهذه هي صورة الفرضية. وهذا انهيار أخلاقي ثقافي وانهيار ربما اقتصادي أحياناً في بعض البلاد.

في المحصلة: هذا انهيار حضاري.

هذه الحضارة قد انسحبت من اتجاه العقبة واقتحامها من الجانب السلوكي (رغم قوة التكنولوجيا والآلة؛ لأن مفهوم العقبة هنا العقبة السلوكية عبر نوازع الخير) بل هي بدأت في اتجاه المنحدرات وهذا هو المهم.

السؤال:

لو حاولنا أن نعيد حضارة إسلامية، أفلا تتضارب هذه مع مشكلة القومية، واختلاف الثقافات في البيئة الإسلامية بصورة خاصة، يعني اختلاف مفهوم الثقافة الإسلامية، ومفهوم تضارب القوميات.

ألا يحدُّ ذلك من النشاط الإسلامي، أو من إعادة الحضارة الإسلامية؟

الجواب:

الحلول تأتي أولاً من طبيعة المسيرة التي نسيرها اليوم. ومن هنا يجب أن يتقدم ويسبق تأسيس الحضارة الإسلامية في هذه المجتمعات تصفية النتائج السلبية والتجارب السلبية التي عشناها والتي سعينا إليها سعي المنتحر إلى الموت.

يجب أولاً أن تفشل هذه التجارب جميعها. ونحن نرى أننا في هذه المرحلة من القرن

العشرين فعلاً على وشك اليقظة من فشل التجارب التي سبقت، ومنها تجربة ما تسميه ابنتي القوميات. حتى في أوروبة فشلت.

الفكرة أساساً هي من أوروبة، وهي فشلت في عقر بيتها، كما نعلم، لأن أوروبة أصبحت الآن تؤكد كيانها الاقتصادي مثلاً على مفهوم جديد، وهو مثلاً السوق المشتركة الذي يضم عشر دول من أوروبة. ومعنى ذلك أنها أدركت أن القوميات قد أضرت بوجودها، وفعلاً أضرت القوميات بوجودها منذ بداية هذا القرن حين ظهر هذا الضرر في مصير أوروبة جميعها.

فنحن اليوم في نهاية المرحلة تقريباً لكن هذه المرحلة في إطار مجتمعنا قد لا تخلو من إيجابيات، إذ يجب أن نشير إلى بعض الجوانب الإيجابية فيما قام به مفهوم القومية في مرحلة مقاومة الاستعمار في الشعوب العربية والإسلامية، من هنا ربما يكون قد أفاد مفهوم القومية. أقول: قد يكون، لأنني أنا لا أعتقد ذلك، لكن لا يضر في أن أسلم بهذا جدلاً.

لكن القومية أضرت أولاً بمن شيَّدها، وهو أوروبة، وانتقلت إلينا ملتوية وعن طريق ملتوية، نعرف بعضه وربما لا نعرف بعضها الآخر. ولكن نحن الآن على ما أظن في منعطف تاريخي كما هو في أوروبة، ومنعطف سياسي يتبين فيه فشل التجارب السابقة جميعها وإفلاسها، ولأن التجارب السابقة كلها قد فشلت وجب علينا أن نصفي في النهاية الحساب.

إذ يأتي السؤال التلقائي يفرض نفسه على عقولنا؛ ماذا نصنع الآن؟

إذا فشلنا في مشروعنا الاقتصادي على أساس القوميات. إذا فشلنا في مشروعاتنا السياسية على أساس القوميات. إذا فشلنا أيضاً في مشروعاتنا الثقافية على أساس القوميات حتى انحطَّ مفهوم الثقافة على مستوى فولكلوري، ثم أصبحت كلمة ثقافة تعني (فولكلور الرقص والغناء) وقلنا: هذه هي الثقافة. بينما الثقافة شيء آخر، شيء أعظم من هذا وأجلُّ من هذا بكثير. لا بد أيضاً على العالم الإسلامي أن يتخلص من

هذه الرواسب التي نسميها (القرن التاسع عشر والقرن الثامن عشر الإفرنجي). وأعتقد أنه سيخلص منها بخبرته وتجربته التي بدأ يكتوي بها منذ الآن.

لو تساءلنا:

كيف قامت قضية فلسطين؟ وما جذورها؟

إن جذورها كما نعلم وجدت مجالها في العالم العربي والإسلامي منذ عام ١٩٠٨، إذ بدأت الفكرة تنبت في العالم العربي وفي البلاد العربية بأن على العرب أن ينادوا بحقوق الأمة العربية.. إلخ.

بالمقابل نادى الأتراك بالطورانية (الاتحاد والترقي). أسست حركة الاتحاد والترقي كما أظن عام ١٩٠٦م، في تركية. حاولت هذه الحركة عزل الأتراك عن العالم الإسلامي. والحركة المضادة لها (الحركة العربية) حاولت أن تعزل البلاد العربية عن المجتمع الإسلامي.

النتيجة جاءت فوراً. إنه وعد بلفور، ومبدئياً منذ ذلك الحين تقرر مصير فلسطين. إنما كانت الحكمة والسياسة الإنكليزية حكيمة كما نعلم بتأجيل وعد بلفور إلى حرب أخرى. وإذ أتت الحرب الأخرى تحقق وعد بلفور عام ١٩٤٨. في إطار هذا الفاصل بين الحربين كان لا بد في مقابل تحقيق وعد بلفور أن يحدث أمر لم ينتبه إليه السياسيون المسلمون في ذلك العهد، لأن النشاط أصبح مهتماً بقضية الحدود، فلم تعد هناك قومية، بل قوميات محلية سورية، قومية لبنان، قومية الكويت، أصبحت قومية أي مجرد مدينة أصبحت قومية، وعندها جوازاتها، وتونس طبعاً قومية.. إلخ. فسورية استقلت طبقاً لتقرير تشرشل على الحكومة الفرنساوية في سنة ٤٤ - ٤٥، وكذلك لبنان، ولكننا لم نفكر أن هذا كان تمهيداً لتنفيذ وعد بلفور ليس إلا.

فتشرشل لا يفكر في خير العرب سواء كانوا سوريين أم لبنانيين. ولكنه أراد تنفيذ وعد بلفور في فلسطين محتفظاً في الوقت نفسه بما يسمى الصداقات العربية.

فهنا نؤسس دولة جديدة اسمها سورية، ودولة اسمها لبنان، مقابل إنشاء دولة

إسرائيل من ناحية أخرى على حساب شعب كامل لطرده من أرضه على مبدأ أخذ وعطاء ضمن الفضاء البريطاني.

وهكذا نرى الآن أن القضية القومية قد أفلست نهائياً، وخصوصاً في المجال الاقتصادي.

أنا في هذا لا أريد أن أتورط في شيءٍ لا أعنيه. فأنا لا أريد أن أقول يجب أن نقاوم مثلاً مفهوم القومية. لا أقول هذا؛ إذ ربما كان في وحدة العرب الخطوة الأولى نحو تأسيس مجتمع إسلامي متحضر، لكن إذا التفتنا إلى كلمة قومية عربية في مضمونها كما تأسست في أوروبة فسوف تأتي تحت هذا الشعار قوميات أخرى، مثلاً كالقومية الكويتية، القومية العراقية، القومية اللبنانية، طبعاً القومية الجزائرية، وأنا أنتظر في الجزائر أشياء أخرى. إذ الآن توجد مخططات استعمارية كما حدث- أظن عام ١٩٣٦- تقسيم الشام إلى لبنان وسورية، الآن يفكرون في تقسيم الجزائر إلى بلاد عربية وبلاد بربرية بحيث قد تتأسس على أرضنا قوميتان، القومية العربية والقومية البربرية. هذا يا ابنتي ما أراه طبعاً.

يا بنتي أنا ذهبت إلى الخرطوم بدعوة من الجامعة الإسلامية سنة ١٩٦٩ فوجدت جهداً إسلامياً مرموقاً ونشاطاً مباركاً، ولكنني شعرت بأن هناك شبه تمزق داخلي في النطاق الإسلامي، فخشيت عليهم بسبب هذا التمزق الداخلي، وحاولت أن أجمعهم في حلقة واحدة لأنسق الخطة. وفي الليلة التي اجتمعنا فيها تغيب أحد الطرفين فأسفت لذلك. وقد شعرت بالحدس في الحقيقة أن الحركة لن تستمر وفعلاً كان. إذ عندما رجعت إلى أهلي في الجزائر لم يلبث أن انقض عليهم العدو فقضى عليهم جميعاً.

هذه هي الحقيقة. الحمد لله هذا ليس اختلافاً جوهرياً. فأنتم جميعاً تحومون حول مركز واحد هو الله والإسلام، ولكني قلت شيئاً متعمداً لأنني أعرف أن الجهد الإسلامي القائم هو سبب نكبتهم. وأقول لهم إن لم يدخلوا في المعركة الاجتماعية

الحضارية أخشى عليهم أحياناً تفجر وسطهم الاجتماعي ومحيطهم الاجتماعي العادي (يعني الطبيعي) إذ إنَّ مجتمعهم نفسه سوف يتمرد عليهم. هذا ما حدث عندنا؛ إذ بدأ الشباب يتمرد بسبب القيادة الدينية. الشباب الجزائري اليوم يعيش حالة تمرد على القيم الأخلاقية، القيم الإسلامية، لماذا؟ لأنه لقن أسلوب الشيطان. إذ كلما تقدم الإنسان إليه للكلام على واجباته الدينية يواجهه هذا بمنطق الواقع فيقول: لو كانت تفيد الواجبات الدينية لما كان العالم الإسلامي متخلفاً. وهذا منطق الأعداء، أعداء الإسلام، هذه هي لغتهم، ونحن اليوم في هذه السنة مثلاً سنة ١٩٧١ وفي الثلث الأخير من القرن العشرين نواجه ملابسات خطرة جداً.

. إما أن نصفي حساب كل الأديان على شرط أن يقوم المسلمون بدورهم في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين كما تتطلب الظروف، وليس كما ترغب نفوسنا. رغباتنا دائماً تريد الخير، ولكن هذا لا يكفي وحده. لا بد أن يتم هذه النفوس وظيفة اجتماعية حيث تتحقق ميولها نحو الخير بشيء واقع يكون بالنسبة إليها نعمة من الله. أولاً، وثانياً رداً لأعداء الإسلام؛ سواء أعداء الإسلام في الداخل - مثلاً هذا الشباب المتمرد اليوم - أو أعداء الإسلام المبشرين والشيوعيين في الخارج الذين يحتجون على الإسلام بما هو وضع المسلمين، إذ أصبح المسلمون اليوم حجة على دينهم. وإما أنه يجب على هذا الأساس أن يتركز -في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين- الفقه الإسلامي -سواء من هذه الحركة أو من تلك- على تحقيق ما يرفع المسلم إلى مستوى الحضارة.

إذا رفع المسلم نفسه إلى مستوى الحضارة يستطيع عند ذلك أن يحقق وعد الله. ووعد الله لا حاجة له بالمسلم ولا بمساهمة المسلم لتحقيقه، نحن نعلم هذا، ولكن يجب على المسلم أن يساهم في تحقيق ما وعد الله به المسلمين والعالم والرسول الذي أنزل عليه قبل كل شيء كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٣٣].

في ظاهر الأمر يتحقق ذلك بشرطين، وفي واقع الأمر، يتحقق بشرط فما هو هذا الشرط!

أن يرتفع المسلم إلى مستوى الحضارة.

لماذا؟

ليعيد لنفسه الكرامة أمام نفسه أولاً وأمام الآخرين ثانياً، فالمسلم اليوم مهان في كرامته بوصفه مواطناً عالمياً. الآن المسلم يمشي على أرض مهانة حيث أحياناً يحتقر المسلم أخاه وأحياناً يحتقر من قبل أعداء الإسلام. إذن يجب أن يرفع المسلم نفسه أولاً إلى مستوى الحضارة.

•

المحاضرة الرابعة

المرأة والرجل أمام واجبات واحدة في مرحلة النهضة

ألقيت في جامع المرابط في دمشق أمام جمع من
السيدات العاملات في الحقل الاجتماعي عام ١٩٧١
يليها مناقشة حول الأفكار المطروحة

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

والصلاة والسلام على خير المرسلين

المرأة والرجل أمام واجبات واحدة في مرحلة النهضة

جاءني سؤال من بعض السيدات، بخصوص توجيه المرأة في المجتمع الإسلامي، وقد تكرر هذا السؤال أكثر من مرة، وسبق لي أن تحدثت في هذا الموضوع. والآن أقول:

لقد طرحت مشكلة المرأة منذ ربع قرن تقريباً في كتابي (شروط النهضة) وعقدت لذلك فصلاً خاصاً يهتم بالجانب الاجتماعي للمرأة المسلمة، سواء عندنا في الجزائر أم في بلاد أخرى، وذلك عندما شعرنا بتيار جارف نحو عام ١٩٤٧ يجرف المرأة المسلمة في الاتجاه السيِّئ الذي نرى اليوم بعض نتائجه.

لذا حين حللت هنا في دمشق حمدت الله؛ لأنني وجدت أخواتي وبناتي مهتمات برعاية سلوكهن بما يقربهن من الله، ويجعل منهن مؤمنات صالحات في المحيط الاجتماعي.

وكتابي الذي أشرت إليه لا يزال بعد ربع قرن من صدوره بالعربية يحمل في فصل المرأة الجواب عن توجيه المرأة، موضوع السؤال.

وإذ يثير السؤال الموضوع من جديد فقد وجدت وأنا أقلب كتاباً آخر من كتبي (في مهب المعركة) مجموعة مقالات عالجت في فترة ما بين ١٩٤٧ - ١٩٥٠ مجمل النشاط الإسلامي، ومنها مقالتان تناولت فيهما قضية المرأة أيضاً، وربما لمزيد من التوضيح

أرى هنالك فائدة لابنتنا المؤمنة في الاطلاع على تلك الجوانب التي طرحناها في هذين الكتابين. ويكفيني ذلك إشارة إلى قضية المرأة إذا شئنا أن نخصها بحديث مستقل، وأؤكد هنا أننا نفرد لها حديثاً خاصاً استجابة للسؤال، لكنه غير مستقل عن المشكلة الأساسية لدور الإنسان رجلاً أو امرأة في إطار الواجبات.

ففي كل مجتمع، عندما يكون هذا المجتمع مهدداً بأخطار معينة، وتكون هذه الأخطار محدقة بمصيره ينشأ في المجتمع (حالة إنقاذ) وعندئذٍ فالرجل والمرأة على حدٍّ سواء في الواجب، إذ القضية هنا قضية المسلمة والمسلم معاً، لا قضية المسلمة من جهة والمسلم من جهة أخرى.

والقرآن الكريم إذا تتبعنا آياته في هذا الإطار فإننا نجد فيه خطاباً واحداً للمسلم والمسلمة معاً في الواجبات، باستثناء ما يخصها من الآيات في شؤونها وحقوقها الشخصية بوصفها أنثى، لكن ما سوى ذلك فإنه لا يوجد أي فاصل من الفواصل - التي تروج بعمقها اليوم بكل أسف- بين الرجل والمرأة، ومن يقرأ (سورة النساء) وما قاله ربُّنا قد يكفي في قضية المرأة.

فالقرآن قد تضمن وصايا عامة للمسلم، سواء كان رجلاً أو امرأة، لذا فمن واجب بناتنا، وخصوصاً منهن المثقفات، إدراك دورهن أولاً في القيام بواجباتهن في العبادات، وهذا طبيعي، لكن عليهن ثانياً ونتيجة للقيام بهذه الواجبات أن يعين أكثر من ذلك المرحلة التي يمر بها العالم الإسلامي، وذلك بإرشاد آبائهن وإخوانهن وأزواجهن وأبنائهن إلى مقتضيات الواجب الديني أولاً، والتأكيد ثانياً على وحدة المشكلة، أعني ردم تلك الفواصل التي استأثرت بالأزمة التي يمر بها العالم الإسلامي بين المرأة والرجل في إطار الحقوق والواجبات.

في هذا الطريق لا شك سوف تلاقين عقداً ورثها العقل الإسلامي والفكر الإسلامي من ماضيه القريب بعد خروجه من الحضارة. إذ ورث أشياء متعددة، بعضها صحيح، وبعضها أحدث عقداً انحرفت به عن التصرف السليم.

لقد ذكرنا لبناتنا في محاضرة سابقة -على ما أعتقد- أن طرح مشكلة المرأة في النشاط الإسلامي قد بدأ منذ العهد الذي نسميه (عصر النهضة الإسلامية) أعني عهد جمال الدين الأفغاني رحمه الله ورفيقه الشيخ محمد عبده، فالفكر الإسلامي يحمل منذ ذلك الوقت عُقداً في الوقت الذي كان عليه أن يواجه مُشكلات الإنسان بوصفه مسلماً. أي فرداً اجتماعياً اعترته بعض الأمراض بطريقة طبيعية لا شذوذ فيها أيضاً.

فالتاريخ يحتمل دائماً مرحلة الهبوط، وبعد الشباب لا بد من شيخوخة وهرم، تلك سنة التاريخ، وهي لذلك دورات طبيعية تُواجَهُ بإدراكِ تقلباتها بصورة طبيعية وموضوعية، ولا يجوز أن نزيد تعقيدها في هلع وارتباك ونصفها بأنها نقمة حلت بنا؛ كما باشرها النهضويون الذين أشرنا إليهم.

لا بد أن نضع جانباً العقد التي نشأت في معالجتنا لمشكلاتنا وأن نعرف جيداً وبكل وضوح ما يلي:

أولاً: العالم الإسلامي يمر فعلاً بمحنة. والمحنة التي تعرفونها هي التي نصفها تحت أسماء مختلفة: الاستعمار.. الجهل.. التخلف.. إلخ.

وإذا نحن راجعنا تاريخ الإنسانية على العموم نرى أن أمراضنا هي أمراض اجتماعية تعتري المجتمعات التاريخية التي مرت على وجه الأرض، فبعد الازدهار هنالك أفول، وهكذا دواليك. لذلك ينبغي ألا نتشاءم.

ثانياً: ينبغي ألا نُعَقِّد المشكلة. فالمصائب التي أحاطت بالأمة الإسلامية مثل مصيبة باكستان على سبيل المثال أو المصيبة التي حلت بالأمة الإسلامية سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٦٧ والأمثلة كثيرة بكل أسف، هذه المصائب كلها هي من صنع أيدينا، وليست نقمة من الله، إذ إنها حصاد ما اجترحنا، وقد اجترحنا هذا لأننا فقدنا إدراك تقلبات الأيام.

حتى أن المتعبد المنغمس في عبادة الله كان منصرفاً عن الجوانب الأخرى من

واجباته، وهي واجبات كبيرة في إدراك أسباب التخلف، وكان عليه ألا يزهد بها، فإذا كان هذا حال المتعبد فما بال التائهين؟

فنحن إذا ذكرنا التائهين كان الأمر أشد وأدهى وأمرّ، لذا ونحن نتحدث عن المتعبدين فقد كان الأولى بهم أن يدركوا فعالية عبادتهم، فلا يفرِّطوا في مسؤولياتهم الاجتماعية، بل عليهم أن يحولوا دون شياطين الإنس، إذ يعتدون على الحرمات وينتهكونها ويهضمون حقوق الأمم والشعوب.

على المرشدين المسلمين أن يعوا بإدراك تام ما يدور حول الأمة الإسلامية وما يسري تحت أقدامهم من ألغام.

فلو انتبهنا مثلاً لدولة باكستان سنة ١٩٤٧ التي فرحنا بها كلنا عموماً ٩٩٪ أو أكثر، ربما ٩٩٪ كنا فرحين باعتبارها دولة إسلامية، وهي كلمة كثيراً ما يغرر بها، لكنني أنا لم أفرح، يجب أن أقول الحقيقة. إنني لم أفرح، ولم أبارك تكوينها، لأنني كنت أعلم أنها مؤامرة ضد الإسلام يجب ألا أغتر بالكلمات، فأنا لا يهمني دولة إسلامية، يهمني مصير الإسلام أكثر من دولة إسلامية.

ولقد تبين فيما بعد أنها كانت مكيدة ضد الإسلام، وليس هنا مقام لأبحث في هذه القضية وهي مدروسة في كتابين؛ الكتاب الأول منذ ربع قرن، والكتاب الثاني منذ عشر سنوات تقريباً. ولقد أعطيت رأيي في هذه القضية، وحمدت الله كثيراً عندما سمعت أن فضيلة الشيخ المودودي كان أيضاً على الرأي نفسه[1].

(١) راجع محاضرة: الانقلاب الإسلامي - أبو الأعلى المودودي - منشورات الشباب المسلم.

يقول مترجم المحاضرة:

«في عام ١٩٤٠ شتد النزاع بين نظريتين:

١- نظرية القومية الهندية.

٢- نظرية القومية المسلمة المتطرفة.

وقد بلغ من تمادي المسلمين في ذلك وغلوهم في الدعوة إلى القومية المسلمة ومصادمة القومية الهندية أن غفلوا عن دعوة الإسلام الحقيقية، وتعاموا عن واجب شهادة الحق المنهاج التي تتكون منه الحكومة الإسلامية.

=

فحين نعيش على بركان، يجب علينا أن نواجه الأخطار التي تحت أقدامنا.

ومع ذلك فنحن لا نراجع ونعيد النظر فيما نتقرب به إلى الله من العبادة. يوم أشهد العباد على أنفسهم في صلب آدم عليه السلام.

نحمد الله أن هدانا إلى الإيمان بمثل ما هدى آباءنا في صلب آدم، لكن الجدير بإعادة النظر هو سلوكنا أفراداً مسؤولين عن مصير هذه الأمة. إناثاً كنا أم ذكوراً، وذلك بأن نهتم بحمل المسؤولية والأعباء جميعاً من سائر جوانب الحياة، فلا ننسى ما أرشد الرسولﷺ من منهج في تحمل هذه المسؤولية حين قال: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم».

. إذن يجب ألا ينصب الاهتمام فقط على التقرب إلى الله بالعبادة الفردية فحسب، بل بالعمل والاهتمام الجماعي بما يقربنا إلى الله أفراداً، وهذا بالأساس واجب أن

= لذا يقول أبو الأعلى المودودي في محاضرته: «إن المسلمين الذين تثقفوا من أهمها بالثقافة الغربية يستعصي عليهم إدراك الحقيقة السامية.

فإنهم وإن كانوا يلهجون بذكر الحكومة الإسلامية مضطرون بطبيعتهم وثقافتهم ألا يهتدوا إلا إلى الدولة القومية، وكل ما يقع اختيارهم عليه من مناهج الفكر لا يخرج عن دائرة الفكرة القومية. وكل ما ينهجون من سبيل لا يكون إلا سبيل القومية. فلأجل ذلك تراهم لا يهمهم اليوم إلا أن ينتقل زمام الأمر إلى الأمة التي تسمى بالمسلمين أو على الأقل يحصل لهم اقتدار سياسي في ناحية من نواحي هذا القطر العظيم.

وكلما فكر هؤلاء وبحثوا في الطريق التي توصلهم إلى مطمحهم القومي لا يتجلى لهم إلا تلك المناهج التي تختارها أمم العالم عامة لتحقيق مطالبها السياسية، وذلك أن يجمع كل رطب ويابس من عناصر الأمة على رصيف واحد ويتخذ من تلك العناصر الصالحة والفاسدة كتلة متضامنة تنفتح فيها روح القومية ويكون لهم سلطة مركزية وحرس قومي وجند قومي، وتتكون لهم دول قومية من الأقطار التي يكون لهم فيها الأغلبية، عملاً بالمبدأ الجمهوري المعروف (الحكم للأغلبية)».

من الملاحظ أن مالك بن نبي لا يرفض وحدة العالم العربي كما يشير في محاضرته، ولكنه يضعها في وحدة المشكلة الاجتماعية من حيث التخلف، إذ تضامن العالم العربي لحل مشكلاته يمثل دائرة من جملة دوائر وحدة العالم الإسلامي، كما شرح ذلك في كتابة (فكرة كمنولث).

من هنا فهو يعتبر ارتكاز الوحدة العربية على وحدة الأصول العرقية قد ألغى المشكلة الحقيقية في إطار المعاصرة والحضور العالمي وترك لإسرائيل منطقها وحده كامتداد لفاعلية وجهوزية أوروبة.

بن نبي يختلف عن أبي الأعلى المودودي من حيث التوصيف ويبدو أنه غير مطلع على أفكاره، لكنه يتفق معه في أن الهند تشكل وحدة متكاملة من حيث طبيعة مشكلات النهوض بالمسلمين والهندوس، في ظل بيئة اجتماعية واحدة. [مسقاوي]

نتقرب إليه باهتمام في إصلاح وضع المسلمين، وبما يخدم صلاح الأمة الإسلامية عبر ما نقدمه من توجيه صالح لهذه الأمة خصوصاً حين تكون الأخطار محيطة بها، أي حين يكون سعينا متضامناً في (حالة إنقاذ) كما أشرت في بداية كلمتي.

فيجب إذن أن نكون واعين لهذه المرحلة الخطيرة، لكن وعينا لا بد أن يكون مندفعاً إلى الإصلاح والعلاج دون تشاؤم مسيطر، فأنا لست متشائماً ولا متفائلاً، إنما أعالج المشكلة في عمقها وأدرس القضية كما هي، فإذا اقتضى الأمر أن أقول:

٢ + ٢ تساوي أربعة لا أقول: إنها ٥ أو ٣ أبداً.

وبناءً على ذلك، على بناتنا أن يسلكن هذه الموضوعية من التوجه والاتجاه مقروناً بوعي وإدراك لظروف المرحلة الخاصة، فما تفضل الله به عليكن حين هداكن إلى الصراط المستقيم في عبادتكن، هو ما يدعوكن إلى أن تُتمِمْنَ الخطوة الأولى في الاضطلاع بمسؤوليات أخرى؛ كالنصيحة للمسلمين والمسلمات مع القيام بمسؤوليات العطاء بما يتصل بمصير المجتمع الإسلامي.

معطيات العمل الإنقاذي يرتكز على أمن المجتمع، وهذا يتطلب وحدة أفراده، ووحدة سلوك أفراده، بمعنى ألا يتصرف أحد دون أن يكون تصرفه مطابقاً لسلامة المجتمع كله.

أ- نموذج السفينة في حديث رسول الله ﷺ.

يجب أن نلفت النظر عندما نقول: إن المجتمع يمر الآن (بحالة إنقاذ) فإنني أتذكر حديث الرسول ﷺ عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال:

«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها. فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فتأذوا به فقالوا: لو أننا خرقنا في نصيبنا خرقاً فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا. فأخذوا فأساً فجعلوا ينقرون أسفل السفينة، فأتوهم، فقالوا: مالكم؟ قالوا: تأذيتم بنا ولا بدَّ من الماء.

فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً». (أو كما ورد نصه عن الرسولﷺ).

هذا تصوير لقضية مركب فيه فريقان من البشر؛ ففكر أحد الفريقين أنه لو يأخذ الماء من ثقب يثقبه في جنب السفينة، فيقتصد بذلك من إزعاج الآخرين.

لكن الرسولﷺ يعلق على ذلك بعد أن قدم القضية.

إذن هذه هي القضية، أما الحكم فقد حدده الرسول «إن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» هذا هو الحكم..!!

فإذا أخذنا هذا الحديث في مدلوله العام، وفي ظرف من الظروف التي نتصور فيها المجتمع الإسلامي سفينة معرضة للخطر - إذا تصورنا هذا - فيجب ألا نترك أنفسنا للتصرف الفردي، باجتهاد قد يكون فيه شيء من الحسنات، أو قد يكون فيه شيء من اللباقة أو اللطف بالآخرين، ولكن يجب علينا كما يشير لذلك الحديث الشريف أن نحافظ على أمن السفينة، وأمن السفينة يقتضي أولاً وحدة الركاب ووحدة سلوك الركاب؛ ألا يتصرف أحد دون أن يكون تصرفه مطابقاً لسلامة الجميع لا لسلامته هو.

مثلاً لو نضيف شيئاً من تفسير الحديث- لأن باب الاجتهاد لم يغلق علينا سواء في فهم الحديث أو فهم الآية من القرآن الكريم-.

هل يجوز في سفينة في حالة الغرق، وفي بحر لجي أحاط بالسفينة من كل جانب، هل يسمح لجماعة من الركاب أن يتصرفوا - حتى ولو بنية حسنة - بطريقة لا تتفق مع الصالح العام للركاب أجمعين؟

سنقول لا! يجب أن يتكاتف الجميع ويتساووا، ويجب كذلك أن يضطلع الجميع بالمهمة، ويسلكوا المسالك نفسها، ويد الله مع الجماعة، ويقول الرسولﷺ: «لا تجتمع أمتي على الضلالة».

فيجب عليكن خصوصاً في مدينة عريقة مثل دمشق التي كانت مهداً لحضارة تعرفن

مجدها، ولعل الله يريد لهذه المدينة أن تكون مهداً لنهضة جديدة في العالم الإسلامي، أنتن طلائعها (أنتن الموجودات هنا وفي أرجاء المدينة)، أقول: يجب على بناتنا ألا ينفردن بسلوك. طبعاً لا ينفي هذا الاجتهاد الفردي الذي يحمل نتائجه المجتهد حين لا تحمل وازرة وزر أخرى، لكن ذلك لا يمنع حين نجتهد في أن نتحمل جميعاً في النهاية الوزر الأكبر، أعني وزر السفينة المهددة بالغرق حين يكون الاجتهاد في إطار من حسن الظن المتبادل بين ركاب السفينة وفي إطار تداول مفيد.

هذا هو الشيء الذي أوصي به بناتنا، وأرجو الله أن يفتح القلوب للمحبة الصافية بين الإخوة والأخوات الصادقين في أبحاثهم والصادقات ليكونوا جميعاً الرعيل الأول والطليعة الأولى التي تنهض في مدينة دمشق بنهضة جديدة، دينية أخلاقية، وبكلمة واحدة نهضة حضارية تجدّد مجد الإسلام وتجدد عزة المسلمين وتمهد السبيل لتبليغ الهداية الإسلامية لغير المسلمين.

ب- التشاؤم ممنوع في معرض الموضوعية والواقعية.

والنقمة التي تحل بمجتمعنا اليوم ليست نقمة من الله، بل هي رحمة تؤدّبنا لتذكرنا وتوقفنا عند حدّنا حين سرنا خطوات في غير طريق مستقيم.

أعود هنا لأكرر مرة أخرى بأن النظرة إلى واقعنا الإسلامي قد توحي في ذهن مستمع أو قارئ متسرع في حكمه بأنه شيء من التشاؤم يخيم على رؤيتنا اليوم لواقعنا.

إنني أؤكد بأن ذلك ليس تشاؤماً، وإنما هي نظرة واقعية للموضوع أولاً، ثم أضيف بأنه ليس نقمة من الله علينا نحن المجتمع الإسلامي، بل ربما هو رحمة، لكنها رحمة مؤدّبة توقفنا عند حدنا، لأننا أحياناً سرنا خطوات في غير الطريق المستقيم.

إذن قد تحل بالمسلم وبالمسلمين رحمة في صورة نقمة تأديباً وموعظة كي يتعظ ويراجع نفسه في أخطائه وفيما اجترح، فالإرشاد القرآني- وليس هناك ما هو أصدق منه- يؤكد لنا هذا ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٠].

وهنا أؤكد أننا لو تنبهنا منذ القرن الماضي إلى أننا نحن الذين مهدوا لما نسميه اليوم بـ (الاستعمار) الذي انصبت عليه كل مجهوداتنا واعتنينا بالمقالات والخطب في التشهير به، إننا لو راجعنا أنفسنا لانتهينا إلى أن الاستعمار هو ما صنعناه نحن بأيدينا، ومهدنا له السبيل تحت الظاهرة التي أسميها (القابلية للاستعمار).

هذا الجانب المرضي الذي صنعناه بأيدينا لا يصرفنا عن الالتفات بأمل إلى جانب مضيء. إنه جانب رحمة الله الصافية النقية والمحيطة بالإسلام رسالةً وبالمسلمين حَمَلَةً لهذه الرسالة. فوعد الله بأن يظهر الإسلام على الدين كله لا يزال قائماً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هذا الوعد الإلهي لن يخلفه الله موعداً في النهاية، لذا ينبغي أن ينصرف إليه جهد المسلم وأن يسير إليه بواقعية أوضاعنا القائمة مشفوعة بالرجاء في أن ينجز الله وعده.

إذن يجب أن نتبصر بالجوانب الأخرى التي تدفعنا للتبصر بالتطورات والاحتمالات وتوقعات الفترة التي نمر بها.

فإذا كان هناك ما ينبغي الالتفات إليه لا لكي ننزع عن أنفسنا أية عقدة مستحكمة مما نحن فيه كما أشرنا إليه ثم نرتاح منتظرين، بل لكي نوضح السبيل الذي يجب أن نسير عليه ونجتهد فيه لنحظى بشرف العمل في تحقيق وعد الله لرسوله بإرادة ثابتة ووعد بالنصر.

لذا علينا في هذا المساء أن ندرك في كل لحظة كيف يسير المجتمع البشري كله اليوم، وكيف يتجه، حتى ندرك مسارنا إلى أين؟

وكيف نأخذ طريقنا نحو هدف يحقق الله فيه وعده.

لا شك أن الله في غنى عنا ليحقق وعده، فوعده يتحقق بين الكاف والنون، حتى لو التفتنا عن واجباتنا، وولينا الأدبار في المعركة الهائلة الكبرى التي يفرضها علينا؛ معركة شمول الإسلام العالم كله. فالله هو الذي غلب الأحزاب وحده في المدينة المنورة.

جـ- يجب أن تكون رؤيتنا وتفكيرنا في حجم العالم كله.

لكن الله الذي أوكل إلينا هذه المهمة مؤيدة بنصره ووعده، وهي مهمة تدخل في الواجبات التعبدية. فالتعبد ليس في المساجد فحسب، ولا في الخلوات، وهي في كل نبضات حياتنا تعبير عن الإخلاص لله أولاً، إخلاصاً يحقق إرادته في الكون البشري ثانياً.

حتى إذا استطعنا الوصول إلى المريخ لتبليغ رسالة الإسلام فعلينا أن نصعد إلى المريخ أو إلى أي كوكب آخر.

ربما كلماتنا تثير بعض الازدراء إذ نتساءل بماذا سوف نحلق نحن إلى المريخ وليس لدينا الوسائل؟ إنما نقول هؤلاء الجامدين: إنهم جامدون يفكرون في أن الزمن جامد، وأن الأشياء لا تتغير من حالة سلبية إلى حالة إيجابية، وأحياناً من حالة إيجابية إلى حالة سلبية في تغيير مطلق تتغير فيه النسب وتتغير العلاقات وتتغير الألوان، فالأبيض يصير أسود والأسود يصير أبيض.. إلخ.

فعندما كانت الحضارة الإسلامية مزدهرة تنير مسيرة الموكب العالمي البشري كانت أوروبة ضئيلة، فقيرة، حقيرة، جاهلة، ففي تلك الأيام التي كانت تعد فيها كتب مكتبة قرطبة (المكتبة الأهلية في قرطبة) فيما أظن وإذا لم تخني الذاكرة حوالي ٣ ملايين مجلد في ذلك العهد كانت المكتبة التي تسمى الآن السوربون تضم فيما أظن ٢٠٠ نسخة وكثير منها مترجم من اللغة العربية أو عربيٌّ بلغته، وطبيعيٌّ أن ٢٠٠ نسخة لا تخرج نسخة منها من المكتبة إلا بالرقابة الشديدة حتى لا تضيع، لأن المكتبة فقيرة. بينما نرى المكتبة اليوم في باريس (المكتبة الوطنية) وهناك عدة مكتبات تضم ملايين من المجلدات.

د- التفاؤل السهل ومرارة النتائج.

علينا أن نتخلص من التفاؤل السهل والكلمات العذبة في البداية حتى لا نقع في النتائج المرة في النهاية، لأن العمل يتطلب إدراكاً للواقع والعمل على تغييره، ونحن في الثلث الأخير من القرن العشرين.

حينما أقول: إن ما يحيط بنا من أزمة لا يدعو إلى التشاؤم، بل إلى تأمل ورؤية الواقع كما هو مجرداً من كل لبس ومن الكلمات الأدبية التي نراها أحياناً، وبكل أسف، في المجتمع حين تنطلق الألسن- وأحياناً الأقلام- لتقول أشياء سهلاً قولُها، أو تكتب في إطناب أدبي. هذه العبارات التي تروج في إطار من التصور السهل للأمور، تضع عراقيل فكرية كبيرة في تناول المشكلات، ومن ثمَّ تتطلب بعد ذلك أن يتخلص الفكر منها بإجهاد وإحباط.

إذن لماذا نبيح لأنفسنا الكلمات العذبة إن كانت نتيجتها ستكون مرة؟

فلنتجنب هذا منذ البداية حتى لا نملي الأمور في أول الأمر ثم نتجرع مرارتها بعد. لا بد إذن منذ البداية أن ننظر إلى الواقع كما هو ونسمّي الأشياء بأسمائها.

نظرة نحو المستقبل

نهر التاريخ في الثلث الأخير من القرن العشرين قد وصل إلى مصبه في البحر. والمتغيرات تسير وتمهد لرسالة الإسلام.

وبكل حال، وحتى من مرارة ما نحن فيه اليوم، فإننا إذا تلفتنا عن يميننا وشمالنا نرى أننا في زمن من القرن الرابع عشر الهجري، ولم يبق منه إلا ثماني سنوات لينتهي ونستقبل القرن الخامس عشر الهجري، كما نحن في زمن القرن العشرين ولم يبق منه إلا الثلث أو أقل. فإننا نرى أن هذه الفترة تتمخض عن نتائج كبرى. فالأقدار تمهد السبل للإسلام، إذا تبصرنا في سير العالم ككل، ليكون دين الخليقة جمعاء.

لا أريد في هذا اللقاء أن أكرر كلمات قلتها من قبل في مناسبات أخرى، ولكن أكتفي أن أقول شيئاً بسيطاً للمقارنة.

فعندما كنت صغيراً ودرست للمرة الأولى في الجغرافية في فصل من فصول الجغرافية الإنسانية، وذلك من بداية المرحلة الثانوية كنت أقرأ أن عدد أتباع المسيحية

ست مئة مليون نسمة، وعدد أتباع البوذية أربع مئة مليون نسمة، وعدد أتباع البراهمة أربع مئة مليون نسمة، وعدد أتباع الإسلام حوالي خمسين مليون نسمة، لكن الإحصائية الأخيرة اليوم تحت إشراف الأمم المتحدة تشير إلى أن عدد المسلمين ثماني مئة مليون نسمة. يعني حوالي مليار نسمة، وقد تم هذا في حياة إنسان جيل واحد.

فالشيء الذي يهمني الآن إذا استخلصت العبرة من هذه الأرقام وفي المدة الأخيرة من القرن العشرين هو أنني أرى وكأنما نهر التاريخ يصل إلى مصبه في البحر، وقد تجمعت فيه كل الروافد عبر التاريخ. فكأن الأشياء والتطورات التي حدثت اليوم في هذه الفترة من التاريخ وفي هذا القرن بالذات قد حدثت لتقرر نهائياً مصير الإنسانية.

فالتغيير الذي حدث لم يكن من حيث الشكل فحسب، إنما من حيث الجوهر أيضاً.

أنتن ما زلتن في مقتبل العمر لكن الجيل الذي هو جيلي الآن عندما دخلنا هذا القرن سميناه أولاً قرن البخار، ثم مشينا فترة وجيزة فإذا بنا نسميه قرن الكهرباء، ثم لم نلبث بعد أن سرنا مرحلة وجيزة أخرى أن دعوناه قرن المواصلات السلكية والتلفاز مثلاً.. إلخ. ثم أصبحنا نسميه العصر الذري، واليوم أصبحنا ندعوه عصر الفضاء.

مراحل خمس قضيناها (قضاها جيل واحد) وهذا معناه أن التطورات التي حدثت في هذا القرن كانت أعمق مما كان يتصور العقل قبل وقوعها، ومعناه من ناحية أخرى أن النتائج التي سوف تكون حصيلة هذه المتغيرات هي نتائج نهائية كذلك، فكأنما مسيرة التاريخ قد قربت من عهد جديد.

ولقد حدثت أيضاً تطورات خطيرة في المجال النفسي للعالم، فلو ألقينا نظرة على وجوه الآخرين المتنعمين بما يسمى التقدم والحضارة واليسر والعلم، إذا ألقينا نظرة على وجوههم لوجدناهم في حيرة وفي عسر ولوجدناهم في ضيق نفسي أكثر مما نحن فيه.

إذن يجب إذا نظرنا إلى وضعنا الراهن ألا نتشاءم أو نتسرع في الحكم إنما علينا أن ننظر نظرة كلية في وضع البشرية جمعاء. إذ سوف نرى وكأنما يريد الله تحقيق وعده، لأن الإنسانية المتحضرة اليوم فقدت شموخها الذي كانت تعتز به في القرن الماضي عندما كانت تقول: إن العلم سيخلصنا وسيحل جميع مشكلاتنا ويصنع لنا المعجزات، فالعلم صنع فعلاً المعجزات، لكنه لم يشبع النفوس، ولم يرح الأرواح، بل كانت نتيجته عكس ذلك، تبرهن على أن هذا العلم لا يستطيع أن يواجه المشكلات الإنسانية في عمق جوهرها.

فكأني بالعلم (كما نراه وليس كما هو) أي كما تراه الإنسانية اليوم خصوصاً منها المتحضرة والتي زعمت منذ قرن بأنها ستنتصر على العباد وعلى الطبيعة بالعلم، هذه الإنسانية (وأكرر لا العلم كما هو) قد أفلست في دورها. هذا ما أردت أن أقوله لكم في الموضوع، وإذا كان من سؤال فمرحباً.

مناقشة

السؤال:

أستاذ مالك. ما دام العلم كما تقول - قد أفلس - فهل معنى ذلك أنه بدأ دور الروح؟

الجواب:

نعم هذا ما أعنيه بالضبط جزاك الله خيراً.

السؤال:

ونحن نعمل للروح الآن، فهل تريد أن توجهنا لنعمل للروح والحضارة كحضارة؟

الجواب:

نعم يجب أن نعلم أن عنايتنا بأنفسنا فقط لا تحل المشكلة.

صحيح أنه يجب أن نعتني بأنفسنا، وأن نقوم بالعبادات المفروضة، ولكن هذا وحده لا يكفي، بل يجب أن ننفتح ونستوعب سائر المعاني التي تتضمنها هذه الفترة من تاريخنا. نحن المسلمين ثم من تاريخ العالم الإسلامي في شموله.

فإذ تخففنا عن هذا كله فإن إسلامنا بارك الله فيه على كل حال، واجتهادنا فيه مصيب إلى حد ما. ولكني أظن أن هذا لا يكفي اليوم، إذ يجب أن يتعدى اجتهادنا المرحلة الحاضرة لنبني عبر اجتهادنا منطلق حضارة، حين نعيد لأنفسنا الثقة بها بوصفنا مسلمين. ونرى الحقيقة كما هي في صعوبات المستقبل، لا كما

هي عليه اليوم في العالم الإسلامي. فهذا العالم الإسلامي الذي نراه اليوم هو حلقة صغيرة في سلسلة العالم الإسلامي الكبرى ككل، وشباب هذه الحلقة معرضون اليوم للتيه والضياع.

ونتساءل لماذا هم معرضون للتيه؟ والجواب لسبب بسيط، وهو أن هؤلاء الشباب يقولون لمن يتكلم مثلي في هذه الحلقة: لو أنكم خلصتم العباد من المرض والجهل والاستعمار.. ومن.. إلخ. لخلصتم أنفسكم أولاً. وقد يبدو هذا الكلام شبه حق، ولكن مثل هذا الذي يتكلم ينقصه إدراك الواقع، وهو أن كل حقيقة لها جانبان:

الجانب الذي نسميه صحة الحقيقة التي يستدل عليها بالبرهان العلمي الذي لا يترك مجالاً لأي شك.

الجانب الآخر: هو الصلاحية. وخصوصاً في الحقائق التاريخية والحقائق الاجتماعية.

فالمجتمع الإسلامي اليوم له وجهان:

الوجه المشرق الذي يراه المؤمن والمؤمنة، وهو وجه الصحة، صحة الفكرة الإسلامية.

الوجه الآخر الذي يراه الآخرون من أبنائنا، والآخرون من عالم الآخرين (الألماني.. الإنكليزي.. إلخ) هذا الوجه هو وجه الصلاحية، والصلاحية مفقودة اليوم في المجتمع الإسلامي وهذا واقع.

السؤال:

ماذا تعني بالصلاحية؟

الجواب:

أعني الدين بوصفه حدثاً تاريخياً. فالإسلام حين أتى، أتى لأمرين، وقد وجدنا هذه الكلمات حتى على لسان الرسولﷺ وعلى لسان صحابته رضي الله عنهم

والحمد لله، وهذان الأمران هما:

أ- الدين جاء ليحقّق بين المخلوق وخالقه صلة العبودية، وصلة العبودية هذه تتجسد في جانب العبادات.

ب- ليحقق لهذا الإنسان كرامته بين المجتمعات الأخرى، أي بين العباد.

فالصراع مستمر بين الخير والشر. بين الأمة الإسلامية (إذا تصورنا أنها صورة الخير) وبين الشر الذي نسميه الكفر، الإلحاد، الجاهلية، المادية، الوثنية.. إلخ. فالأمة الإسلامية يجب ألا تكون أدنى من الأمم الكافرة في المستوى الحضاري.

لقد أورد ابن تيمية حديثاً يهمنا في الموضوع، حيث يروي عن لسان النبيﷺ أن الدولة الظالمة لا تدوم حتى لو كانّ أهلها مؤمنين، والدولة العادلة تدوم حتى لو كان أهلها كافرين.

هذه هي الصلاحية. والصلاحية كذلك في الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٥].

هذا التعبير القرآني الرائع، لا نجد لساناً لائقاً لتمجيده، لأنه في الحقيقة تعبير رائع من حيث الدقة، ومن حيث سعة الرحمة، رحمة الله بالبشر، حتى من لا يستحقها بسبب كفره، فإنه لا يحرم من هذه الدنيا إن قام بواجبات الدنيا، والآيات الدالة على هذا كثيرة ومنها الآية ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ٤/ ١٢٣].

ليست القضية أن نفرض على الأقدار أن تتصرف طبقاً لشهواتنا ولرغباتنا، وليست بأمانينا ولا بأماني أهل الكتاب أيضاً، بل هي قدرة إلهية تتصرف بحكمة وقسطٍ بين البشر. فالأرض يرثها العباد الصالحون الذين يصلحون الأرض، فهذا هو جانب الصلاحية.

السؤال:

هل كلمة صالح هنا تأتي بمعنى الصلاحية؟

الجواب:

الصلاحية هي الصلاح للأمر. مثلاً هنا معناه صلاحية العباد الذين يصلحون الأرض، ويجب أن نعلم ما هو إصلاح الأرض. هو الذي يشير إليه الحديث الذي يذكره «الدولة الظالمة لا تدوم ولو كان أهلها مؤمنين، والدولة العادلة تدوم ولو كان أهلها كافرين».

إذن الصلاحية شيء والصحة شيء آخر، يجب أن يدرك أبناؤنا ذلك، ولا يظنوا أنّ هذا موضوع تسلية أدبية، فهذا ليس موضوع تسلية أدبية. وأنا هنا لا أتكلم بلغة الأدب.

فالقضية هي إذن يجب علينا عندما نكون في حوار مع ضميرنا أمام القضية نعنية أن نستطيع إقناع أنفسنا على الأقل، فهذا أقل مقدار من المنطق، ومن التدليل على صحة الأشياء.

لأننا إذا كنا محرومين من القوة والمجد ومن.. إلخ- إذ تستطيعون أن تضيفوا أشياء كثيرة أمامكم حتى تتعلموا، هذا هو أسلوب العمل العلمي-.

أقول: إذا كنا محرومين من هذا كله فهل هذا ظلم من الله؟ حاشا لله، أو هذا نقص في الإسلام؟ وهل هذا لأن الإسلام فقد صحته؟

طبعاً لا. فالإسلام لا يفقد صحته أبداً، حتى ولو أغفل المسلمون طريقة استعماله أداة حصانة وأداة عمل وأداة تزكي المجتمع، وتحقق للفرد فيه الضمانات من فرص التعليم إن كان طفلاً، وفرص العمل إن كان رجلاً، وفرص الرعاية إن كان مريضاً، والأمن في الطريق إذا أراد الانتقال من مكان إلى آخر.. إلخ.

هل هذا جديد في منطقتنا، لا والله هذا ليس جديداً، بل هو جوهر ما أشار إليه

رسول اللهﷺ أكثر من مرة في حديثه، حيث إننا حين نراجع بعض الأحاديث نشعر أنَّ الرسول الكريمﷺ أتى الأمرين معاً: أمر الآخرة وأمر الدنيا.

لعلكم سمعتم بحديث عدي بن حاتم مثلاً، حيث كان عدي بن حاتم مع النبيﷺ وبعض الصحابة، فأتاه رجل أعرابي يشتكي الفاقة، فلم يجبه الرسول (لأنه كان يتوقع الشيء الذي سيأتي) ثم أتى آخر فشكا له فقدان الأمن (أي قطع الطريق) وأظن من نواحي نجد، فلما انتهى الثاني من حديثه، لم يلتفت الرسول للذين كانا يتكلمان معه، بل التفت إلى الصحابي الذي روى عنه الحديث، عدي بن حاتم وقال له: «يا عدي هل تعرف الحيرة»؟ قال له: لا أعرفها، ولكني نبئت عنها، فاستمر رسول الله في حديثه يقول له: «إن طالت بك حياة يا عدي فسوف ترى الظعينة تنتقل من الحيرة إلى أن تطوف بالبيت الحرام لا تخشى إلا الله» (يعني تحقيق الأمان في السبل). ويضيف عدي- لأنه هو راوي الحديث- وهو رائع جداً حتى من الناحية النفسية إذ أضاف الراوي أشياء تهمنا كثيراً- حين رأى الواقع، فيما كان النبي يرى بنور الله ووحي الله، أما عدي فهو إنسان مثلنا، فإذا به حينما يقول له الرسولﷺ: «سترى إن طالت بك الحياة الظعينة تنتقل من الحيرة إلى أن تطوف بالبيت لا تخشى إلا الله» قال في نفسه: وأين؟

يقول هذا من روى الحديث، إذ الرسول يقول في نفسه له: إن طالت بك حياة سترى، وهو يردد في نفسه أين هؤلاء؟.

ما معنى هذا؟

معناه أن هناك درجة تشكك، ولا بأس بهذا التشكك، لأنه ظاهرة إنسانية في كل عاقل، فإبراهيم عليه السلام قال: ليطمئن قلبي، فالنفس البشرية تواقة إلى كل الوضوح.

ثم يضيف رسول اللهﷺ إلى عدي فيقول له: «إن طالت بك حياة سترى كنوز كسرى تبذل في سبيل الله، وإن طالت بك حياة فسوف ترى من بيده ذهب وفضة ثم لا يجد من يقبلها منه».

يعلق عدي بن حاتم على هذا كله بأنه رأى الظعينة تسير من الحيرة إلى أن تطوف بالكعبة. وهو قد ساهم يوم القادسية، وكان أحد المجاهدين يوم فتح الله على المسلمين، وأعطاهم كنوز كسرى التي بذلت في سبيل الله فعلاً، فما عاد يقول: أين؟ كما كان يقول حين سمع حديث رسول الله ﷺ. بل أصبح هو بدوره يبلغ شيئاً آخر، إذ يقول للمستمعين الذين يأتون ليستمعوا منه ما يروي من أحاديث رسول الله: «إن طالت بكم الحياة سوف ترون البقية».

هذا الحديث روى لنا جانباً مما كان وحياً وتبليغاً من الرسول ﷺ لوقائع سوف تحدث، لكنها ليست الهدف من الرسالة، وإنما هي إحدى نتائج استقرارها، فالمسلم ليس في حاجة أن يعرف الظعينة تنتقل أو لاتنتقل، أو اليد ملآنة ذهباً ولا تجد من يتقبل منها ما فيها، فوجود الله لا يحتاج إلى هذا التدليل لكنه سنة الله في خلقه، جعلت النبي ﷺ ينطلق لسانه بالتدليل على صحة رسالته بهذا العرض في هذا الحديث.

لكن تحقق ما ورد في هذا الحديث يمنحنا الجانب الآخر الذي يهمنا هنا الصلاحية؛ أي صلاحية الإسلام.

الرسول ﷺ استعمل جانب الصلاحية لتكون دليلاً على الصحة. بمعنى أن صلاحية الرسالة وفاعليتها هي الدليل على صحتها وحياً من السماء.

من هنا يجب أن ندرك قليلاً هذه الأشياء، أي أن نحللها.

فقد استعمل الرسول منطق أو حجة الصلاحية دليلاً على صحة الإسلام وصلاحية الإسلام معاً.

فالمرأة الظعينة تنتقل في أمن الطريق، هذه هي صلاحية الرسالة في حفظ الأمن عن طريق فاعلية الإيمان في النفوس، وكنوز كسرى تبذل في سبيل الله من أجل الفقراء والجهاد وفي الخير، فهذه صلاحية إذ يصبح الإنسان غير محتاج إلى عطاء الذهب والفضة، لأنه اقتنع به وأشبعت حاجاته كلها، هذه كلها صلاحيات وقد أصبحت هذه الصلاحيات في منطق الرسول تستعمل حجَّةً في صحة الإسلام.

إذن يجب أن ندرك جيداً أن الأفكار- وبالخصوص الأفكار الاجتماعية أو الفكرة العظمى أي الدين- نعرفها دائماً من جانبين: الصحة والصلاحية.

هذا يعني أن الفكرة الصحيحة ليست بالضرورة فكرة صالحة، إذ تكون فكرة صحيحة في وقت ما لكنها لا تصلح للتطبيق، أو تكون صالحة زمناً لكنها فقدت صلاحيتها في التطبيق.

لا يشك أحد منا اليوم بصحة الإسلام، بل ربما لا أتصور ذلك عند الآخرين، فعند الغربيين ربما يوجد شعور غامض بصحة الإسلام، وحدث هذا أكثر من مرة، وأحياناً يأتي ذلك في تعابير متصلة بطينة الثقافة التي جبل عليها الإنسان هناك.

مثلاً توماس كارليل عندما يتكلم على الإسلام كأنه يقول: إنه صحيح.

طبعاً نحن نقول ذلك، لأن القرآن نزل من السماء، لكن توماس كارليل ليس مسلماً وهو لا يتكلم بلساننا، ولا يقول كما نقول عن القرآن، ولكن، والله، كاد يقول ذلك بلسانه. فقد قال في كتاب (الأبطال) عن القرآن الكريم: «إنه الصوت أو الصدى الذي انبثق من قلب الطبيعة ذاتها».

وكلامه هذا -باعتباره غير مؤمن- يعبر عن شعور غامض لا صلة له بالعبقرية، لذا لم يقل: إنه جاء على لسان محمدﷺ، بل استعمل عبارة أخرى «انبثق من قلب الطبيعة ذاتها» كأنه كاد يقول: الإسلام صحيح.

لكن هذا الرجل من ناحية أخرى- وكثير من شبابنا معه بكل أسف- يقول: ولكن الإسلام فقد الصلاحية. فأين هي الصلاحية اليوم؟

المسلمون اليوم من ناحية الصلاحية فقدوا كل شيء، فهل هم اليوم، أنا أتكلم (اليوم)، هل هم العباد الصالحون الوارثون للأرض؟

كأن الأرض اليوم قد ورَّثها الله لعباد أصلح من المسلمين، وإن كانوا ظالمين، وإن كانوا أحياناً مجرمين.

السؤال:

لماذا؟

الجواب:

حكمة الله. لأن الله لا يضع الكون بسبب نية المسلمين وبسبب ضياع المسلمين ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ٤/١٢٣] يجب أن نتذكر أن حكمة الله أعلى من إرادة المسلمين، وأعلى من إرادة الآخرين غير المسلمين، يجب أن نتصور حكمة الله كما هي.

سأروي لكم قصة تعطينا نموذجاً لحكمة الله في أرضه.

• لقد كتب لي أن أحضر قصف مدينة هامبورغ. وأظن أنه كان أكبر قصف في تاريخ الحرب العالمية الثانية. فرأيت هولاً، إذ في حوالي ثلاث ساعات من الليل قضى حتفه على ما أظن أكثر من ثلاث مئة ألف نفس، واشتعل ما اشتعل في المدينة كلها.

وأنا كإنسان سلك مسلكاً في الحرب العالمية الثانية اعتقدت أن خدمة المسلمين تصب في هذه الناحية، لأننا نرى في ذلك العهد أن الألمان ضد فرنسة المستعمرة لبلدنا، ونحن في هذا نقاوم الاستعمار، لذا قدرنا أن من واجبنا أن نكون معنوياً في جانب الألمان، وهكذا سلكنا هذا السلوك، وكان سلوكنا عن اجتهاد لوجه الله لا تلحقنا منه مصلحة، بل إننا ضيعنا فيه مصالحنا.

فحين وقع قصف هامبورغ في تلك الليلة ليلة ٢٨ تموز (يونيو) ١٩٤٣ كنت أنا قريباً من المدينة، وفي الليل كسائر الناس أرى معالم الريف الذي كنت فيه، فأتيت إلى ساقية وجلست على حافتها، ووضعت قدمَيَّ في الساقية، وأنا أنتظر أن تمر هذه المحنة.

طبعاً تأملت الوضع فرأيت أننا سنخسر نحن (وأنا أتكلم هنا كمسلم) ثم اغتظت من هذا، وانزعجت وقلت: يا رب سبحانك! لقد اتبعنا نحن هذا السبيل خدمة لوجهك الكريم ونكاد الآن نضيعه.

لم تدم هذه الفكرة أكثر من لحظة، ثم مرت الحرب، وانتهت الحرب العالمية الثانية، وقضينا ما شاء الله في متاعب، لا بأس.

في عام ١٩٤٦ عدت إلى الجزائر، حين بدأ وجه العالم الجديد يظهر بعد الحرب العالمية الثانية.

لقد تكونت سورية دولة، وتكونت الأردن دولة، وكذلك تكونت باكستان دولة، وإندونيسية دولة.

لقد بدأنا نشعر أن العالم قد أخذ وجهاً جديداً فتساءلت في نفسي وقلت:

هل لو انتصرت ألمانية سيكون العالم في هذا الوجه الجديد؟

طبعاً لا؛ لأنني أعلم ما هي سياسة ألمانية.

فكان جوابي أن حمدت الله وقلت: الحمد لله.

فالله لا يتصرف بإرادة البشر، بل بإرادته هو. إذ لو تصرف بإرادة البشر سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين لضاع العالم في أربع وعشرين ساعة.

والحمد لله ربِّ العالمين.

المحاضرة الخامسة
دور المسلم ورسالته

في الثلث الأخير من القرن العشرين

ألقيت في رابطة الحقوقيين في مدينة دمشق بتاريخ
٢٨ آذار ١٩٧٢ الموافق ٢٣ صفر ١٣٩٢ هـ

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

والصَّلاة والسَّلام على خير المرسلين

أيها السادة الكرام، الأبناء والطلبة الأعزاء؛ إنني لا أستطيع أن أقدر هذه اللحظة حق قدرها في سجل حياتي، مع أن اللحظات واللقاءات تتكرر. إنني أشعر بمزيد من السرور والفرح إذ أتحدث مع هذه الطائفة من الشباب المسلم في هذه الأصقاع من البلاد الشقيقة، سورية العزيزة، وفي معقل من معاقل الإسلام. المعقل العريق دمشق. ويجب علي أن أتوجه بالشكر لإخواننا الحقوقيين الذين أفسحوا لنا المجال، وقدموا لنا هذا المكان، لنعرض ما استطعنا دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين في رأينا.

لو حاولنا تحديد دور المسلم عامة ما كان لنا أن نختار سوى ما اختاره الله له دوراً في التاريخ. يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ٢/١٤٣]. هكذا يحدد الله دور المسلم بعامة. وليس لنا أن نختار له دوراً أشرف وأفضل منه، وإنما نلفت النظر إلى خطورة هذا الدور وإلى مقتضياته التي هي من اختصاص الفقهاء ومن اختصاص الحقوقيين، لأنهم يعرفون شروط تزكية الشهادة والشاهد من الناحية العقلية، ومن الناحية الأخلاقية معاً.

لكن لماذا أفردنا وتعمدنا إفراد فترة معينة من هذا القرن؟

أولاً: لطبيعة القرن العشرين التي يتميز بها من القرون الأخرى كلها؛ لأنه القرن الذي تحققت فيه تغيرات جذرية بدت كأنها ترسم للإنسانية نقطة عدم الرجوع على

محور الزمن، فهو القرن الذي هبت فيه أكبر عواصف التاريخ على مصير الإنسانية.

ثانياً: لأنه القرن الذي سجل الأحداث الكبرى، سواء في مجال العلم، أو - كما سنرى - في المجال النفسي، أو في المجال الأخلاقي والديني. ففي كل هذه المجالات هبت عواصف كبرى يبدو أنها غيرت معالم الطريق. وعلى أية حال فهي قد غيرت ملامح الزمن والمجتمعات الإنسانية.

هذه التغيرات تحققت من خلال أحداث كبرى، وأخصُّ منها الحربين العالميتين اللتين هزتا العالم مرتين في غضون أربعين سنة، وشملتا للمرة الأولى في التاريخ سائر أنحائه. ولوقع هذه الأحداث نتائج لا مناص منها، بعضها دخل سجل التاريخ وتسجل في حافظة الإنسانية وفي كتبها، وبعضها دخل عالم النفوس، سواء استطعنا قراءته أو لم نستطع، وبعضها مازال توقعات في ضمير الغيب نرى من خلالها أحداثاً كبرى مطلة على زماننا.

فهذه الأسباب تجعلنا نرى في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين كأنه النهر قرب شاطئ البحر، وقد بلغ المصب بعد أن تجمعت فيه جميع روافده من المياه التي انحدرت من أعالي الجبال في أقصى داخل البلاد .**فالثلث الأخير يبدو هكذا؛ تلك الفترة من التاريخ التي تتجمع فيها كل روافد التاريخ**؛ بكل نتائجها النفسية والاجتماعية والسياسية والعلمية، وكل التغيرات المترتبة على هذه النتائج. وعليه فإن هذه المسوغات تكفي لتبرير اختيارنا له بوصفه حقبةً **زمنيةً استثنائية** في التاريخ، حيث يكون دور المسلم فيها شيئاً استثنائياً أيضاً، يجب إدراجه بطريقة خاصة في الدور العام الذي حدده له القرآن الكريم شاهداً، وذلك أمر يجب أن يدخل في اعتبارنا ويجب أن نقدره بقدر ما يمكننا من الواقعية حتى نقدم لشبابنا الصورة **الموضوعية** التي يرى من خلالها دوره هو ودور إخوانه الآخرين فيه، لأن رسالة الجيل الناشئ ستتحقق على أية حال إما سلبية أو إيجابية فيه .**فهو ثلث تحقق رسالته.**

ولكي نتبين طبيعة هذا الدور الذي يجب على الشاب المسلم أن يتصدى - **منذ الآن** - للضلوع به في هذه الحقبة المواجهة له، المنفتحة أمامه، يجب أن نراجع بعض

السمات التي يتميز بها هذا الثلث الأخير في العالم المتحضر، لأن مركز الفكر العالمي اليوم يوجد على محور سبق أن سميناه - في كتاب سبق نشره[١] - محور (واشنطن - موسكو)، محور القوة، محور العلم، محور الحضارة.

يجب إذن أن نلتفت إلى هذا المحور، مركز الثقل الذي تطبع عليه الأحداث كل أبعادها العالمية، ونتساءل ما الذي طرأ على هذا المحور؟ ماذا حدث فيه خلال القرن العشرين؟ ما التسجيلات الخاصة - وهذا ما يهمنا - في العالم الثقافي وفي العالم النفسي عليه؟

إن الأجيال في هذا المجتمع المتحضر عاشت على رصيد ثقافي ورثته من الأجيال السابقة، أعني أنها عاشت على رصيد المبررات التي دفعت عجلة التاريخ في القرون الماضية، وخصوصاً في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، والذي يبدو - خاصة إذا رجعنا إلى فترة ما بعد الحربين العالميتين - أن هذا الرصيد من المبررات الضرورية لتحمل أعباء الحياة بدأ ينفدُ، وبدأت الشعوب التي تعيش على محور (واشنطن - موسكو) الشعوب المتحضرة، بدأت تشعر جميعها بنفاد رصيدها الثقافي. رصيد مبررات حياتها التقليدية الموروثة عن أجدادها، وبدأت فعلاً تجري **عمليات تعويض** في شتى الميادين، حتى في ميدان الأدب، حيث نرى لوناً جديداً يظهر تحت اسم (الوجودية).

وإذا كان من حق أصحاب هذا اللون من الأدب أن يحسوا القضية من الناحية الأدبية، كما يفعل كيركجارد وهايدجر وسارتر في كل من الدانمارك أو ألمانية أو فرنسة فإن من حقنا نحن أن نحلله من ناحية أخرى. فنرى **فيه ردّ فعل أدبي على شعور غامض لفقدان المبررات في المجال النفسي.**

والسؤال الآن: كيف فقدت هذه المبررات التي تحركت ودارت عليها عجلة التاريخ طيلة القرون الماضية في أوروبة؟

(١) الفكرة الإفريقية الآسيوية.

لنتصور كيف كان ينشأ الطفل في زمان (كيبلنج) مثلاً أو في زمان (أرنست رنان) مثلاً. كيف كان ينشأ في بيته؟ ثم كيف يتعلم في مدرسته؟ ثم كيف كان يتوجه في عمله بعد التخرج من الجامعة، أو عندما يبلغ أشده، ويتوجه إلى الحياة العملية جندياً في تلك الجيوش التي تفتح البلدان التي تسمى المستعمرات.

كان الطفل في ذلك الوقت ينشأ وحوله جو من الأفكار منبتها الاستعمار، أي المناخ الاستعماري الذي تكون في أوروبة وفي أمريكا على حد سواء وفي الاتحاد السوفييتي قبل الثورة أيضاً. هذا المناخ الاستعماري هو الذي كان ينشأ فيه الطفل منذ ولادته، حيث لا يبدو غريباً في هذا المناخ الذي كان يسود العالم المتحضر أن يقوم من فرنسة كاتب قصصي كبير في أواخر القرن الماضي هو (جول فرن) ليكتب عن ملحمة لا تمت بصلة إلى بطولة الفرنسيين أو بطولة الجيش الفرنسي هي ملحمة عنوانها (ميشال ستروجوف) بل تتصل بفتح روسية للبلاد الإسلامية في بخارى. وكانت قصة غريبة فعلاً، تدلُّ بالتأكيد على سيادة المناخ الاستعماري شرق البلاد وغربها، ذلك المناخ الذي سيتم فيه إبرام الميثاق الاستعماري في مؤتمر برلين ١٨٨١، حيث كان الضمير الأوروبي، الضمير المتحضر يعيش هذه الملحمة المتفقة مع روح ذلك الميثاق، حيث لا نستغرب استعمال تسمية الاكتشافات الاستعمارية والفتوحات الاستعمارية. لكن الشيء الذي يهمنا من جانب التحليل اليوم - كي نعود إلى موضوعنا - هو كيف فقدت المبررات؟

كان الطفل يشبع جانب تعطشه للأشياء الغريبة والقصص النادرة وقصص البطولات في جو الاستعمار، وفي ملحمة الفكرة الاستعمارية نفسها، حيث لا نستغرب أن نرى رجلاً مثل (ستانلي) في أواخر القرن الماضي، نشأ في هذا الجو، وتكونت عنده فكرة الاكتشافات وفكرة الفتوحات، نراه يغادر وطنه وينزل إلى إفريقية الوسطى فيحتل قطاعاً كبيراً منها. لقد كان يرى ما يراه على الخريطة قطعة بيضاء فراودته الفكرة أن يلونها بلون ما، وكان اللون الأحمر على الخرائط المستعملة في أواخر القرن الماضي [التاسع عشر] مخصصاً لتلوين المستعمرات الفرنسية، واللون

الأخضر لتلوين المستعمرات الإنجليزية، واللون البني لتلوين المستعمرات البرتغالية، واللون الأصفر لتلوين المستعمرات الهولندية.. إلخ. فأراد ستانلي أن يلون قطعة ما من إفريقية بلون يخول هذه القطعة أن تكون هدية لأوروبة بوصفها مستعمرة، وقد أهداها فعلاً لما تم وضع اليد عليها - على الكونغو - إلى تاج بلجيكا، وكأنها ملك أجداده أو قطعة من تركتهم يقدمها إلى ملك أو ملكة بروكسل.

أما إذا كان هذا الأوروبي جندياً فإن نشأته في هذا الجو تصور له أن المجال لأداء واجباته الوطنية وواجباته العسكرية هو قطاع من قطاعات إفريقية وآسية.

هكذا كانت الأمور تسير، وهكذا كانت تتفتح نفوس الأطفال في أوروبة. يضاف إلى ذلك تدخل بعض الأشياء ذات الجانب الخفي، الجانب الذي يتصل بما نسميه الصراع الفكري، الأشياء التي تصور لهذا الطفل الناشئ، حتى قبل دخوله إلى المدرسة الابتدائية أو قبل خروجه منها - في مجلات متخصصة للأطفال - تصور له آيات البطولة في إفريقية على حساب أولئك البرابرة من السود، أو من الصفر. بحيث يعتقد عندما ينزل بلاداً مثل شنكهاي في أواخر القرن الماضي، أنه هو ربُّ الصين. فيضع لافتة على باب الحديقة - رأيناها نحن عندما زرنا الصين، لأن الحكومة الصينية تركتها كما هي بعد خروج الاستعمار منها - كتب عليها «لا يدخل هذه الحديقة لا الكلاب ولا الصينيون»، بعض الكلاب طبعاً. لقد كان تركيب الكلمتين الكلاب أولاً والصينيون ثانياً.

هذا هو المناخ الذي كانت تتكون فيه نفوس الأطفال ونفوس الشبان ونفوس الرجال، وهذا هو المناخ الذي كانت تنطلق فيه الطاقات - طاقات لا نحتقرها فعلاً- كتلك الطاقة الجبارة التي نتصورها في شخص مثل الأب (دوفوكو) الذي تطوع أن يذهب في سنة ١٩٠٨ مشياً على الأقدام من مدينة في جنوب الجزائر لفتح القطاع الصحراوي حتى حدود ما يسمى بالسودان الغربي. فهذه الأشياء كانت تغمر الحياة الأوروبية بفيض من المبررات. وربما كانت هناك منابع أخرى لهذه المبررات فقدت،

أو جفَّ نبعها بعد الحرب العالمية الأولى والثانية، بسبب تطورات تتصل بما حدث مثلاً بشأن الروابط الخفية أو الظاهرة بين مجالي العلم والنفس.

فبقدر ما كانت تتحقق اكتشافات علمية كبرى في أوروبة بقدر ما كانت تترك صداها على المجال النفسي، وأثرها الكبير في التطور الروحي، حيث بدأت تفتر بعض المبررات الروحية لأسباب لا نطيل عندها الوقوف حتى لا نتعدى بعض الحدود من اللياقة.

هكذا فقدت المبررات الروحية، وفقدت حتى المبررات التي نسميها المبررات الاجتماعية، المبررات الموضوعية.. وإذا أردنا أن نعرف المبررات الموضوعية نذكر على سبيل المثال ما كان لهم من ثقة بكلمتي العلم والحضارة، فقد كانت هذه الثقة هي منطلق الأفكار الأوروبية في القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين، خصوصاً قبل الحرب العالمية الأولى.

والصلة بين هذين الجانبين واضحة. فحينما تفقد حياة ما أو مجتمع ما مبرراته لا بد أن يقوم بعمليات تعويض: يستبدل مبررات قديمة أو تقادمت أو فقدت تأثيرها في الحياة الاجتماعية بوصفها دوافع قوية للحياة الفكرية والعلمية والعسكرية والاقتصادية، يعوضها بمبررات جديدة.

فإذا لم تأت عملية التعويض كما ينتظر منها بالمبررات الجديدة **فماذا يحدث عندئذ؟**

تحدث الأزمة الخطيرة التي يعيشها العالم المتحضر اليوم.

فالعالم المتحضر اليوم يبدو أنه قد فشل في عملية التعويض، سواء من الجانب الأدبي كمحاولة الوجودية مثلاً، أو من الجانب السياسي كمحاولة الرجوع لأصله الأوروبي بحثاً عن منطلقات جديدة لأفكاره ولنشاطاته الاقتصادية، فكأنما تقطعت أنفاسه، ولم تعد في متداوله تلك الأشياء المتينة التي كان يرتكز عليها في القرن الماضي وبداية هذا القرن.

وعندها فإن من الطبيعي أن من لا يجد سنداً في مسيرته التاريخية أن يقع في حيرة

وتيه وقلق. وهذا ما يفسر لنا ما نراه اليوم من حيرة قائمة فعلاً في العقول والنفوس والأرواح. فإذا ما اجتمعت هذه الأشياء فعلاً في نفس البشرية فعندها يمكن أن نتصور ما تولده من دوافع سلبية. فإذا ما فقد مجتمع ما مبرراته ولم يستطع تعويضها بالطرق المشروعة في محاولات مبذولة، عندها يعتريه القلق ويعتريه التيه وتعتريه الحيرة ..**فماذا يترتب على هذا من تصرفات؟**

يترتب عليها التصرفات التي نراها في أوروبة وأمريكا اليوم.

يترتب على هذا مثلاً: أن نجد البلد الذي حقق الضمانات الاجتماعية إلى أقصى حد مثل السويد يتميز بشيء خطير، وهو أنه يتصدر رأس القائمة في (إحصائية الانتحار العالمية). فظاهرة الانتحار في العالم يشغل فيها المكان الأول البلد الأكثر تقدماً نسبياً من حيث الضمانات الاجتماعية.

وهذا يعني بالتأكيد أن البطون إذا امتلأت لا تغني النفوس ولا تشبعها.

إذا شبعت البطون قد تبقى الأرواح متعطشة، تبقى الأرواح متطلعة. وحين لا تجد وجهة تتطلع إليها تفضل هذه الاستقالة من الحياة. هذا إذن ما يحدث. وقد يحدث في بلاد أخرى أكثر من هذا في صورة ما، ويبدو أن هناك صوراً أخرى للاستقالة .من الحياة هي في الحقيقة أشنع من الناحية الأخلاقية. ولا أقول من الناحية الدينية. فهي أشنع لأن كل صور خيبة الأمل تتجلى فيه. مع شيء من العجز حتى عن القيام بهذه المحاولة لإعدام النفس؛ وذلك أن هذه المحاولة تتطلب شيئاً من الشجاعة. ولأن الإنسان فقد مروءته إلى درجة الفشل حتى في التخلص من الحياة بالطرق غير المشروعة فإنه يفر منها عن طريق الموبقات، عن طريق التدهور الأخلاقي، عن طريق الإدمان على المخدرات، بحيث يصبح المجتمع مهدداً بالخراب لأن قاعدته الاجتماعية تنهار أي شبابه ينهار.

إن بعض الإحصائيات الأخيرة التي وقعت بين يدي عن إدمان المخدرات في محافظة باريس، والتي نشرتها مصلحة الأمن في هذه المحافظة في تقرير رسمي صادر عن

مجلة تصدرها تلك المصلحة، تفيد أن نسبة المدمنين بين الشباب للمخدرات تضاعف نسبة عشرين في المئة في السنتين الأخيرتين، فبإمكانكم إذن أن تتصوروا ماذا سيكون معدل ارتفاع النسبة خلال السنوات العشر المقبلة. ويمكن إن جرت المسائل كما تجري الآن أن يعم الإدمان الشباب كله في باريس. وأظن أن الأمور تجري على الوتيرة نفسها في أنحاء فرنسة جميعها.

يبدو أن الشباب الفرنسي سوف ينهار، وسوف يحاول الانفلات من حياة فقدت مبرراتها، عن طريق المخدرات. وهذا يدل مؤكداً على أن المجتمع يفقد الآن قاعدته الاجتماعية المتينة وهي شبابه، يضيعه إما في المتاهات، أو في الخمارات، أو في المخدرات، أو في المقابر - عندما ينتحر.

وهذا يدعونا بالطبع إلى أن نحلّل هذه الأشياء، **ماذا تعني هذه الأشياء؟** ماذا تعني هذه اللوحة القاتمة التي قدمناها بخطوط سريعة، بعبارة فجة ملتقطة يميناً وشمالاً؟

إذا مضينا قليلاً في تحليل الأزمة، خصوصاً في أمريكا، يبدو لنا أن المجتمع الأمريكي يعاني ظاهرة تضخم من ناحية وتناقص من ناحية أخرى، **تضخم الإمكان الحضاري وتضاؤل الإرادة الحضارية**، أي؛ تناقض بين الإرادة الحضارية والإمكان الحضاري.

إذا أردنا توضيحاً أكثر، نقول: إن الهوة أصبحت تتسع بين الواقع الطبيعي الإنساني الذي ورثه وورث مبرراته التقليدية وواقعه الثقافي اليوم.

فالهوة بدأت تتسع والإنسان أصبح يتمزق - خصوصاً الشباب - بين **فكرة** لا يستطيع التخلص منها تماماً؛ لأنه مسجلة في طينته البشرية، تلك الطينة التي كرمها الله، وبين واقع **ثقافي** لا يقدم له مبررات ولا يعطيه بديلاً عن مبرراته التقليدية المفقودة.

هذه هي الصورة التي نستطيع تقديمها في خطوط عريضة عن الحياة في المجتمع المتحضر، وعلى محور (واشنطن - موسكو) **.وإذا ما تساءلنا الآن هل ظاهرة**

التدهور، والانحلال.. هذه فاقدة المعنى بالنسبة إلى المؤرخ الذي يريد أن يفيد حتى من التجارب الشاذة المؤلمة؟

نستطيع أن نقدم افتراضاً، احتمالياً، فنقول: لعل الله يريد شيئاً من وراء هذا كله. كأنما هذا استدراج، تسوق الأقدار فيه هذا المجتمع المتحضر إلى طريق حيث تنتهي فيه أخطاؤه **ليفسح مجالاً لتجربة أخرى** بعد فشل التجارب السابقة، ونحن نرى فعلاً أن التجارب الأساسية في التاريخ لن تبدأ حتى تفشل قبلها كل التجارب السابقة التي فقدت أسسها التاريخية.

يجب أن ينتهي التاريخ في نقطة ما كي يتجدد التاريخ من نقطة جديدة.

• يجب أن يكون هذا مفهوماً، وخاصة لدى الشباب. يجب أن يفشل التاريخ. يجب أن يفلس التاريخ .**وأحياناً يجب أن نعلن الإفلاس كي نشعر الناس- وخصوصاً الشباب- بأن هذا الإفلاس هو طريق البداية.** فلعل هذا الذي نراه على ذلك المحور استدراج لشيء، ربما تعبر عنه الآية الكريمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٩/٦١]. ربما هذا هو القطب الذي يتجه إليه مجرى التاريخ في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين. وعلينا أن نتأكد بقدر إمكاننا من هذا وليس لنا أن نقرر ونبت في شيء قبل انقضائه، فلكم أنتم أيها الشباب بعد ثلاثين سنة أن تروا الحقيقة سافرة كما هي. أما نحن في جيلنا هذا فلا نرى إلا توقعات، ونحاول أن نرى من خلال هذه التوقعات جانباً من مصير الإنسانية.

يجب علينا أن نقوم بعمليتين: أن نرسم خريطة- الخريطة (الأيديولوجية) كما يقولون اليوم، أو خريطة الأديان كما نقول نحن- في العصر الذي تنزلت فيه هذه الآية، وهذه الآية فيما أظن آية مكية؛ أعني في البداية، أعني في نقطة الصفر.

لو كان لنا أن نرسم الخريطة فعلاً في وقت تنزلها - تنزيل الآية - لوضعنا على الخريطة نقطة من لون معين يعبر عن رقعة الإسلام في العالم وهي مكة، فنلونها بلون ما، هذا اللون الإسلامي لا يعدو أن يكون نقطة في الكون..

بينما تتنزل هذه الآية كأنها تحد لهذا الواقع، كأنها تحد لا يتصوره العقل، حيث لو كنا نحن معشر العباد في القرن العشرين، بعقلانيتنا وعلميتنا نعيش في وقت التنزيل لقلنا هذه خرافة. ما هذه الخرافة؟ **إن هذه الآية تتحدى..**؟!! تتحدى الإمبراطوريتين والحضارتين القديمتين الكبيرتين؛ إمبراطورية فارس وحضارتها من ناحية، وإمبراطورية بيزنطة وحضارتها والبحر الأبيض على العموم من ناحية أخرى، فهذا التحدي هو من أقسى معجزات القرآن في الحقيقة، وذلك عندما نتصوره في وقت التنزيل، لأننا إذا رسمنا الخريطة الأيديولوجية آنذاك فماذا نجد عليها؟

إننا نجد عليها لون المجوسية أو لون الديانة الفارسية، ولون البوذية، ولون البرهمية أو لون الهندوكية كما يقولون، ولون المسيحية، ولون اليهودية.. ونقطة مغمورة في الكون هي مكة نقطة الإسلام.

فلو أردنا ونحن في ذؤابة القرن العشرين (الثلث الأخير منه) رسم خريطة جديدة للأديان اليوم، في عام ١٩٧٢ فماذا نجد؟

نجد أن **البوذية** قد شطب عليها قلم السيد ماوتسي تونغ، فمحاها من الوجود. أما **المجوسية** فقد محاها عمر يوم القادسية . أما **البرهمية** فقد محتها ظروفها الخاصة ديناً لا ثقافة، فهي كتراث ثقافي ستبقى إلى أجل لا ندري مداه ؛ نتجنب التكهنات ، أما كدين فقد انتهت وانتهى دورها، لقد فشلت في أبسط مهماتها، خاصة بعد استقلال الهند. فقد سجلت الهند في السطور الأولى من دستورها عام ١٩٤٨ أنها سوف تقضي على حالة المنبوذ. وكان من سجل هذا إنما سجله تحت إملاء الروح الكبير كما يقولون أي مهاتما غاندي. وقد سجل هذا البند في أحسن ظروف تطبيقه بعد الخلاص من محنة الاستعمار. وبعد فرح الاستقلال وفرحة الاستقلال.

واليوم إذا راجع الهندوكي أو راجعنا نحن القضية بعد عشرين سنة نراها فشلت فشلاً ذريعاً. وهي قضية لا تتصل بمصير عشرة آلاف مثلاً، بل تتصل بمصير ثمانين

مليوناً من البشر تقريباً، وهذا ليس بالشيء الهين. لقد فشلت لأنها لم تستطع حل المشكلات الاجتماعية، وهذا يعني كأنما قد قدمت استقالتها من التاريخ.

أما **المسيحية** فقد حدثت لها أيضاً في الفترة الأخيرة تطورات غريبة عبر عنها ذلك المجمع المسكوني الأخير وقبله مجمع الفاتيكان الثاني. لقد أصبحت تعاني من مشكلات تعبر عن ظروف خطيرة جداً تواجهها المسيحية اليوم. فالمبررات المسيحية بدأت فعلاً تفقد تأثيرها في الحياة المسيحية. فقد بدأ بعض القسيسين - رغم تأديتهم يمين الدخول في سلك الرهبنة: أنهم يعيشون من أجل الله، وأنهم لا يتزوجون، ويلتزمون بجميع شروط الرهبانية- بدؤوا بعد هذا اليمين المقدس - على شروطهم - يصرحون في الصحافة وفي مؤتمرات صحفية كبرى تدور أحياناً أمام عدسة المصورين، ويعلنون أنهم ألقوا المسوح وتخلصوا من أعبائه وأنهم تزوجوا.

ونرى المعركة تدور في مستوى أعلى من مستوى الكردينالات في الفاتيكان فيقدم كردينال هولندي استقالته، (الكردينال سانس)، من المجمع المسكوني مساندة للقساوسة من الشباب الذين تمردوا على المسوح وشروط لباسه، ثم احتجاجاً على سياسة الفاتيكان الاجتماعية.

ما معنى هذا بالنسبة إلينا نحن الذين نحلل هذه الظروف..؟

معناه أن المسيحية بدأت فعلاً تفقد المبررات التي يجب تقديمها للشباب القسيسين وللمرأة على حد سواء.

ولقد حدث الذي كان لا بد من أن يحدث على أثر فقدان المبررات. حدث أن بدأت دور التعليم العالي المسيحي في العالم، خاصة في أمريكا اللاتينية، تغلق أبوابها الواحدة بعد الأخرى، ثم تبعتها الأديرة. ذلك لأن فتيات المجتمع الإيطالي قد انصرفن لمجالات أخرى من النشاط الأخلاقي غير تلك التي تشرف عليها الهيئات الكهنوتية؛ وهكذا رأينا من سنتين حادثة ربما بلغكم صداها: أن أحد الأديرة ذا التاريخ العريق الممتد إلى ستة أو سبعة قرون - كانت أبوابه خلالها مفتوحة دائماً -

أصبح مهدداً بالإغلاق، لأنه فقد البنات المتطوعات لسلك الرهبنة ولبس المسوح، حيث إن القس المشرف على إدارة هذا الدير رأى نفسه مضطراً أن يقوم بعملية أخذت أبعاد الفضيحة، وذلك حينما اكتشفتها صحيفة إنكليزية. لقد ذهب هذا القس لتفادي الوضع في ديره - ونحن نعلم كم كان له من عطف وحنان على حياة هذا الدير - إلى الهند وإلى منطقة فقيرة (منطقة كارالا) فاشترى منها عدداً من البنات بالعملة الصعبة كي يعلمهن ارتداء لباس المسوح والقيام ببعض الطقوس البسيطة، وذلك لمدة شهرين قبل أن يزج بهن في الدير، كل هذا كي يبقى الدير..

ولكن صحيفة إنكليزية قد أفشت هذا السر للأسف، ثم تناولته الصحافة العالمية، فأصبح فضيحة، وأصبح الفاتيكان يحاول التغطية بقدر الإمكان؛ لأنها فعلاً فضيحة.

فإذا رجعنا إذن إلى الخريطة المرسومة أمامنا نجد أن اللون المسيحي أيضاً يعاني ما يعاني. فهو كأنما بهت أو شحب.

ونرى على الخريطة شيئاً غريباً: **إن اللون الإسلامي ولوناً آخر جديداً - هو لون ديانة جديدة - يكتسحان العالم.** فاللون الإسلامي اليوم يغطي مساحة من الدنيا تعادل نصفها تقريباً (مساحة الإفريقية والآسيوية تقدر بنصف الدنيا تقريباً)، وعدته البشرية تبلغ (٨٠٠ مليون) (حصّلنا هذا الرقم من إحصائية أخيرة تحت إشراف الأمم المتحدة). ولكي نعطي هذا العدد الاعتبار الصحيح يجب أن تكون لدينا فكرة عن نموه في عدد من السنين. إنني حينما قرأت لأول مرة ما يسمى بالجغرافية البشرية وأنا في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، كان توزيع أتباع الأديان كما يلي: للمسيحية فيما أظن (٦٠٠ مليون) وللبوذية (٥٠٠ مليون) وللبرهمية (٤٠٠ مليون) وللإسلام (٢٥٠ مليون)، وفي أوائل الحرب العالمية الأولى كان هذا كل عدد المسلمين في العالم، أي إن عدة العالم الإسلامي البشرية كانت (٢٥٠ مليون). فها نحن في مدى نصف قرن مثلاً نرى أن العدد قد تصاعد إلى ما يقرب الآن من المليار.

إذن نحن نرى طرفين في القضية، وعلى خطين متوازيين: نرى أن سير التاريخ كأنما يستدرج العالم إلى فشل تجاربه وخيبة أمله في تجاربه العلمية والتكنولوجية.. إلخ من ناحية، ومن ناحية أخرى نمو العالم الإسلامي كماً وكيفاً. كمّاً؛ من حيث ازدياد السكان وكيفاً باكتساب تجارب جديدة حتى لو كانت سلبية.

ونرى في الخط الموازي كأنما الله يهيِّئ القاعدة التاريخية الاجتماعية لتحقيق الآية الكريمة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٦١/ ٩].

فنحن نرى أن القضية تسير في اتجاه هذا القطب، **إذ يبدو أن من يسير على الخط الحضاري كأنه يستدرج بأخطائه وباكتشافاته العلمية لتتهيأ لمن يسير على الخط الموازي ظروف ظهوره على مسرح التاريخ.**

سبق أن أشرنا إلى اللون الجديد الذي ظهر على الخريطة سنة ١٩١٧ وهو لون أحمر لون **الشيوعية**، وهي أيضاً دين وأنا أتحدث هنا على هذا الأساس. فأنا لا أتناول الشيوعية هنا مذهباً سياسياً أو مذهباً اقتصادياً، وإنما أتناولها في حديثي هذا على أنها عقيدة ودين تقدم هي الأخرى مبرراتها، **وهي في الطريق إحدى عمليات التعويض في العالم المتحضر للمبررات التي فقدها.** فإذا فشلت محاولة الوجودية كما فشلت محاولة التعويض السياسي لتنظيم وبناء جديد لحياة أوروبية متحضرة بعد تصفية الاستعمار فيجب أن نضيف إلى هذا **أن عمليات التعويض التي نجحت إنما نجحت على حساب المبررات الأساسية التقليدية التاريخية، أي على حساب المسيحية.** فالشيوعية ظهرت نتيجةً لعملية تعويض لمبررات مفقودة.

يتبين إذن أن خطي السير والأحداث التي تجري عليهما كأنما تقود مصير الإنسانية نحو قطب يتحقق فيه معنى الآية التي ذكرناها ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٦١/ ٩].

إن هذا هو ما يجعلنا نعيد النظر في موقف المسلم في هذا الثلث الأخير، **إذ الآن يبدأ دور المسلم أمام هذه الظاهرة** حتى لكأنما أراد الله عز وجل تعطيل دور المسلم

وتأجيله في هذا القرن حتى تنتهي كل تجارب الآخرين بالفشل، ويستطيع إصلاح أخطائهم، أو حتى تصل تجاربه إلى نهاية فشلها فتكون له الخبرة لتدارك أخطائه.

ولكن كيف يتحدد هذا الدور؟

يتحدد طبعاً طبقاً لهذه الظاهرة التي نرى جانبيها، جانبها الذي يتحقق على محور (واشنطن - موسكو) والجانب الآخر الذي يتحقق على محور ما سميناه محور (طنجة - جاكرتا) والذي نسميه الآن محور الإسلام.

فكيف نتصور دور المسلم؟

يجب أن يفكر المسلم كيف يسير في اتجاه التاريخ، كيف يستغل الظروف السانحة التي تتهيأ له على المحورين: المحور الذي فقد المبررات التقليدية والذي ينتظر مبررات جديدة. والمحور الذي أشار الله عز وجل إليه في الآية الكريمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٦١/٩].

كيف نتصور إذن دور المسلم؟

نتصوره طبقاً لضرورات داخلية وضرورات خارجية، **ضرورات إنشاء وتشييد في الداخل وضرورات اتصال وإشعاع في الخارج**، ولو ألقينا سؤالاً الآن فلا شك أننا سنتفق على الجواب. فعندما نتساءل كيف يقوم المسلم بدوره في اتجاه تحقيق معنى الآية الكريمة التي أوردناها؟ **نجيب آلياً**: إنَّ على المسلم أن يبلغ الإسلام، دون أن نحدد في إجابتنا **شروط هذا التبليغ**، وهذا هو المنطق السهل الذي يغرر بنا، إن الجواب صحيح شكلياً ولكننا بكل أسف نقف عند الجواب ولا نرى مقتضياته الواقعية.

سأعطيكم صورة رمزية نطبقها بعد ذلك: هل ترون أرضاً عطشى تنتظر الري من الماء؟ هل نستطيع ريها بماء يجري تحت مستواها؟ إن الإجابة ستكون بالطبع: لا - باستثناء المجنون أو صاحب الشطحات الصوفية إذ يعتقد أن الماء سوف يطلع

إليها فيسقيها - لا، لن يسقي الماء الأرض بالصعود إليها، وإنما بالانحدار، وذلك بحكم السنن الإلهية عن طريق الجاذبية. سنة الله تقضي أن ينحدر إلى هذه الأرض إذا كان مستواه يخوله ذلك.

إذن إذا أراد المسلم أن يقوم بدور الري بالنسبة إلى الشعوب المتحضرة والمجتمع المتحضر، وأراد - بعبارة أوضح - أن يقدم المبررات الجديدة التي تنتظرها تلك الأرواح التي تتألم لفراغها وحيرتها وتيهها، إذا أراد المسلم ذلك **فليرفع مستواه بحيث** يستطيع فعلاً القيام بهذا الدور .**إذ بمقدار ما يرتفع إلى مستوى الحضارة بمقدار ما يصبح قادراً على تعميم ذلك الفضل الذي أعطاه الله له** (أعني دينه). **إذ عندها فقط يصبح قادراً أيضاً على بلوغ قمم الحقيقة الإسلامية** وتكتشف قيم الفضيلة الإسلامية، ومن ثم ينزل إلى هضاب الحضارة المتعطشة فيرويها بالحقيقة الإسلامية وبالهدى، وبذلك يضيف إليها بعداً جديداً. لأن الحضارة العلمانية، حضارة الصاروخ، حضارة الإلكترون، اكتسبت هذه الأشياء وضيعت بعداً آخر تشعر بفقدانه وهو **بعد السماء.**

إن أوروبة حققت المعجزات في عالم الاكتشافات وعالم العلوم.. ولكنها فقدت في أعماق نفسها البعد الذي كان يروح عليها ويرفّه عنها، ويسندها في وقت المحن لأنه يربطها بوجود الله.

إذا أراد المسلم أن يسد هذا الفراغ في النفوس المتعطشة، النفوس المنتظرة للمبررات الجديدة ..**فيجب أولاً أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها، كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود، إلى ربانية الوجود**، ولا قداسة لهذا الوجود إلا بوجود الله. والمسلم إذا أتى بهذا لا بلسانه ولا بشطحاته الصوفية.. وإنما بوصفه إنساناً معاصراً للناس، شاهداً عليهم بالتقى والورع، **بنزاهة الشاهد الصادق، الصادق الخبير، الواعي لقيمة شهادته**.. إذا أتى المسلم هكذا في صورة الإنسان المتحضر الذي اكتملت حضارته بالبعد الذي يضيفه الإسلام إلى الحضارة (وهو بعد السماء)، عندئذ ترتفع الحضارة كلها إلى مستوى القداسة. أي إن

الوجود الذي فقد القداسة في القرنين الأخيرين خصوصاً في هذا القرن تعود إليه قداسته، لأن القداسة من الله، ومن الله وحده ولا شيء يعطي القداسة لهذا الوجود غير الله.

والسلام عليكم.

المحاضرة السادسة

رسالة المسلم

في الثلث الأخير من القرن العشرين

القيت في مسجد المرابط في مدينة دمشق

بتاريخ٢٢ أيار ١٩٧٢ الموافق ١٩ ربيع الثاني ١٣٩٢هـ

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

والصَّلاة والسَّلام على خير المرسلين

إخواني أيها الأبناء الكرام

إن الظرف الذي يجمعني بكم في هذا البيت من بيوت الله وأنا على جناحِ العودة إلى الجزائر يجعلني أفكر بدلاً من أن أعيد محاضرة سابقة هي الآن بين أيديكم أن أضيف لها بإيجاز حلقة تمثل امتداداً في سلسلة أفكارها. ففي سلسلة الأفكار التي تناولتها في المحاضرة السابقة انتهيت آخر المطاف إلى نتيجة كبرى تضع إشارة استفهام على مصير الإنسانية عموماً في الثلث الأخير من القرن العشرين، كما تضع إشارة استفهام على دور المسلم في هذا الثلث الأخير. وقد قلت فعلاً في نهاية تلك المحاضرة:

«إن أوروبة حققت المعجزات في عالم الاكتشافات وعالم العلوم.. ولكنها فقدت في أعماق نفسها البعد الذي كان يروح عليها ويرفه عنها، ويسندها في وقت المحن لأنه يربطها بوجود الله. إذا أراد المسلم أن يسد هذا الفراغ في النفوس المتعطشة، النفوس المنتظرة للمبررات الجديدة.. فيجب أولاً أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود»[1].

فحضارة القرن العشرين أفقدت أو أتلفت قداسة الوجود، في النفوس وفي الثقافة وفي الضمائر، لقد أتلفت القداسة لأنها اعتبرتها شيئاً تافهاً لا حاجة لنا به.

(١) راجع صفحة ١٧٣.

ولقد انجرت إلى إتلافها بسبب منشأ ثقافتها التي يطلق عليها اليوم (العلمية) والتي أخضعت كل شيء وكل فكرة إلى مقاييس الكم منذ عهد ديكارت. لقد حاولت أوروبة ونجحت، ونجاحها قد يفسر لنا اليوم على المدى البعيد فشلها في الاستمرار. لقد نجحت في إخضاع كل شيء لمقاييس الكم، ولكن نجاحها يفسر من ثمَّ الأزمة التي تمر بها حضارتها التي فقدت كل مبررات وجودها لأنها أفقدت الوجود قداسته. كان الوجود مقدساً في كل تفاصيله، في حياة الحشرات كان مقدساً، في حياة الإنسان كان أكثر قداسة، حتى الأشياء التي تلقى في الشوارع، كان هناك تفاصيل توحي بقداستها، كان المارّ في الشارع إذا التقى بصره بفتات من الخبز ينحني ويلتقط هذه الفتات ثم يقبلها، ويضعها في مكان طاهر، لأنه كان يشعر بقداسة هذه الأشياء. أما الأوروبي فلا يهمه هذا ولا يلتفت إليه لأن هذه الفتات من الخبز، لا قيمة لها في نظره الكمي، إذ لا ثمن لها، لذا تلقى مع الأشياء الأخرى في سلة المهملات. وتركت أوروبة في سلة مهملاتها كل قداسة الأشياء، وكل القيم المقدسة، وفي آخر المطاف دار عليها صولجان علمها وطغيانها العقلي كثعبان التوى على صدرها يضيق عليها الأنفاس، أوروبة اليوم لا تتنفس التنفس الطليق، بل تتنفس تحت ضغط عالم الأشياء المتراكمة. إذ بقدر ما تراكمت الأشياء، وبقدر ما تراكمت الإمكانيات الحضارية اضمحلت القاعدة الأخلاقية الروحية المعنوية التي تتحمل في كل مجتمع عبء الأثقال الاجتماعية والأثقال المادية، إذ لا بد من قاعدة روحية متينة حتى تتحمل هذه الأعباء، هذه الأعباء التي ترزح تحتها أوروبة الحضارة الغربية اليوم، وهي في خضم الأشياء التكنولوجية التي تنتجها .

من هنا نتصور إذن دور المسلم باعتباره رسالة. دور المسلم لأنه يعاني أيضاً أزمته الخاصة به، وهو يعلم ذلك، إذ لا يمكنه ألا يعلم وأعداؤه أصبحوا أقرب من قبل من معاقله المقدسة. إنني لا أريد أن أشير هنا إلى أشياء سمعتها في أثناء الحجة الأخيرة. أشياء تدل على أن الشعور بالخطر موجود في ضمير كل مسلم، شعور بخطر كبير داهم.

إذن نحن نعيش أزمتنا الخاصة بنا، ونعيشها بكل أبعادها، بعدها الاقتصادي مثلاً، يكفينا أن نذكر على سبيل المثال أن أحط المستويات الاقتصادية في العالم في صورة ما يسمى متوسط دخل الفرد السنوي هو في البلاد الإسلامية. إن هذا معناه أن أحط الحظوظ- في هذه الدنيا- أصبح للأمة التي خصها الله بالهداية الإسلامية وخصها الله برسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الدنيا. هذه الأمة أصبحت تعاني الأزمات المتنوعة التي قد نجمعها في كلمة واحدة نسميها **الأزمة الحضارية**، وهي فعلاً أزمة حضارية لا غير. إذن نحن نعاني أزمتنا، ومن ناحية أخرى تعاني الإنسانية المتحضرة أزمتها، والأزمة التي تعانيها الإنسانية المتحضرة أخطر وأعمق بكثير من أزمتنا نحن، لأن أزمتنا لا تمس جوهر كياننا الإنساني، فيبقى مع أزمتنا رغم كل شيء، شيء من الكرامة أو شيء من التكريم الذي وضعه الله عز وجل في الإنسان على العموم، **أما الأزمة التي تنتاب الحضارة أو الإنسان المتحضر اليوم فهي أحياناً تفقده حتى إنسانيته** فيصبح إما وحشاً مفترساً ضارياً ينقض على كل من يستطيع تحطيمه، أو يصبح حيواناً تائهاً في المتاهات التي تفتح له بالمخدرات. هذه هي الأزمة الخطيرة التي تعانيها الإنسانية المتحضرة أو يعانيها الإنسان المتحضر.

إذن الإنسانية بشطريها؛ بشطرها المتخلف، وبشطرها المتحضر تعاني أزمة خطيرة، هي أخطر أزمة في وجودها على سطح هذه الأرض. وفي حين يسير الزمان كعادته إلى مصب. فإننا نرى خطورة هذا السير من خلال التوقعات التي تصورها لنا ملابسات هذه الفترة من الزمن التي نعيشها الآن بكل تقلباتها السياسية العسكرية الاقتصادية الثقافية. إننا نتصور أن نهاية هذا الثلث الأخير من القرن العشرين لن تكون كالفترات الأخرى، لأن التاريخ سينفرد إلى حد كبير بأشياء أخطر مما يتصور العقل، كأنما التاريخ كله تجمع منذ بدايته - أعني منذ بداية دخول الإنسان في العهد الذي يسمى العهد التاريخي- واقترب من مصبه، كالنهر الذي تجمعت كل روافده فيه عندما أصبح قريباً من البحر، ولهذا أصبح الثلث الأخير هذا مليئاً بكل التوقعات. وسينصب قريباً في سنة ألفين التي تضع أمام الإنسانية جمعاء أخطر نقط الاستفهام

على مصير الإنسانية منذ بدايتها. لأننا لا ندري في الحقيقة كيف تنتهي هذه الحقبة من الزمن.

ونحن؛ مسلمين وبشراً نشاطر البشرية مصيرها، إن الإنسانية تعيش فعلاً ما يسمى حالة طوارئ. أمام حالة الطوارئ هذه يطرح سؤالٌ: **ما رسالة المسلم؟** إن رسالته قد نلخصها في كلمة لا تعطينا حلاً، ولكن تشفي إلى حدٍّ ما غليلنا، لأنها كلمة مقبولة. وهي مقبولة من ناحية لأن الظروف تفرضها علينا، وتتعارض من ناحية أخرى - ربما في أعماق أذهاننا - مع مقدمات تتنافى مع مقتضيات الرسالة.

فما رسالة المسلم أمام حالة تتطلب الإنقاذ؟

الجواب: إنقاذ نفسه وإنقاذ الآخرين.

هذه هي رسالة المسلم. أليس في أذهاننا مقدسات سلبية تتناقض مع هذا الزعم، كأنما انجذبنا إلى شيء من الغرور، كيف يستطيع الإنسان المسلم الذي لا يتمتع بالإمكانات الحضارية بالقدر الكافي، حتى لتحقيق لقمة عيشه، كيف يستطيع إنقاذ الآخرين؟ وكيف يتطلع لهذه الرسالة؟ إذا تساءلنا هذا السؤال يجب علينا أيضاً أن نتساءل بهذا المنطق نفسه، لماذا استطاع ذلك أولئك الأعراب في عهد محمدﷺ؟ ولماذا اضطلع الفقراء الأُميون بمهمة إنقاذ الإنسانية، وشعروا أنهم جاؤوا من أجل إنقاذها. فقد كانوا يعلنون هذا في أقوالهم ومخاطباتهم للآخرين سواء من أهل الفرس أو من أهل روما. كانوا يقولون لهم: **لقد أتينا لننقذكم.** إنهم لم يشعروا بمركب النقص. لماذا لم يشعروا بمركب النقص؟ لأن الإمكانات الحضارية المتكدسة أمامهم في فارس أو في بيزنطة أو في روما لم تفرض عليهم النقص، وبعبارة أخرى لم تبهرهم، **كانوا يشعرون أمام الإمكانات الحضارية المتكدسة، بإرادة حضارية تفوق كثيراً ما تبقى منها لدى المجتمعات المتحضرة في ذلك العصر.** كذلك الحال اليوم لو أننا عقدنا مقارنة. فليس إذن من الصعب أن يقوم هذا المسلم الفقير، الأعزل، هذا المسلم الذي يضحي بمصالحه الكبرى حتى في هيئة الأمم. أن يقوم رغم ذلك وبفضل

إسلامه فقط بمهمة الإنقاذ، ولهذه المهمة شروط ربما نشرحها إذا اتسع المجال لذلك. إنه، وبفضل إسلامه لا غير، يستطيع اليوم إنقاذ الإنسانية المتورطة في الضياع رغم علمها وكبريائها وتكنولوجيتها. غير أن كل رسالة تقوم على إعجاز؛ رسالة موسى قامت على إعجاز؛ كانت عصا موسى تلتقف ما يأفكون حتى خرَّ السحرة ساجدين، واعترفوا بإله موسى وهارون. إعجاز عيسى كان إنقاذ المرضى من أمراضهم وإحياء الموتى أحياناً.

إعجاز النبي صلوات الله عليه وأزكى التسليم تعرفونه جميعاً؛ فقد أيدته السماء بالقرآن وأيدته بخلقه العظيم وأيدته أحياناً بالملائكة. وهلم جراً.

فاليوم أيضاً إذا أراد المسلم أن يقوم برسالة، فهذا يتطلب نوعاً من الإعجاز تفرضه الظروف الخاصة التي تمر بها الإنسانية اليوم؛ على اعتبار أن الإعجاز هو مجموعة شروط منطقية وغير منطقية، أعني خارجة عن المنطق، مجموعة شروط تحقق أمرين: **الاقتناع والإقناع.**

الاقتناع أولاً؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فلا يمكن للمسلم إن لم يقتنع بأنَّ له رسالة هي أن يبلغ الآخرين هذه الرسالة أو فحوى هذه الرسالة أو مفعول هذه الرسالة. إذن يجب أن يقتنع هو أولاً. وأنا أعني قناعته برسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، ولا أتكلم عن اقتناعه بدينه. فكل مسلم مقتنع بدينه من يوم أن نزلت الآية الأولى في غار حراء. ومن يحاول أن يأتي للمسلمين بوسائل لإقناعهم بدينهم فإنما يضيع وقته، وربما يضيع وقت المسلمين أنفسهم. فالمهم في الأمر اليوم أن نلاحظ **أن الشكوك التي تسربت إلى عقول الآخرين عن المجتمع الإسلامي إنما تتناول رسالة المسلم لا عقيدته.** فهل الإنسان الذي يستمع إلى المسلم وهو يتحدث عن رسالته، إنسان تفحص أو راجع أمر القرآن من حيث هو فكرة صحيحة. إن هذا هو من شأن بعض المختصين؛ بعض الأفراد من النخبة مثل لامارتين الذي خصص أكبر فصل كتبه إنسان لحياة النبيﷺ، أو برناردشو أو توماس كارليل. أما الجموع الغفيرة من الناس فلا تصبر لتدليلنا المنطقي على أن الله واحد لا شريك له، وأن النبي

رسوله، وأن هذا الدين صحيح. لقد أصبح هذا كله مسلمات. أما بالنسبة إلى الآخرين، فإن كان من النخبة فيمكن أن يدركه من خلال كلامنا، وهو في الحقيقة لا ينتظر كلامنا، بل ينصرف بجهده الخاص إلى هذا النبع من النور، ويشعر بأن الإسلام فعلاً حقيقة منزلة من السماء.

أما الجموع الغفيرة، أما مئات الملايين من البشر الذين تخصهم رسالة المسلم في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين، فهي تقول دعونا نلمس، وقولها آت من كونها نشأت على ما يسمى المنطق العملي أو كما يقول المسيحي منطق القديس توما. فتوما هذا حينما رجع المسيح بعد أربعين يوماً إلى الحواريين قال لهم: إنني عدت من السماء.. إلخ. ورفعتني الملائكة.. إلخ، فسأله توما: وأين آثار الصليب على يديك وعلى قدميك؟ أرني كي ألمس هذه الآثار بيدي لا بعقلي. هذا قولهم بالطبع، وليس قولنا، وإنما نذكره عينةً من تفكيرهم ومن أوضاعهم النفسية أمام الأفكار. فهل هم يتصلون بالأفكار عن طريق المنطق الذي نعتبره نحن السند الأول لإبطال أو تأييد فكرة معينة؟ كلا إنهم لا يطرقون الموضوع من هذا الباب وإنما من باب سان توما.

فما هو واضح في تصوري أنا المسلم ليس واضحاً بالنسبة إلى الآخرين، الذين ينبغي علي أن أتقدَّم إليهم آخذاً بالاعتبار تصوّرهم هم لا تصوّري أنا عن حقيقة المسلم. لأن حقيقة المسلم محجوبة عن نظر الآخرين. إن حقيقة المسلم، كرامة المسلم، فضيلة المسلم، أخلاق المسلم، شرف المسلم، عزة المسلم، كل هذه الأشياء تخفيها عن نظر الآخرين المظاهر الاجتماعية. وهي تشهد بكل أسف في نظر الآخرين على المسلم وضده. فالمسلم فقير، والمسلم جاهل، المسلم كذا.. الإحصائيات الموجودة في العالم كذا.. إلخ.

فنحن حينما تكلمنا على الإعجاز الذي يتضمن شروط الاقتناع وشروط الإقناع، تكلمنا على شيء جوهري جداً، أعني أن المسلم لا يستطيع أن يقوم برسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين إلا إذا حقق كل شروط الاقتناع وكل شروط الإقناع بوصفها منطقاً خاصاً برسالته.

ومن هنا نرى ما يترتب على المسلم من القيام بواجبات ملحة حتى يفي بشرط إعجازه في هذا الثلث الأخير نحو نفسه ونحو الآخرين، إنه يحتاج أحياناً إلى هذه الوسائل حتى بالنسبة إلى إخوانه المسلمين المعرضين، لأنهم يخضعون هم أيضاً لمنطق سان توما الذي يريد أن يلمس الأشياء بيده حتى يعترف بوجودها. أليس في صفوف شبابنا عدد يمنطق قضاياه بطريقة سان توما، يعني بلمس اليد لا بالنظرة العقلية، بحيث يجب فعلاً أن تتوافر لرسالة المسلم كل شروط الاقتناع، وكل شروط الإقناع، **ولن يتوافر هذا إلا بتغيير في داخل المسلم، في أغوار نفسه، وحول المسلم في محيطه الخاص أو في محيطه العالمي**، لأننا حين تكلمنا في بداية الحديث على الأزمة الإنسانية المواجهة لأزمتنا نحن المسلمين رأينا أزمة إنسانية من أخطر ما واجهته الإنسانية منذ بداية تاريخها، ونتيجة لهذه الأزمة بصورتيها؛ الصورة الخاصة بالمسلم والصورة الخاصة بالإنسان المتحضر، أصبح العالم كأنه ازدواجية، ازدواجية بين عنصرين متوازيين لا يتصلان إلا عن طريق شبكة علاقات متناقضة. هناك في العالم اليوم إذا تصورناه ككل، صلات من الطرف المتقدم ومن الطرف المتخلف الذي يسمى العالم الثالث، إذا تفحصنا كيف تسير العلاقات بين الطرفين، نراها تسير وفق ثلاثة أصناف؛ **ففي المجال الاقتصادي**. حيث أصبح كل شيء في منطق القرن العشرين يفسر بالاقتصاد. وأصبح كل شيء يخضع للاقتصاد؛ نرى أن طرفي العالم يتعاملان على أسس علاقة اقتصادية متناقضة، في طرفها الأول المجتمع **الذي ينتج المواد** الخام كالنفط وغير ذلك من المواد الأولية، وفي طرفها الثاني من يحول هذه المواد الأولية إلى **منتجات حضارية**، وطبعاً على حساب العالم الثالث، أي على حساب اقتصاده، وعلى حساب نموه كما هو ظاهر لنا مثلاً في قضية النفط خصوصاً قبل خمس سنوات أو ست حيث كانت مادة النفط تدر على أصحاب التروستات وعلى أصحاب الاحتكارات عشرات المرات أكثر مما تدر على أصحاب البلاد المنتجة. هكذا كان الوضع في المجالات الأخرى حيث كانت الصلات الاقتصادية تسير على هذه الوتيرة.

وفي المجال السياسي كانت العلاقة أيضاً متناقضة في طرفيها. كان الحوار بين متكلمين. في الطرف الأول **الاستعمار**، وفي طرف آخر **القابلية للاستعمار**. هذا الوضع الذي كان، وأخشى أن أقول: ولا يزال قائماً بين الاستعمار وبين القابلية للاستعمار، لأننا لم نغير شروط القابلية للاستعمار في أنفسنا. غيَّرنا بعض السطحيات، ولم نغير القابلية للاستعمار، غير أن ضغط بعض الظروف وقوة الأشياء جعلت بعض المواقف الاستعمارية تتغير إلى حد ما، ولكن لم تتغير كلها، ولن تتغير ما دامت القابلية للاستعمار هي التي تحاورها في المجال السياسي.

وفي المجال النفسي أو الثقافي هناك محوران؛ محور ثقافي هو ما نسميه محور واشنطن - موسكو، وهو محور واحد لا يختلف فيه شرقه عن غربه ولا غربه عن شرقه في هذه الناحية.

هذا المحور يطرق أو يطرح كل مشكلاته **بمنطق القوة**. بينما يجب على المحور الآخر أعني محور طنجة - جاكرتا الذي نعيش عليه نحن، نحن المجتمعات المتخلفة، وخصوصاً نحن المسلمين، يجب عليه أن يطرح المشكلات **بمنطق البقاء** لأننا بحاجة إلى رفع مستوى بقائنا، إلى مستوى الحضارة، وهذا يتنافى مع طرح القضايا بمنطق القوة، ولا تستطيع ولا تسمح لنا ظروفنا بغير ذلك، ولا يهمنا ولا يهم الإنسانية التي تعتبر نفسها متقدمة أن ترجع إلى رشدها..لا يهم أن تطرح أمريكاً مثلاً اليوم كل مشكلاتها بمنطق القوة، بينما بدأ مجتمعها أيضاً يعاني أعراض التخلص خاصة في المدن الصناعية الكبيرة مثل نيويورك وديترويت وشيكاغو.. إلخ. هذه المدن أصبحت فيها عينات تدل على أن التخلف بدأ يتفشى في المجتمع الأمريكي، ومع ذلك فأمريكا تخصص كل إمكاناتها لطرح مشكلاتها بمنطق القوة.

أما نحن فمضطرون أن نطرح مشكلاتنا بمنطق البقاء حتى نستطيع أن نتقدم بعض الخطوات، حتى نستطيع أن نرفع مستوانا إلى مستوى الحضارة، وهنا يفرض علينا طبعاً هذه العلاقات الثلاثية المتناقضة، العلاقات الثقافية، العلاقة النفسية، العلاقة السياسية، إذ يجب علينا أن نصفي هذه الخريطة للعلاقات العالمية، حتى يتسنى لهذه

الإنسانية أن ترفع مستواها إلى مستوى القداسة، أن ترفع هذه الإنسانية مستواها الواقعي ومستواها الثقافي إلى مستوى القداسة، وإلى المستوى الذي تستوعب معه مبرراتها الجديدة في المرحلة الخطيرة التي تمر بها اليوم في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين، إذن **يجب على المسلم أن يضطلع برسالته، أن يفكر في إعجازه، وإعجازه لا يتأتى إلا بتحقيق شرط جوهري وهو تغيير ما بنفسه وتغيير ما في محيطه** مصداقاً للآية الكريمة:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٣/ ١١].

ولا يمكنه أن يغير شيئاً في الخارج إن لم يغير شيئاً في نفسه. وحينما نقول هذه الكلمة نقولها باعتبارها (علماً)، ولا نقولها فقط تبركاً بآية، نقولها (علماً) ونعلم مقدارها من الصحة العلمية، لا يستطيع مسلم أو غير مسلم أن يغير ما حوله إن لم يغير أولاً ما بنفسه، فهذه حقيقة علمية يجب أن نتصورها قانوناً إنسانياً وضعه الله عز وجل في القرآن سنةً من سنن الله التي تسير عليها حياة البشر.

إذن لكي يتحقق التغيير في محيطنا يجب أن يتحقق أولاً في أنفسنا. وبذلك تتوافر شروط رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين، وإلا فإن المسلم لن يستطيع إنقاذ نفسه ولا إنقاذ الآخرين.

ثم إذا كان منهج الرسالة يقتضي التغيير، والتغيير يقتضي تغييراً في النفوس أولاً. إذا كان منهج الرسالة يقتضي هذا، فإننا نستطيع أن نتكلم على وسائل الرسالة أو الطرق العملية لتطبيق هذه الرسالة كي تفي بمهمتها ألا وهي الإنقاذ أو مواجهة حالة إنقاذ أو حالة طوارئ تخص المسلم وتخص الإنسانية عامة. عندها يجب على كل مسلم أن يحقق بمفرده شروطاً ثلاثة:

١- أن يعرف نفسه.

٢- أن يعرف الآخرين.

وألا يتعالى عليهم، وألا يتجاهلهم، وهنا يجب أن تحل عقدة نعرفها، وهي أن

المسلم يزهد كثيراً في عالم النفوس بما يتصل بالآخرين، لا يجوز للمسلم أن يجهل ما في نفوس الآخرين، ولا يجوز أن يتعالى على الآخرين، ولا أن يتسامى عليهم بدعوى أنه أعد للجنة وأعد للتكريم، يجب عليه أن يعلم ما في نفوس الآخرين، ويجب عليه أن يعلم ذلك لأمرين لا لأمر واحد؛ إما لكي يتقي شرهم عن معرفة وإدراك لكل معطيات نفوسهم، وإما لتبليغهم إشراق الإسلام وإشراق الهداية الإسلامية، فهو إن لم يعرف النفوس كيف يقدر أن يتصرف معها بحكمة، إن لم يعرف نفوس الآخرين، وظلت صناديقَ مغلقة عليه، فكيف يبلغها الهداية الإسلامية، إنه لن يستطيع. يجب إذن على المسلم بعد أن يعرف نفسه أن يعرف نفوس الآخرين.

٣- أن يعرّف الآخرين بنفسه.

ولكن بالصورة المحببة؛ بالصورة التي أجريت عليها كل عمليات التغيير، بعد التنقية والتصفية من كل رواسب القابلية للاستعمار والتخلف وأصناف التقهقر؛ كل أصناف التخلف وأصناف التأخر، ويجب عليه أولاً أن يقوم بهذه التصفية حتى يقدم للآخرين صورة مقبولة محببة بوصفها عينة من العينات البشرية التي يصنعها الإسلامُ، أما إذا تقدم المسلم إلى الآخرين بوصفه عورةً يجب أن يستحي منها، فالعورة تستر ولا تكشف، والعورة لا يمكنها أن تبلغ إشعاعاً؛ الجهل عورة، الفقر الذي يسببه كسلنا وكسادنا عورة، الفوضى عورة، وهذه العورات كلها لا تستطيع ولا تتيح لشخصية المسلم أن تبلغ إشراق الإسلام.

إذن هناك شروط ثلاثة يجب أن تتحقق؛ أن يعرف المسلم نفسه بالتدقيق، وألا يغالط نفسه في معرفة نفسه؛ لأنه طالما عمي المسلم بسبب هذه المغالطة، يا ليته لم يلعن طوال القرن الماضي الاستعمار، بل لعن القابلية للاستعمار، ولو فعل ذلك لكان اليوم ذا صورة محببة ومرضية لنفسه وللآخرين.

إذن يجب على المسلم أن يعرف نفسه من دون مغالطة، وأن يعرف نفوس الآخرين من دون كبرياء وتعالٍ؛ وبكل أخوة وصدق وإخلاص، أن يحبهم لوجه الله، حتى تصل إليهم عن طريق هذه المحبة وعلى جسرها، حرارة الإسلام، حرارة الحب

الإسلامي، وكل ما يناط بمفهوم التغيير يجب أن نتوخى فيه أمراً ألا وهو أن كل فكرة لها جانبان:

جانب الصحة، وجانب الصلاحية.

قد تكون فكرة ما صالحة وليست صحيحة، وقد تكون فكرة صحيحة، وفقدت في الطريق صلاحيتها لأية أسباب. ألسنا نشعر نحن مثلاً بأن ديننا، وهو أوضح- من حيث الصحة- من شمس النهار، أنه إلى حدٍّ ما وبسببنا نحن وبسبب تقاعسنا وتكاسلنا ونومنا في النهار فقد بعض صلاحيته؟. كأن هذه الفكرة المقدسة التي أنزلها الله على محمد عليه الصَّلاة والسَّلام- هذه الفكرة التي لا يختلف في صحتها عقل سليم مع عقل سليم - تبدو اليوم وكأنها فقدت صلاحيتها.

أين كرامة المسلم؟ أين عزة المسلم؟ أين مجد المسلم؟ أين علم المسلم؟ أين نزاهة المسلم؟ أين بطولة المسلم؟ أين استشهاد المسلم؟ أين شهادة المسلم ولو على نفسه؟

المسلم فرَّط في كل هذا. المسلم فرَّط وضيَّع وأتلف كل هذا.

والغرب أو الحضارة الغربية أتلفت مبررات وجودها وهي تعاني هذه الأزمة التي أشرت إليها.

والمسلم يضيِّع القيم الإسلامية التي كانت تشرق على وجهه. وتجعله في نظر الآخرين أجمل صورة إنسانية في التاريخ، حيث كان أحد المؤرخين في أوائل القرن التاسع عشر، هو المستشرق فرينو الذي ترجم جغرافية أبي الفداء، يذكر في مقدمته وهو يعلق في مقطع يخص رحلة أبي الفداء إلى نواحي (الفولغا) حيث كانت تعيش قبائل الصقالبة متوحشة كما يصفها أبو الفداء، وكان أبو الفداء مرتدياً لباسه العربي وعمته العربية. فرينو هذا وكأنه لاحظ شيئاً غريباً. يقول: كان العربي يريد أن يظهر في كل مكان بزيه القومي، نعم لأن صورته في نظر الآخرين كانت هي الصورة المثلى لبني آدم بفضل الإسلام.

أقول هذه الكلمات وصيةً لإخواني ولأبنائنا الكرام من الطلبة، وأدعو الله أن

تتحقق رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين، بفضل هؤلاء الشباب، وإخوانه في مصر، وإخوانه في ليبيا، وإخوانه في الجزائر، وإخوانه في كل البلاد الإسلامية، أن تتحقق هذه الرسالة لإنقاذ المسلم من كساده ولإنقاذ الإنسان المتحضر من استهتاره. والسلام عليكم.

مستخلص

كتابٌ يضم ست محاضراتٍ في مشكلات الحضارة المعاصرة ودور المسلمين فيها. تحدث في الأولى عن مفهومَي (القابلية للاستعمار والحضارة، — الإسلام)، فأشار إلى أن سبب تأخر المجتمع الشرقي هو تعطيل الفكر لا وجود الاستعمار. وبنى في الثانية موضوع (الثقافة والأزمة الثقافية) على فرضيَّتَين؛ سوء إدراك مفهوم الثقافة، وخلل التطبيق، فبيَّن وضع الثقافة في المجتمع المسلم، وأثر المجتمع في ثقافة الفرد. وفرَّق بين الثقافة والعلم، وما يُنتظر من الثقافة أن تقدم. وتناول في الثالثة (الحقوق والواجبات) وأثر فهم المجتمع لها في نمائه سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وبيَّن أن المجتمع الآخذ في الارتقاء يقدم الواجبات على الحقوق. وتحدثت المحاضرة الرابعة (المرأة والرجل أمام واجباتٍ واحدةٍ في مرحلة النهضة) ؛ عن أوضاع المجتمع المسلم، ومتطلبات النهوض به وإنقاذه. وتناولت المحاضرتان الأخيرتان، وهما النتيجة لما سبق من كلام، (دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين)، فمهَّد بالحديث عن أهمية أحداث القرن المشار إليه، وما يتصف به من التغيرات العميقة، وما حدث فيه من مخاطر مزقت الشباب، وأدت إلى إفلاس الحضارة الحالية والأديان القائمة وانهيار الأخلاق والقداسات وافتقاد الروحانيات. ومن هنا يبرز واجب المسلم الذي يحمل رسالة إنقاذ نفسه وإنقاذ العالم من الضياع. وفَرَّق أخيراً بين الدين والرسالة .. وفي سبيلها طالب المسلم بأن يعْرف نفسه، ويعرف الآخرين، وأن يُعرِّفها للآخرين وأن يرتفع إلى مستوى الحضارة، وفوق مستوى الحضارة الحالية.

Abstract

A book involving six lectures on the problems of the contemporary civilization and the role that Muslims played in building it.

The first one discusses the conceptions *of "The Tendency to Colonization and Civilization and to Islam"*, indicating that the retardation of the Eastern society was not the result of the presence of colony; rather, it was the consequence of inactivating intellectuality.

The second lecture builds the topic of *"Culture and the Crisis of Culture"* on two premises; the first is misconceiving the conception of culture, and the second is misapplying it. Accordingly, it brings to light the reality of culture in the Muslim society and the effect of the society on the culture of the individual. It also differentiates between culture - when accompanied by science - and the outcomes that it is expected to render.

The third lecture handles *"The Rights and Duties"* and the effect of the society's having clear understanding of them on its political, economical and social development. It also states that an advancing society gives preference to duties over rights.

The fourth lecture, entitled *"Men and Women Bear the Same Duties within the Phase of Resurgence"*, talks about the Muslim society's status quo, the requirements of uplifting it and how to save it.

The last two lectures, which represent a conclusion of the previous ones, handle the "Muslim's Role and Message in the Last Third of the Twentieth Century", and so starts discussing the importance of the indicated century events, the essential alterations in it and the serious dangers which ruined and corrupted youth and caused the present civilization and religions to be void. the morals and sacred aspects to collapse and spirituality to disappear. At this critical status rises the role of Muslims' duties as humans bearing the message of saving themselves and science from getting lost.

Finally, it lays distinction between religion and that message, through which the book asks the Muslim to know himself well. know the others and acquaint others with it, rise to the level of civilization and even far above the level of the current civilization.

مالك بن نبيّ

ولد عام ١٩٠٥م في مدينة قسنطينة في الجزائر.

انتقل بعد إنهاء دراسته الثانوية إلى باريس حيث تخرج عام ١٩٣٥م مهندساً كهربائياً.

اتجه منذ نشأته نحو تحليل الأحداث التي كانت تحيط به. وقد أعطته ثقافته المنهجية قدرة على إبراز مشكلة العالم المتخلف باعتبارها قضية حضارة أولاً وقبل كل شيء. فوضع كتبه جميعها تحت عنوان (مشكلات الحضارة).

في باريس أصدر بالفرنسية: الظاهرة القرآنية، لبيك، شروط النهضة، وجهة العالم الإسلامي، الفكرة الإفريقية الآسيوية: بمناسبة انعقاد مؤتمر باندونج.

في عام ١٩٥٦م لجأ إلى القاهرة وقد طبعت له وزارة الإعلام في القاهرة بالفرنسية كتابه (الفكرة الإفريقية الآسيوية).

اتجه في القاهرة بعد اتصاله بالعديد من الطلاب إلى ترجمة كتبه إلى العربية، ثم أصدر بقية كتبه بالعربية بعد ترجمة بعضها وكتابة بعضها الآخر بالعربية مباشرة.

انتقل إلى الجزائر عام ١٩٦٣م حيث عين مديراً عاماً للتعليم العالي، وأصدر في الجزائر: آفاق جزائرية، يوميات شاهد للقرن، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، المسلم في عالم الاقتصاد.

في عام ١٩٦٧م استقال من منصبه وتفرغ للعمل الفكري وتنظيم ندوات فكرية.

توفي في ٣١/١٠/١٩٧٣م في الجزائر.

PROBLEMS OF CIVILIZATION

DAMASCUS SESSIONS

Lectures Given between 1971-1972
Majālis Dimashq

Muḥāḍarāt Ulqiyat bayna ʻĀmay 1971-1972

Mālik bin Nabī

تحلّى مالك بن نبي بثقافة منهجية، استطاع بواسطتها أن يضع يده على أهم قضايا العالم المتخلـف.. اهتم بها منذ شبابه، ودرسها تحت عنوان (مشكلات الحضارة) فكانت هذه السلسلة التي بدأها بباريس ثم تتابعت حلقاتها في مصر فالجزائر، لتخرج بالعناوين الكبرى الآتية (مرتبة ألفبائياً).

١- بين الرشاد والتيه.
٢- تأملات.
٣- دور المسلم ورسالته.
٤- شروط النهضة.
٥- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة.
٦- الظاهرة القرآنية.
٧- الفكرة الإفريقية الآسيوية.
٨- فكرة كمنولث إسلامي.
٩- في مهب المعركة.
١٠- القضايا الكبرى.
١١- مذكرات شاهد للقرن.
١٢- المسلم في عالم الاقتصاد.
١٣- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.
١٤- مشكلة الثقافة.
١٥- من أجل التغيير.
١٦- ميلاد مجتمع.
١٧- وجهة العالم الإسلامي.

لقد أمعن مالك بن نبي في الحفر حول مشكلات التخلف المزمنة، متجاوزاً الظواهر الطافية على السطوح إلى الجذور المتغلغلة في الأعماق، وباحثاً عن السنن والقوانين الكفيلة بتحول الشعوب من الكلالة والعجز إلى القدرة والفعالية.. وهكذا تجاوز مشكلة الاستعمار ليعالج مشكلة (القابلية للاستعمار)، ومشكلة التكديس إلى البناء، والحق إلى الواجب، وعالم الأشياء والأشخاص إلى عالم الأفكار؛ مؤكداً ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٣/١١]، وأن مفاتيح الحل عند الذات لا عند الآخر.

مات بن نبي عام ١٩٧٣، لكن أفكاره ما زالت حية تهيب بالأمة أن تتلقفها لتنهض بها من كبوتها المزمنة، وتدخل من جديد في مضمار الحضارة.

SROUR ALWANI 2005

ISBN 1-59239-423-X

